دكتور عبد الغفار محمد حسين

بناء الدولة الحديثة في مصر

الجزء الأول

...عارف

بناء الدولة الحديثة فى مصر

الجزء الأول

تأليف

دكتور عبد الغفار محمد حسين

استاذ مساعد التاريخ الحديث والمعاصر

كلية التربية - طنطا

دار المعارف

الناشر : دار المعارف — ١١١٩ كورنيش النيل — القاهرة — ج . م . ع

بسم الله الرحمن الرحيم

وبعد

هذا الكتاب — أردت به أن أعطي صورة مجملة واضحة لأحوال مصر في العصر الحديث ، وتوضيح الجهود التي بذلت من أجل بناء الدولة الحديثة في مصر .

وقد اقتضى ذلك رسم صورة توضيحية لأحوال مصر في العصر العثماني ، وكيف أن هذه الأحوال مهدت لوقوع مصر فريسة لفرنسا سنة ١٧٩٨ .

وكانت الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٧٩٨ بمثابة ناقوس الخطر ، الذي أنذر بوقوع الكارثة .

ولما وصل محمد على الى الحكم بدأ يبني في مصر دولة حديثة في وسط التناقضات التي كانت سارية وفي وسط التدخلات الأجنبية في شئون البلاد ، وفي وسط الرجعية العثمانية فيها .

فهل أمكن لمحمد على تنفيذ ما أراد ؟

هذا هو موضـــوع كتابنا .

وانني لأرجو أن أكون قد وفقت في رسم الصورة العامة التي أردت ابرازها للقارىء . في هذا الكتاب الذي أقدم الان جزءه الاول وسنوالي بقية الأجزاء ان شـــاء الله .

والله الموفـــق ،

المنصورة في ١٩٨٠/٤/١٢ — د . عبد الغفار محمد حســين

محتويات الكتاب

الفصـــل الأول : ٩

احوال مصر فى العهد العثمانى : ٩

أساس الحكم العثمانى فى مصر ــ نظام الحكم (الوالى ــ الحامية العثمانية ــ الديوان ــ المماليك ــ الكتخدا) ــ انهيار نظام الحكم العثمانى ــ الدولة العثمانية والمماليك ــ حركة على بك الكبير ــ مراد وابراهيم ــ السمات العامة للاوضاع الاقتصادية فى القرن ١٨ (الزراعة ــ الصناعة ــ التجارة ــ الجزية) السمات العامة للاوضاع الاجتماعية ــ نظام الطوائف ــ الحالة العلمية ــ الحالة الصحية .

الفصـــل الثانى : ٤٩

الحملة الفرنسية على مصر : ٤٩

أسباب الحملة ــ اعداد الحملة ــ الاستيلاء على مصر ــ الفرنسيون فى مصر ــ سياسة الفرنسيين فى مصر ــ معركة النيل ــ مقاومة الشعب المصرى للاحتلال الفرنسى (فى الاسكندرية ــ فى المنوفية ــ فى الغربية ــ فى الدقهلية ــ ثورة القاهرة الأولى أكتوبر سنة ١٧٩٨) ــ الحملة الفرنسية على الشام ــ موقعة أبى قير البحرية . حكومة الادارة والحملة الفرنسية ــ كليبر والحملة الفرنسية فى مصر ــ نتائج الحملة الفرنسية على مصر .

الفصـــل الثالث : ١٠٧

الحالة فى مصر بعد جلاء الحملة وقيام حكم محمد على : ١٠٧

الصراع فى مصر بعد خروج الفرنسيين ــ تولية محمد على حكم مصر (ولاية خسرو ــ ولاية طاهر باشا ــ ولاية احمد باشا ــ ولاية على باشا

الجزائرى — محمد على والبرديسى — ولاية خورشيد — تعيين محمد على واليا على مصر) .

الفصـــل الرابع : 121

بناء الدولة الحديثة فى مصر : 121

أولا : توطيد حكم محمد على فى مصر 1 — محمد على والسلطان 2 — تدبير الاموال 3 — انجلترا تحرض السلطان على محمد على 4 — محمد على والمماليك 5 — التخلص من حملة فريزر سنة 1807 6 — تمرد الجند 7 — القضاء على الزعامة الشعبية 8 — مذبحة القلعة والقضاء على المماليك

ثانيا : بناء القوة الحربية فى مصر (الجيش الاسطول)

ثالثا : نظـــام الحكم .

رابعا : تدعيم اقتصاديات البلاد (أ) الرى (ب) الزراعة (جـ) الضرائب (د) الصناعة (هـ) التعدين (و) التجـــارة .

خامسا : العلوم والثقافة

ســـادسا : الأحوال الاجتماعية

الفصـــــل الخامس : 177

محمد على يدعم استقلاله : 177

الحروب الوهابية 1811 — 1819 (اسباب الحملة — اعدادها — وقائع الحرب — حملة ابراهيم — نتائج الحرب)

2 — فتح السودان

أسبابه — الاستعداد للحملة — فتح السودان — نظام الحكم المصرى فى الســــــودان .

الفصـــــل السادس : 193

النزاع بين محمد على والسلطان وتحديد مركز مصر : 193

اسباب النزاع ــ تجهيز الحملة ــ غزو سورية ــ المسألة المصرية ــ صلح كوتاهية ــ الحكم المصرى فى سورية ــ الثورة ــ الحرب السورية الثانية ــ تدخل الدول وانحسار نفوذ محمد على . الحرب بين مصر والدول ــ تراجع فرنسا ــ تهديد مصر ــ فرمانات سنة ١٨٤١ ومركز مصر الدولى .

الفصـــل الســـابع : ٢١٥

قناة السويس والتدخل الأجنبى فى شئون مصر : ٢١٥

مشروع الحملة الفرنسية ــ جماعة السان سيمو نيين ــ دى لسبس وفرمان الامتياز سنة ١٨٥٤ ــ موقف انجلترا من مشروع قناة السويس ــ اللجنة الدولية العلمية ــ اسماعيل ومشروع القناة ــ انجلترا وشراء أســـهم مصر فى شركة قناة السويس . تحول السياسة البريطانية ــ اثر فتح القناة فى مصر ــ معاهدة القسطنطينية سنة ١٨٨٨ ــ محاولة مد اجل الامتياز .

الفصل الأول

أحوال مصر فى العهد العثمانى

الحكم العثمانى : اسسه وطبيعته : ـ

كان أساس الحكم العثمانى أو أساس الادارة العثمانية فى مصر قانونان :ـ

الأول : هو ماوضعه السلطان سليم الأول سنة ١٥١٧ وسماه (ترتيب الديار المصرية) وهو عبارة عن مجموعة من القواعد العامة تحدد اختصاصات الاجهزة والدوائر واللجان المختلفة .

والثانى : جاء على يد خليفة السلطان سليمان القانونى وسمى (قانون نامة سليمان) وقانون نامة سليمان هو القانون المنظم للحكم ، والسلطان سليمان اشتهر بكثرة قوانينه فأطلق عليه سليمان القانونى (١) .

وكانت الدولة المملوكية فى مصر عندما سقطت فى يد العثمانيين قد شاخت وضعفت والسلطان سليم عندما فتح مصر أراد الابقاء على الحالة كما كانت بشكل عام ، مع ضمان السيادة العثمانية ، فمصر كانت تعتبر فى نظر السلطنه العثمانية أهم ولاية فى الشرق العربى وتأتى مباشرة بعد ولاية المجر ، فولاية مصر كانت تمد السلطنة بنفقات الحرمين فى مكة والمدينة ، وعلاقة مصر بالحجاز كانت قديمة ، ومصر أيضا كانت تخرج منها التجريدات العسكرية المختلفة لتنبيت وتأكيد النفوذ العثمانى فى بلاد العرب سواء فى الحجاز أو فى اليمن ، وكذلك فى جنوب بلاد الشام أى فلسطين .

اذن مصر هى الولاية وهى المركز الذى اعتمدت عليه السلطنه العثمانية فى تثبيت نفوذها فى هذه المناطق ، ومن مصر كذلك كان يطل السلطان العثمانى على البحر الاحمر ومحاولات الاستيلاء على عدن .

لهذا كله كان اهتمام السلطنه العثمانية بمصر ، وعلى هذا فكان هناك أساسان استندت اليهما القوانين العثمانية **الأول** هو الرجعية ، فقد كانت كل النظم الحكومية توجه توجيها مباشرا الى الابقاء على الحالة كما كانت قبل الفتح العثمانى ، **والثانى** هو البعد عن استخدام العنف والشدة ، وعدم ارهاق الطوائف المنتجة من أهل الزراعة والصناعة والتجارة بصفة عامة بالضرائب كما كان يفعل المماليك (٢) .

وبذا صار الحكم العثمانى فى مصر رجعيا جامدا فنتج عن هذا أن أصبحت مصر — وهى الدولة ذات التاريخ الطويل ، والتى كانت بالأمس دولة قوية — مجرد ولاية منفردة منطوية على نفسها (٣) .

واذا كان العثمانيون من المسلمين فان الدين بصفة عامة لم يكن بالنسبة لهم سوى وسيلة استخدموها لفرض سيطرتهم على دول العالم العربى ، وخاصة بعد أن بدأ الضعف يدب فى أوصالهم وافتقدوا الى القوة ، فلجأوا حينذاك الى الدين واستخدموه كوسيلة لضمان استمرار فرض سيطرتهم على العالم العربى خاصة وأن عقلية الانسان فى العالم العربى فى ذلك الوقت كانت تنظر الى الانسان على أنه فرد فى جماعة دينية اسلاميه أولا ثم مواطن فى بلده ثانيا .

واذا كان المصريون قد بدأوا يقاومون الترك مقاومة عنيفة فى أول الامر فانهم مالبثوا أن استسلموا لهذا الحكم وآثروا الدعوة والهدوء ، واصبحوا رعية منكمشة منصرفه الى شئون معيشتها .

وشيئا فشيئا قضت الدولة العثمانية على الشخصية المستقلة لدول العالم العربى واضعفت الروح القومية ، وقام نظام الحكم العثمانى على أساس السيطرة العسكرية وتقسيم الوطن الواحد الى وحدات عسكرية تعرف باسم الايالات . كما حدث فى سورية والعراق مثلا ، يحكم كل منها وال بيده السلطة المدنية والعسكرية ، ولم يكن هدف الترك سوى ربط هذه البلاد بالامبراطورية العثمانية ربطا محكما قويا بعد تجريدها من كل سمة قياديه وتحويلها الى مجرد ولاية تابعة للاستانة كما حدث فى مصر (٤) .

ويعزى للعثمانيين عزلهم لمصر والعالم العربى عن مراكز الحضارة الحديثة فى العالم منذ عصر النهضة فى مطلع القرن ١٦ ، وذلك نتيجة لانعزال الدولة العثمانية نفسها ، فعلى الرغم من أن هذه الدولة وصلت الى أواسط أوربا ، فانها فشلت فى توطيد العلاقات الثقافية بين الشرق والغرب ، وبدلا من أن تجد الثقافة الاوربية الناهضة فى مختلف المجالات الطبيعيه والفكرية والتجارب الواقعية طريقها الى الشرق تجد أنها قد تراجعت عنه ، وتخلفت أحواله الثقافية والفكرية وساده تسليم مطلق بما كان يسوده من منطق اتسم بالتخلف والرجعية (٥) .

وقد ارتكز الحكم العثمانى فى مصر على القوة العسكرية ، فقد ترك سليم فى القاهرة نحو خمسة آلاف فارس وخمسمائة من الرماه (٦) ، وتوزعت قوات أخرى فى الاقاليم وعين خير الدين باشا قائدا لهذه الحامية . واصبحت السلطات الحاكمة فى مصر تخضع للسلطان العثمانى وأجهزته الادارية المركزية ، ولم تكن للسلطات المحلية فى القاهرة تملك حق اصدار القرارات الخطيرة والتى تتعارض مع ارادة السلطة العليا فى الاستانة (٧) وان كان ذلك لم يحل دون تمتع السلطات فى مصر بشىء من الحرية نظرا لبعد مصر عن مركز الحكم فى الآستانة ولكن بشرط أن تكون هذه القرارات لاتتعارض مع الأنظمة التى وضعتها السلطات المركزية ، وذلك ضمانا لسيطرة العثمانيين على مصر اقتصاديا وعسكريا ، وظل هذا ساريا مادامت الدولة العثمانية قوية ، ثم تغير هذا لما أصاب الدولة العثمانية من ضعف وصارت للقوات المحلية نفوذا أكبر وحرية أكثر فى اتخاذ القرارات (٨) .

وبصفة عامة كان نظام الحكم العثمانى يرجع الى حقيقة هامة ذات أصل فارسى أكدتها تجربة الحكم العثمانى خلال القرنين ١٦ ، ١٧ وهى عدم الثقة فى ممثلى الدولة والخوف من أطماعهم الشخصية ، ومن هذه الحقيقة نشأت سياسة توازن القوى داخل الولاية ، وكان الأصل أن ينوب عن السلطان فى حكم مصر .

١ ـــ الوالى :

أو الباشا ويطلق عليه والى مصر ، أو محافظ مصر المحروسة ، وحضرت

وزير روشن ضمير أى الضمير المنير ، ولذلك فقد كان يجمع فى يده السلطة وزير العسكرية والمدنية العليا،كما كان مسئولا عن أمن الولاية ونظامها الداخلى، وعن جمع الضرائب ورئاسة الاحتفال بوفاء النيل وللحد من سلطته وعدم الثقة فيه كان محاطا دائما بجواسيس البسلطنة وعيون السلطان (٩) ، وكان الوالى يقيم فى القلعة فى أحد القصور بها لايخرج منه غالبا ولايزور الاقاليم ، ومن ثم فقد كان هناك مايفصل بينه وبين الرعية ، وبالطبع فقد أثر هذا على الطريقة التى حكمت بها البلاد (١٠) .

وللحد من سلطته أيضا جعلت الدولة تعيينه لمدة سنة واحدة حتى لاتكون لديه فسحة من الوقت ليحقق أطماعه الشخصية ، ومع أنه كان يملك من وجهة النظر الاسلامية البحته السلطة القضائية باعتباره ممثل السلطان فقد كان القضاه ورجال الدين يرسلون تقاريرا واحتجاجات الى استانبول وكان السلطان يقيم حسابا لهذه التقارير .

وكان الوالى يدعو الديوان للانعقاد وله حق رئاسته ، ويصدر الغرامات باسم السلطان ويعين ويعزل شيوخ البلد والسناجق والكشاف بعد اخذ رأى الديوان (١١) وأصبح الوالى بهذه الصفة قمة نظام الحكم العثمانى فى مصر . ويمثل قمة الهرم ولكنه لم يكن فى امكانه اصدار قرارات سياسية أو عسكرية فقد كانت الحامية تحد من سلطته وكان أول والى عين لحكم مصر هو يونس باشا ثم عزل وعين مكانه خاير بك الذى بقى فى الحكم حتى توفى سنة ١٥٢٢ (١٢) .

وخلال حكم السلطان سليمان القانونى تولى حكم مصر اربعة عشر واليا وتولى حكمها طوال ٢٨١ سنة نحو مائة وال .. (١٣) .

وكانت ايرادات الوالى تأتى من نسبة معينة من الضرائب على بعض أصناف المتاجر ، وعلى الجمارك ، وعلى تولية الامراء وأعوانهم (١٤) وعند نقل الالتزام من شخص الى آخر ، وكانت هذه الايرادات تقيد فى خزينة الباشا الخاصة المسماه (الخزينة الخديوية) او خزينة ولى النعم ويصرف له كذلك من خزينة الروزنامه مرتب سنوى ثابت (١٥) .

ونظرا لقصر مدة حكم الوالى فقد كان غير قادر على القيام بأى عمل يستلزم وقتا طويلا حتى لو أراد أن يقوم بشيء ، ومن ثم أصبح جمع المال هو شغله الشاغل ومسئوليته الرئيسية (١٦) .

٢ — الحامية العثمانية:

على أن أهم القوى التى كانت موجودة فى مصر هى الحامية العثمانية او كما كان يطلق عليها الأوجاقات ، وكان عددها يتراوح بين ١٢ — ١٥ الف ، وهذه الحاميات كانت تضم سبع أوجاقات هى متفرقة ، وجاويشان ، وجونللويان ، وتفنكشيان ، وعـــزبان ، وانكشارية ، وجراكسة وكانت الانكشارية تسمى نيتشرى وأحيانا تنكجرية .

وكان رئيس الأوجاق يسمى الأغا وله نائب هو الكتخدا ثم الدفتردار الذى كان يتولى حسابات الاوجاق ، ويلى هؤلاء كبار الضباط ويطلق عليهم الاختيارية ورئيسهم يطلق عليه باش اختيار أى رئيس القدماء ، ثم يلى هؤلاء الضباط الصغار ويطلق عليهم الجوركية ، أما الجنود وأفراد الحامية فهم واجب وعايا (١٧) .

وكانت سلطة الباشا على الأوجاقات محدودة للغاية ، فتعيين الرتب الكبيرة يأتى من استانبول ، وكان يحد من سلطة الباشا أن قانون نامة سليمان حدد لكل أوجاق اختصاص معين فبعضها كان يحفظ القلاع وأوجاق جاويشان كان يحصل الاموال الاميرية من الملتزمين ، ويوردها الى خزينة الروزنامة ، ومنهم كان المحتسب ، وبعضها كان يشرف على حفظ النظام فى القاهرة والأقاليم ، وكان الجراكسة والجونللويان يحافظون على الجسور ويساعدون الملتزمين فى تحصيل الأموال من الفلاحين ، وكانت الانكشارية هى حرس الوالى تساعده فى تنفيذ القانون ، ولها رقابة عليا عليه ، ومنها كان كبار أصحاب المناصب مثل الكتخدا وسردار الحج أى قائد القوة المصاحبة لقافلة الحج لحمايتها من إعتداء العربان ومنهم سردار الحج ، وكانوا أيضا يتولون حماية القنصليات فى القاهرة والسويس ويتولى هذا العمل رئيس القافلة ويسمى (قافلة باشى) وكان أوجاق عزبان (العزب) هو أوجاق

البحرية فمنه كان بحارة ترسانة الاسكندرية والسويس ومنه كان أمير البحرية (١٨) .

وكانت الأوجاقات تضم عناصر مختلفة وأخلاطا من العسكر العثمانية ومن المماليك والعرب والشوام والمغاربة ، ثم أخذ العنصر المملوكى يقوى على حساب العنصر العثمانى بعد أن استقرت الأوجاقات فى البلاد ، وانتظم فيها كثير من المماليك والمصريون ، وصارت لها صفة محلية بعد ان انصرفت الدولة العثمانية بعد ضعفها وتقهقرها عن ارسال الجنود الى مصر ، وسد المصريون الفراغ الذى حدث فى صفوف الحامية .

وكذلك تكون من قادة الفرق مجلس شورى الباشا ولم تكن القرارات تنفذ الا بعد تصديق المجلس عليها .

ونظرا لأن مصر لم تتعرض طوال ٢٨١ عاما (من الفتح العثمانى حتى الغزو الفرنسى سنة ١٧٩٨) الى خطر خارجى فقد أخلدت الحاميات الى حياة الاستقرار واندمجت فى الشعب المصرى منذ النصف الثانى من القرن ١٧ بعد ان ضعفت سيطرة الدولة العثمانية حتى أن الحملة الفرنسية لم تجد من يتصدى لها سوى قوات المماليك تؤازرها قوى الشعب المصرى .

ولكننا يجب أن نفهم انه كانت ترد الى مصر المراسيم تطلب من آن لآخر قوات من الحامية التركية فى مصر للاشتراك فى الحروب التى تخوضها الدولة العثمانية (١٩) .

وقد لعب أوجاق العزب بصفة خاصة دورا كبيرا فى حياة مصر السياسية ذلك لأنه كان يتدخل فى الإحداث ، فرجاله كانوا أغنياء يخضعون لعدد من الضباط ذوى الهمة والنشاط مثل الشوربجى والصابونجى الذين كانوا يقررون الأمور الهامة للدولة ويتمتعون بالهيبة وحب السناجق والكشاف . وقد دخلوا فى كثير من الأحيان فى معارك مع فرق الانكشارية وكان الانكشارية من أقوى الفرق العسكرية فى مصر . وكان هذان الأوجاقان يقيمان معا فى القلعة ولكل منهما معسكره الذى يسمى (باب) .

وقد لعب هذان الاوجاقان دورا رئيسيا فى الازمة التى حدثت فى القاهرة سنة ١٧١١ وذلك لأن المماليك كانوا ينقسمون الى حزبين متنافسين هما القاسميين والفقاريين ، وكان العداء متحكما بين العزبان (العـــزب) والانكشارية ، وكانا فى نفس الوقت يقتسمان أهم المهام الرئيسية والمنافع الأساسية فى مصر . وامتد التخريب بين هذين الأوجاقين والمماليك حتى تحالف الانكشارية مع الفقاريين وتحالفت طائفة العزب مع القاسميين ؛ بل نجد أن الشعب المصرى نفسه شمله هذا التحزب فقد انضم الأمير حسين امير اخميم مع معسكر القاسمية / العزب وانضم بدو الهوارة الى معسكر الفقارية / الانكشـــارية .

ويرجع ذلك كله الى ان هاتين الطائفتين من الجند قد استأثرتا بجزء كبيرة من طبقة الحرفيين والتجار جريا وراء المكاسب المادية الهائلة التى حصلوا عليها كأجر وكتعويض مقابل الحماية التى يحققونها لطوائف الشعب. فمثلا اختص الانكشارية بالسيطرة على اغنى تجار البن والعطارة حتى أن فرق الجند الأخرى أخذت تتحالف فيما بينها لوضع حد للمساوىء التى كانت الانكشارية مسئولة عنها الى حد كبير (٢٠) .

وهذا المثال يعطينا صورة عما كان يسببه التنافس بين الأوجاقات من فوضى وشغب وأزمات كان الشعب المصرى فى كثير من الأحيان هوالضحية.

أما الانكشارية فقد كانوا مصدر المتاعب ، كانوا يقيمون فى أعلى القلعة ويسودهم تعاون وثيق يشوبه التآمر ضد الاهالى لمصلحتهم ، وكانوا يمثلون اقوى عناصر الفساد وبسلطة قوية على الفرق الأخرى بسبب قوة نيران اسلحتهم ، ولأنهم كانوا يخضعون لقيادة عامة موجودة فى استانبول ولم يكونوا يخضعون للوالى (٢١) .

أما الاشراف على الامن فى الداخل فلم تقم به قوات بوليسية معينة وانما أسندت هذه المهمة لرجال الأوجاقات وعلى الأخص أوجاق الانكشارية وكانوا يسمون فى القاهرة مستحفظان بسبب دورهم فى حماية القلعة ومدينةالقاهرة.

٣ ـ الديوان :

كان الديوان يتألف من قواد الحاميات وكبار الاعيان ، وكان يضم فى بداية الامر رؤساء الحامية العثمانية فى مصر ، والكتخدا والدفتردار وأمير الحج ، وكانت مهمته فى بداية الأمر تنحصر فى معاونة الوالى فى شئون الحكم والادارة ، ثم تطورت بعد ذلك فأصبحت تشمل منع الوالى من اساءة استخدام سلطته .

وبعد تنظيمات السلطان سليمان القانونى أصبح الديوان يضم اغا كل وجاق ودفترداره والروزنامجى ✻ والامراء والسناجقة وأمير الحج . وقاضى القضاة والأعيان والاشراف ورجال الافتاء الأربعة والائمة الاربعة والعلماء(٢٢) كما ضم الدفتردار والمهردار (حامل الاختام) ، والدويتدار (حامل الدواة) وبعض محررى الغرامات (القرامنجية) وبعض الكتاب والتراجمة .

وصار للديوان اختصاصاته الادارية ، فقد كان يبحث فى فرض الضرائب ، ويقرر الاجراءات المالية الواجبة ، ويشرف على أعمال الخزينة ، ويبحث فى القضايا الهامة ، ويتولى ارسال نفقات الحرمين ، ولم يستطع الوالى ان ينفرد فى الشئون الادارية بل كان عليه أن يرجع الى راى رجال وامراء المماليك (٢٣) .

وكان الديوان يجتمع مرة كل أسبوع ليقرر مايتعلق بالشئون الادارية، ويرأس اجتماعاته كتخدا الباشا ، وأطلق على الديوان ديوان محروسة مصر وديوان حضرت ولى النعم والى مصر . وأما الباشا فكان يحضر اجتماعاته من وراء ستار على طريقة السلطنة العثمانية .

✻ روز كلمة فارسية بمعنى النهار ، ونامه بمعنى دفتر الحوادث اى دفتر الحوادث اليومية أو الحساب اليومى ثم صار معناها الديوان الذى يقوم بتحرير وضبط الحسابات فى الدفاتر الرسمية (د. محمد عبد المنعم الراقد هامش ص ٢٩٨)

٤ ـــ المماليك :

وكانت الى جانب الوالى والأوجاقات ورجال الديوان هيئة المماليك أو البكوات المماليك من صناجق وكشاف .

فالسلطان سليم عفا عن المماليك بعد فتح مصر لأنه أراد ان ينتفع بخبرتهم وليجعل منهم عنصرا من عناصر الموازنة مع الباشا العثمانى . وعنصرا من عناصر الحد من سلطته ثم أخذ يوزع عليهم الاموال ليترضاهم . لانه لم يرد ان يحولهم الى أعداء يثيرون ضد الدولة الفتن والحروب التى قد ينجم عنها تقويض دعائم السيادة العثمانية ، وجريا على سياسته التى سارت على اساس الاعتماد على العصبيات المحلية بعد أن يضمن خضوع زعمائها وولائهم للسلطنة العثمانية (٢٤) .

وكانت تتكون من المماليك هيئة سناجق مصر أو جماعة محافظى مصر المحروسة ، وهؤلاء لم يكن عددهم ثابت دائما وان كان نحو ٢٤ بصفة عامة ، وكلهم كان برتبة بك ، وكان المعتاد ان يعين السلطان من قبله أربعة من السناجق للاشتراك فى الحكم مع المماليك فى الاسكندرية ودمياط والسويس وكتخدا الباشا ، أما العشرون الاخرون فكانوا من المماليك يعينهم الباشا بعد موافقة السـلطان .

وكان عدد السنجقيات أربعا هى الشرقية والغربية والمنوفية والبحيرة ثم سنجقية جرجا فى الصعيد ، وقسمت باقى الاقاليم الى كشوفيات ، وكان السناجق على رؤوس السنجقيات المهمة ، وتمتع سنجق جرجا فى الغالب باستقلال داخلى حتى اذا كان القرن الثامن عشر طغت سلطة السناجق على سـلطة الوالى .

وكانت مهمة السناجق هى الاشراف على الزراعة والرى واقامة الجسور وتوطيد الأمن ، ومنع العربان من العبث بأموال الفلاحين واقامة العدالة، والاشراف على أعمال الكشاف التابعين لهم(٢٥) .

أما مهمة الكشاف فتلى مهمة السناجق فى الأهمية ولكنها لاتختلف من مهمة السناجق فكانوا مكلفين بحماية القرى ، والقبض على الأشقياء والتصدى لخطر العربان .

ونظرا لأن الكاشف مثله مثل غيره من الموظفين كان يدفع للباشا ولضباطه ولخزانة السلطان فلم يكن يعتمد فقط على مرتبه بل كان يعيش على حساب الفلاحين (٢٦) .

والى جانب هذا كان المماليك يقومون بمهمات معينة ، فقد كانوا يقودون الفرقة التى تحرس الجزية الى استانبول ويقودون الفرقة التى يطلب السلطان من مصر امداده بها حين يشتبك فى حرب ، وفى بعض الاحيان يقودون الحملات لاخضاع العربان والبدو .

وكان الدفتردار وأمير الحج وشيخ البد هم اكثر المماليك نفوذا ، وذلك بالاضافة الى وظيفة الكخيا أو نائب الباشا والقباطنة الثلاثة وهى وظائف اسندت الى المماليك (٢٧) .

ولكن اهم منصب لأمراء المماليك هو منصب شيخ البلد ، وكان بمثابة حاكم القاهرة وتأتى شخصيته فى مصر بعد الباشا ثم اصبح الشخصية الأولى فى أواخر القرن ١٨ حين طغت سلطنة المماليك على سلطة الباشا العثمانى وسلطة الأوجاقات نفسها ، وأصبح شيخ البلد ، والحاكم الفعلى لولاية مصر ، ولم يعبأ حينذاك المماليك بالولاة وعزلوا من لايرضون عنه أو من خالف أرادتهم ، واذا ماأصدروا قرار العزل انفذوا أحد ضباط الأوجاقات يحمل قرار الديوان بعزل الوالى ، ولم يكن امام الوالى حينذاك الا الطاعة والتنفيذ (٢٨) .

٥ ــ الكتخدا :

كانت نواحى الادارة الأخرى توضع فى يد الكتخدا ، وهو وكيل الباشا العثمانى ، يعين من استانبول أيضا ولمدة سنة واحدة ، ويعين برتبة سنجق ويتغير بتغير الباشا ، وهو يعاونه فى جميع اعماله ، ويوقع الأوراق نيابة

عنه أثناء غيابه ويساعده الدفتردار وبيده مالية مصر ويعين كذلك بفرمان من السلطان ، ويساعده كذلك جماعة من الموظفين من اهمهم الروزنامجى وهو المدير العام بديوان الروزنامة ويعين بقرار من الديوان وبعد موافقة شيخ البلد والسناجق ورؤساء الأوجاقات ومهمته الاشراف على تحصيل الأموال المقررة وصرفها ، وكان له معاونوه ومساعدوه فى حين أن مهمة الدفتردار هى تحصيل الأموال التى تقررها الضرائب المتنوعة والتعهد بانجاز متطلبات الحرمين الشريفين ومعدات الآستانة وتسهيل خزنة السلطان ومحاسبة الوالى فى نهاية مدة ولايته ، وكان له وكيل ومهردار وموظفون يعملون تحت اشرافه (٢٩) .

ومن هذا العرض لنظام الحكم العثمانى نرى أن هذا النظام تميز بالاستبداد ، فقد كانت السلطة المخولة للهيئات العليا الحاكمة فى مصر غير محدودة الا بارادة الباب العالى ، ولم يكن يهم السلاطين سوى استمرار فرض سيطرتهم على مصر والابقاء على تبعيتها للباب العالى وكان هذا النظام نابعا :

اولا : من ان الحكم العثمانى كان بمثابة احتلال اجنبى فرض على شعب مصر رغم أنفه .

ثانيا : أن السلطان العثمانى نفسه فى الآستانة كان هو السلطة العليا التى سيطرت على كافة الأجهزة السياسية والادارية والعسكرية ، وهى نظم انبعثت من نظام الاقطاع الذى ورثه آل عثمان من الدولة السلجوقية .

والعثمانيون نظروا عموما الى مصر كملك خاص لهم حق التصرف فيها ، ونهم وحدهم السلطة فأخذوا يوزعون المناصب العليا على الترك ، واهملوا شأن الفلاح وسخروه لفلاحة الأرض ليتنازع على ثمرتها العثمانيون والمماليك الذين يتعاونون معهم (٣٠) .

انهيار الحكم العثمانى

فى القرن الثامن عشر اخذ هذا النظام ينهار وذلك لانهيار نظام الأوجاقات لأن الادارة أصلا كانت مبنية على نظام الأوجاقات كما أنهار النظام الاقتصادى لأن العثمانيون لم يهتموا بنظام الزراعة .

وانحلال نظام الأوجاقات وضعفه يرجع الى عوامل متعددة :

١ — منها ضعف نفوذ السلطنة العثمانية نفسها ، وضعفها بالطبع يؤدى الى ضعف ولاياتها .

٢ — ومنها عجز الدولة عن دفع مرتبات أفراد الحاميات حتى أضطروا الى الانخراط فى سلك طوائف الحرف ليجدوا لأنفسهم مصدرا آخر للرزق مع بقائهم كأجناد فى الحاميات .

٣ — ومنها زواج أفراد الحاميات بالمصريات فبعدوا عن نظام العسكرية الجاد وخرجوا الى نطاق الحياة العامة ، بل أن بعضهم كان يبيع حقوقه الممثلة فى الواجبات والمستحقات من جراية ومرتب الى بعض أصحاب الحرف . فأدى هذا الى دخول كثير من المدنيين فى دفاتر الأوجاقات والى اعتبارهم من أفرادها .

أما هيئة المماليك فقد احتفظت بقوتها وشخصيتها المستقلة لأن طبيعة النظام المملوكى نفسه من حيث أنه يقدم على جلب وشراء أفراد من الخارج لاصلة لهم بالمجتمع والحياة المصرية ويربون تربية خاصة ، فهذا النظام جعله نظاما مغلقا أمام أفراد المجتمع مما أدى الى احتفاظ هيئة المماليك بكيانها المستقل ، فلما انتهى نظام الأوجاقات الى الانحلال أخذت هيئة المماليك تستأثر بالسلطة حتى طغت سلطتها وسلطة كبيرها شيخ البلد على سلطة الباشا العثمانى ثم طغت سلطة السناجق والكشاف على سلطة قواد الحاميات خارج القاهرة (٣١) ، وكان يساعدهم على ذلك تجدد الدماء فى هيئتهم ، فقد كانوا يجلبون العديد من العبيد وبخاصة من وجهات القوقاز ، وبالتالى كان يزداد عددهم ويصيبون الغنى من جراء تحكمهم فى الأقاليم وتوليهم الالتزام (٣٢) .

ثم أن انحلال نظام الأوجاقات أدى الى اختلال النظام الزراعى ، ذلك أن هذا النظام كان قائما على أساس ربط أرزاق الجند على الأموال الأميرية ، وهى بدورها مربوطة على الأطيان ، وانهيار نظام الأوجاقات أدى الى تصدع النظام الزراعى برمته ، ثم أن ازدياد نفوذ المماليك وشرائهم على نطاق

واسع يتطلب البحث عن المال ، والحاجة الى المال دفعتهم الى زيادة الضرائب والخروج على القواعد المعمول بها ، ودفعتهم الى الاغتصاب ، وكل ذلك أدى الى ازدياد سوء الحالة الاقتصادية وانهيار الحالة الاقتصادية أدى بالتالى الى تعرض البناء الاجتماعى كله للانهيار .

فالأزمة المالية التى شهدتها مصر فى القرن ١٨ والتى تبدأ بالسنوات السبع من مشيخة ابراهيم بك ورضوان بك ١٧٤٧ — ١٧٥٤ وازدياد نفوذ شيخ البلد أدى الى خروجهم الى مشاريع واسعة أدت بدورها الى زيادة الضرائب وزيادة المغارم وزاد ذلك كله فى الأزمات الاقتصادية التى مرت بالبــــلاد .

ونحن نعرف أن الدولة العثمانية كان لها تقليد غريب فى حكم ولاياتها يتمثل فى أنه طالما كانت القواعد الأساسية فى التبعية للسلطان كالخزانة والخطبة وصك النقود ظلت مرعية ، اذن فلا خوف على الولاية ، لذا فقد غضت السلطة الطرف مؤقتا عن انهيار نفوذها فى مصر الى أن تحين الفرصة المناسبة للتدخل المسلح واعادة الأوضاع الى ما كانت عليه ، ثم ان الدولة العثمانية عموما كانت بيدها الوسائل التى تضمن بها ولاء مصر وولاء الرعية، وهذه الوسائل كانت الولاء الدينى اذ السلطان يعتبر فى نظر المسلمين هو خليفتهم الواجب طاعته ، وكان فى امكان الدولة العثمانية غلق أسواق الرقيق فى البحر الأسود والقوقاز فى وجه المماليك ، ثم منها آخر الأمر امكانية ارسال حملات عسكرية تأديبية حين تسنح الفرصة .

وانهيار نظام الأوجاقات هو الذى أدى الى ازدياد نفوذ المماليك فى مصر ثم مهد لحركة على بك الكبير (٣٣) .

محاولات الدولة العثمانية القضاء على نفوذ المماليك

رأينا أن السلطان سليم لم يرد القضاء على المماليك ، بل عمل على جذبهم نحو الدولة العثمانية ووزع عليهم الهبات والأموال لأنه رغب فى الاستفادة بخبرتهم ومعرفتهم الطويلة بأحوال مصر ثم لانه أراد اجتناب سخطهم ، ولما قد يسببونه للدولة من مشـــــاكل .

الا أن حافظ عوض يرى أن السلطان سليم اخطأ حين لم يقض عليها رغم تمكنه من ذلك ، ولكن الدولة العثمانية وفى فجر القرن ١٨ بعد أن رأت استفحال نفوذهم أرادت أن تقضى على قوتهم المتزايدة وذلك بايقاع الفرقة والنفوذ بين جماعاتهم ، وبذر بذور المنافسة بين زعمائهم بواسطة بعض ولاتها فى مصر . والمماليك بدورهم عندما عرفوا ذلك كانوا يقاومون هذه المحاولات ، ولم تفلح الدولة العثمانية الى حد كبير فى محاولاتها ، وذلك رغم نفوذها الدينى والسياسى ، ورغم مطامع المماليك شهواتهم وفسادهم وقلة وفائهم لســـادتهم .

فقد حاول السلطان أحمد (١١١٤هـ / ١١٤٣هـ — ١٧٠٢م — ١٧٣٠م) ذلك وولى مصر حسن باشا الذى بدأ يلقى بذور التنافس بين الفقارية والقاســـمية .

ولما تولى السلطان محمود (١١٦٨/٤٣هـ — ١٧٥٤/٣٠م) أمر والى مصر بكير باشـــا بالايقاع بينهم ، فبدأ يدس الدسائس بين الأمراء ، ولكن الطاعون شغله بعض الوقت ، ثم أخذ بعد ذلك يستعين بفريق منهم ضـــد الفريق الآخر ، ووقعت فى عهده معركة دموية فى بيت الدفتردار قتل فيها ١١ من كبار بكواتهم ، ولما طلب عمر حلبى بثار أبيه على بيك تيطاس خلع عليه الوالى امارة أبيه ورسم له بقتل قاتلى أبيه ، وعلم المماليك بهذه الخديعة فحاصروا القلعة وأنزلوا بكير باشا ذليلا مقهورا وسجنوه ، وكتبوا الى السلطان فأرسل الى الولاية مصطفى باشا ، وأحسنت الدولة الى بكير باشـــا بعد عودته .

وفى سنة ١١٥٢هـ عينت الدولة سليمان باشا الشاعر المعروف بابن العظم ، وبدأ يلقى بذور الفتنة ، وتقاتل المماليك مع بعضهم ، ثم اتضح أمره فأنزله المماليك من قلعته ، وعينت الدولة بعده والى آخر ثم ثانى وثالث الى أن عاودت الدولة أثناء ولاية محمد رجب باشا مؤامراتها ، واستمالت حسين بك الخشاب الذى تعاهد معه الوالى على الا يخون أحدهما الاخر ، وكان القطامشة والدمايطة هم أصحاب الكلمة حينذاك ، فدبر لهم الوالى وحليفه مؤامرة فى القلعة ولكنها لم تنجح وقتل بعض الأمراء ، ولكن ابراهيم بك الذى كان على بك من مماليكه أخذ عدته وأدرك المكيدة وجمع

قومه وانتهت الفتنة بانزال الباشا من القلعة وعزله وعلت كلمة ابراهيم بك . ومع كل هذا فقد أستمرت الدولة العثمانية فى محاولاتها وتنفيذ مخططها ، ففى ولاية حمزة باشا ١١٧٨ هـ وعندما جاء المماليك لتهنئته أمر الجند باطلاق النار عليهم أثناء انصرافهم فأصيب عثمان بك الجرجاوى وحسين بك كشكش وجرح كثيرون ، وصاح الأمراء بمماليكهم فاقتحموا دهاليز القلعة ودافعوا عن ساداتهم ، وانتهت المؤامرة بعزل الوالى .

وتولى بعده محمد راقم باشا فأخذ يحض خصوم على بك لمقاومته تحت رئاسة حسين بك كشكش ويساعده بالمال ، ولكن على بك نجح فى التخلص من خصومه وصار شيخا للبلد وهنا نجد الوالى يخلع عليه ويقره شيخا للبلد ويعلو نجم على بك وأخيرا لم ينج من فخ الدولة العثمانية .

وفى أيام مراد وابراهيم أصدر السلطان عبد الحميد الأول أمرا بارسال قوة الى مصر لتخليصها من المماليك (٣٤) .

حركة على بك الكبير

تعتبر حركة على بك مظهرا من مظاهر انهيار النفوذ العثمانى فى مصر ، وهى فى نفس الوقت مظهرا من مظاهر التنافس بين البكوات المماليك ، أو بمعنى آخر بين البيوت المملوكية ولاسيما فى القرن ١٨ فانه فى الحقيقة أن انحلال النفوذ العثمانى لم يؤد الى وحدة البكوات المماليك بل على العكس أدى بهم الى التفرقة والى التنافس بينهم حول المناصب الهامة سواء فى الجيش أو فى الادارة ، وهذا التنافس يبدأ فى مستهل القرن ١٨ بين الفقارية والقاسمية .

وفى الستينات من القرن ١٨ وبعد وفاة ابراهيم بك تطلع احد مماليكه وهو على بك الى مشيخة البلد ، وبدأ يقوى مركزه فى مواجهة خصومه ، فاتبع سياسة اقتناء المماليك وتجنيد المغاربة والمرتزقة مع ترقية أتباعه وتأليف قلوب أنصاره من حوله فى نفس الوقت ، وذلك باتباع أسلوب الترغيب حينا والارهاب حينا آخر ، كما انه اتبع نفس الأسلوب مع الباشا العثمانى ومع الديوان والأوجاقات ولما شعر فى سنة ١٧٦٦ انه قد بلغ حدا من القوة

نفى عبد الرحمن كتخدا الى الحجاز وكان أكبر منافس له فى مشيخة البلد ، ولكنه حين لم يستطع التغلب على صالح بك وحسين بك قبل هو النفى الى بلاد الشـــــام سنة ١٧٦٧ .

وهناك تعرف بالشيخ ظاهر العمر الزيدانى ، وكان الشيخ ظاهر ينتسب الى زيدان وهو رجل قدم من المدينة المنورة الى بلد صفد حيث ولد له فيها ابنه عمر وولد لعمر ظاهر هذا ، ولما انقرض أولاد معد دخلت صفد فى يد بنى شهاب ، وتولى ظاهر بن عمر بن زيدان على تلك الديار من قبلهم ، ثم ارتقى أمره وقوى شأنه وارتفع ذكره وصار متصرفا فى كل بلاد عكا وصيدا ويافا وحيفا والرملة ونابلس وصفد ، وجعل عكا مقرا لايالته (٣٥) .

بعد ذلك نجد أن الشيخ ظاهر يساند على بك والى مصر ولكنه لم يستطع التغلب على خصومه فينفى مرة أخرى وهذه المرة يذهب الى أسيوط ، وهناك أتيحت له الفرصة ليتحالف مع صالح بك الذى كان منفيا هو الآخر وذلك بمساعدة الشيخ همام شيخ عرب الهوارة وكان الاتفاق بينهما أى بين على بك وصالح بك هو أن يصبح على بك شيخا للبلد ويصبح صالح حاكما على قبلى مدى الحياة ، وهاجم الاثنان القاهرة وتخلصا من حسين بك شيخ البلد .

واعتمادا على صداقته بالباشا العثمانى تمكن على بك من التخلص من منافسه بالنفى (٣٦) .

ويرى البعض أن حركة على بك كانت صورة من صور القومية فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، بينما يرى البعض الآخر أن حركة على بك ليست سوى حركة شخصية هدفت الى الاستقلال عن الدولة العثمانية .. وذهبت بعضهم الى أن على بك اراد أن يستقل تماما عن الدولة العثمانية ويؤسس دولة مملوكية يستأثر فيها المماليك بالسلطة المطلقة كما كانوا قبل الفتح العثمانى لمصر .

وبعض المؤرخين المحدثين (٣٧) يرون أن على بك لم يتطلع الى الانفصال التام عن الدولة العثمانية بل كان يهدف الى الانفراد بالحكم مع اعترافه بسيادة الباب العالى . ويسوقون لذلك عددا من الأدلة .

أولها : أن على بك لم يلقب نفسه بلقب (سلطان مصر وخاقان البحرين) حيث لم يشر الرحالة والمؤرخين المعاصرون الى استخدامه لهذا اللقب ، كما أن تقاسيط الالتزام ، وجميع الوثائق الرسمية كانت تشير الى على بك (قائمقام محروسة مصر) .

وثانيها : رواية الجبرتى التى يقول فيها ان على بك تمسك بالسيادة العثمانية وظهر ذلك فى أنه كان يصلى الجمعة فى أوائل شهر رمضان ١١٨٣/ ١٧٦٩م بجامع الداودية . وخطب الشيخ عبد ربه ودعا للسلطان ودعا لعلى بك وبعد الصلاة سأله على بك عمن أمره بالدعاء باسم على بك وهو ليس بسلطان فرد الشيخ (أنت سلطان ، وأنا أدعو لك) فظهر الغضب على وجه على بك وأمر فضرب بالسياط وقام بعد ذلك متألما من الضرب وركب حماره وهو يقول (بدأ الاسلام غريبا وسيعود كما بدأ) (٣٨) .

وثالثها : ان على بك أمر بسك عمله فضية سنه ١٧٦٩ وعملة ذهبية سنة ١٧٧١ ونقش على احد وجهيها اسم السلطان العثمانى مصطفى الثالث (١٧٧٣/٥٧م) وعلى الوجه الاخر عبارة (ضرب فى مصر) ومعنى ذلك أن على بك ورغم انه أصدر عملة جديدة فانه حرص على أن يظل اسم السلطان العثمانى منقوشا على أحد وجهيها .

والحقيقة أن حركات التمرد كانت ذات طابع خاص فى الجزء الاسلامى من العالم العثمانى فهذه المنطقة كانت تعتبر نفسها جزءا لاينفصل عن كيان العالم العثمانى والسلطان العثمانى فى نظر المسلمين فى ذلك الوقت كان يعتبر الحامى للعالم الاسلامى امام الغرب المسيحى المعتدى . ولذا فان على بك لم يكن يهدف الى أكثر من أن يكون له ولمصر مركز ممتاز داخل العالم العثمانى ، فيصبح مستقلا بمصر ويبقى للسلطنة نفوذها الشكلى والاسمى وبعد ما تمكن على بك من أن يستعين بالباشا فى التخلص من منافسيه بدأ يملأ المناصب الحكومية بانصاره وأعوانه وأكثر من شراء المماليك حتى صار لديه نحو ٦٠٠٠ مملوك ، وحدث ذلك بينما حرم على بك على أتباعه شراء أكثر من مملوك واحد أو اثنين . وبعدها أخذ يعمل على التخلص

---

(٣٨) أنظر الجبرتى ــ الجزء الأول .

من الأوجاقات فاستخدمها فى الحملات التى كان يرسلها ضد أعدائه من البكوات المماليك حتى هلك كثير منهم ثم أبعد معظمهم بالنفى ، وكذلك احتال لتشتيت شمل الحاميات فحرمهم مرتباتهم ستة اشهر متعللا بقلة المال ، ثم اعطاؤه نصف مرتباتهم ليجعل الجندية أمرا لايطمع فيه . وإخيرا عين أنصاره قوادا لبعض الحاميات وخاصة الانكشارية وأتاح له هذا الوضع الالتفات للقضاء على الديوان وبعدها قضى وشتت شمل القبائل العربية التى كانت تهدد كيان المجتمع الاقتصادى والاجتماعى لمصر .

وبعدها لم يبق أمامه سوى الوالى ، فانتهز فرصة انشغال الدولة العثمانية مع روسيا فى حرب سنة ١٧٦٨ واستصدر من الديوان أمرا بعزل الوالى ، وتولى هو قائمقامية مصر عوضا عن الباشا ، وهكذا ، لم يبق من مظاهر السيادة العثمانية فى مصر سوى خطبة الجمعه والعملة والجزية السـنوية (٣٩) .

ويقول أحمد حافظ عوض أن على بك كون جيشا من اربعين الف مقاتل منهم خمسة آلاف من فرسان المماليك ، ١٥٠٠ من مشاة المغاربة والباقى من الخدم والأتباع ، ويبدو أن كثرة جيشه كانت من قوات غير نظامية لأن الرحالة فولنى يصف هذا الجيش بالفوضى والاضطراب وانتشـار السلب والنهب بين صـفوفه (٤٠) .

كان أول ما اتجه اليه على بك بعد أن انفرد بالحكم فى مصر هو الفتوحات الخارجية وكانت أولى حملاته موجهة الى الحجاز التى اتخذها ميدانا للنشاط، وذلك ليتمكن من فتح البحر الأحمر بين أوربا والشرق ، فقد كان يفكر فى السماح للمراكب الأوربية ، ولاسيما الانجليزية بالدخول الى ميناء السويس حتى يحدث هذا انبعاثا ونشاطا اقتصاديا فى مصر ويزيد دخلها ليتمكن من تنفيذ مشروعاته الداخلية والخارجية ، وكان يحرضه على هذا العمل رجل ايطالى من البندقية يدعى كارلوروزتى **Carlo Rosetti** ويسميه الجبرتى رشـته (٤١) .

وكانت أنظار شركة الهند الشرقية تتجه نحو مصر لأنها طريق الهند التجارى ، وعلى الرغم من اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح فقد كان الطريق الطبيعى الأقصر والأفضل الى أوربا هو البحر الأحمر ومصر والبحر

المتوسط . خاصة انه حدثت ثلاثة احداث فى القرن ١٨ اثرت على الحالة السياسية فى العالم :

١ ـ معاهدة باريس التى تنازلت فيها فرنسا عن كل دعوى لها فى الهند استجابة لمطالب انجلترا بعد صراع مرير استمر من سنة ١٧٤٥ وانتهى سنة ١٧٦١ حيث تغلبت بريطانيا على معظم جهات الهند .

٢ ـ ثورة على بك وخروجه على الدولة العثمانية سنة ١٧٦٦

٣ ـ الحرب التى نشبت بين العثمانيين والروس ١٧٦٨ والتى كان من نتائجها معاهدة كاينارجه .

وهذه الاحداث أدت الى ازدياد نفوذ انجلترا بفضل مركزها الجديد فى الهند ، ولذا فقد وجهت انظارها نحو مصر ونحو على بك .

وكان الرحالة جيمس بروس Games Bruce وقد قام برحلة فى البحر الاحمر والحبشة وبريطانيا وتمكن من الاتصـــــال بعلى بك عن طريق كارلوروستى ، وبدأ يهتم بطريق التجارة بين الهند وبريطانيا عن طريق مصر ، وفعلا استطاع الحصول من على بك على اذن بمرور سفن بريطانيا فى البحر الاحمر ودخولها ميناء السويس ، ثم عرض عليه مشروع ترويج التجارة بين مصر والهند لفائدة مصر ، واغتنم على بك هذه الفرصة وحين نشبت الحرب بين الدولة العثمانية وروسيا واستولى على الحجاز بقوةالسيف(٤٢)

وفى هذا القرن ظهر التنافس بين الشركات الفرنسية والبريطانية ، وفى عهد حاكم البنغال Warren Hastings أرسلت شركة الهند الشرقية البريطانية أكثر من بعثة سنة ١٧٧٠ الى السويس من اجل فتح طريق التجارة بين الهند وبريطانيا عبر البحر الأحمر ومصر (٣٣) وفى يناير سنة ١٧٧٣ عندما عاد بروس من رحلة له فى الهند وجد أن السلطة قد آلت الى محمد بك أبو الذهب فتقرب اليه واتفق معه على أن يسمح للسفن البريطانية بحمل بضائعها من الهند عن طريق السويس وعقد ملك البنغال معاهدة مع ابى الذهب سنة ١٧٧٥ بفتح ميناء السويس للتجارة الانجليزية ، ولما جاء مرلد

وابراهيم لم يحترما هذه الاتفاقية وسرعان ما دخلت فرنسا ميدان المنافسة وعقدت مع مراد بك المعاهدة سنة ١٧٨٥ حصلوا فيها على شروط افضل مما حصل عليه الانجليز ودفع هذا الانجليز الى تجديد نشاطهم واوفدوا جورج بلدوين قنصلا لهم فى مصر فوجد الوضع قد تغير فى مصر اذ جاءت حملة حسن باشا الجزائرى لاستعادة النفوذ العثمانى وفر مراد وابراهيم الى الصعيد (٤٤)

ولكن العثمانيون عندما وجدوا ان هذا الطريق مضر بتجارة الاستانة عن طريق حلب ، وكانوا قد تخلصوا من على بك بطريق الخديعة وأرسلوا حملة حسن باشا لاستعادة نفوذهم أمروا والى القاهرة بايقاف هذه التجارة (٤٥) .

ولم يكن على بك ينظر الى الحجاز من وجهة نظر فتح البحر الأحمر للتجارة فقط ، وانما كذلك لانه المركز الدينى فى نظر المسلمين لاحتوائه على الحرمين الشريفين ، وكان الحجاز منذ النصف الثانى من القرن الثامن عشر ميدانا من ميادين الصراع بين البكوات المماليك فى مصر وبين الباشوات فى الشام باعتبار هؤلاء ممثلين للسلطنة العثمانية واستطاع على بك ان يخلع أحمد بن سعيد من شرافة مكة بقيادة ابى الذهب وبعدها من فتح جده (٤٦) .

وماكاد على بك ينتهى من فتح الحجاز حتى توجه بانظاره نحو الشام وذلك لرغبته فى تأكيد سلطانه وتأمين حدوده الشمالية الشرقية ضد عدوان الدولة العثمانية وساعده على ذلك اضطراب الأوضاع فى بلاد الشام فقد كانت تعانى من فساد الحكم ممثلا فى سوء الادارة وانتشار الرشوة والظلم وتعدى الجنود على ارواح الناس وممتلكاتهم وكان الشيخ ظاهر العمر الذى أصبح له بالنفوذ فى ايالة صيدا والذى تعرف بعلى بك سنة ١٧٦٦ حين نفى الى فلسطين فلما استقر الامر لعلى بك استعان به ظاهر العمر يطلب منه المساعدة ضد العثمانيين ، وارسل على بك عدة حملات برية وواحدة بحرية كان غرضها الحقيقى ليس الاشتباك مع عثمان باشا والى دمشق والذى كلفته الدولة العثمانية بالقضاء على الشيخ ظاهر وانما كانت تهدف الى جس النبض ودراسة الحالة فى الشام وتقدير قوات الدولة وسرعان ماتبين لعلى بك انه فى حاجة الى مدفعية للحصار ، والى مساعدة بحرية فعالة تخدم عملية سقوط الثغور الساحلية ، ولذا فقد اتجه الى البندقية بايعاز من

كارلوروزتى وربط مفاوضاته معها بوعود لفتح طريق البحر الاحمر التجارى ، ولكن البندقية اعتذرت عن مساعدته لأنها كانت قد ضعفت ولأنها كانت تتجنب الدخول فى مشاكل مع الدولة العثمانية التى استولت على الكثير من المراكز التجارية التى كانت تابعة لجمهورية البندقية مما ادى الى تدهورها فاتجه على بك الى روسيا يعرض عليها عقد محالفة معها .

وخرجت حملته بقيادة ابى الذهب سنة ١٧٧١ وتوجهت الى غزة ثم الرملة حيث التقت بحملة صغيرة تمهيدية بقيادة اسماعيل بك وبعد الاستيلاء على الرملة وبيت المقدس ويافا اتجهت الى عكا حيث عسكر ابو الذهب تقريبا انتظارا لاوامر على بك . وانتظارا لانضمام جيش الشيخ ظاهر اليه . وفى جنوب دمشق التقى مع جيش عثمان باشا وحلفائه وهزم عثمان باشا وفر شمالا الى حمص فحاصر أبو الذهب دمشق التى فتحت أبوابها له (٤٧)

ثم فوجئنا بأبى الذهب ينسحب بجيوشه والمؤرخون قد اختلفوا فى الاسباب التى دعته الى هذا العمل المفاجىء فقيل أن اسماعيل بك هو الذى نصحه بعدم الدخول فى عداء مع الدولة العثمانية لان هذا يعتبر خروجا على الدين وبعضهم يقول انه كان يحرضه ضد الشيخ ظاهر الذى كان يتكبر عليه ، والبعض يرى أن ابو الذهب وجدها فرصة للخروج على سيده ليتولى مكانه . بينما يرى البعض الاخر أن أمير صرة بلاد الشام هو الذى اقنعه بالكف عن عداء الدولة وهو يطلب له العفو من السلطان ، أما الجبرتى فانه يحكى أن أبا الذهب ورفاقه سئموا الاستمرار فى الحرب وتعاهدوا على الرجوع الى القـــاهرة (٤٨) .

وعلى الرغم من أوامر على بك فان محمد أبو الذهب رجع بسرعة حتى وصل القاهرة وأمام على بك اتهم ظاهر العمر بأنه كان يسىء معاملته ، فلما استفسر على بك من حليفه أرسل ابنه عثمان ليوقفه على حقيقة ماحدث فى بلاد الشام . وليبقى عنده كرهينة واستوثق على بك من كذب أبى الذهب فأمر بنفيه الى الصعيد ، وامتثل أبو الذهب وبدلا من أن يتفرغ لمناهضته فانه انصرف الى الشام واكتفى بتعيين أيوب بك حاكما على جرجا ولكن ابو الذهب اغتاله وخلا له الجو فى الصعيد والتف حوله جميع العناصر المعارضة لعلى بك ومنها قبائل الهوارة وبدأ الصراع بين أبى الذهب وعلى بك

دلك الصراع الذى انتهى بهزيمة على بك فقد كانت قوة على بك قد انهكته حروبه فى الشام ونصب له أبو الذهب فخا استدرجه فيه الى مصر ، وفى الصالحية خانه المغاربة وانضموا الى جيوش أبو الذهب ودارت الدائرة على على بك وأصبحت سياسة أبو الذهب لاتختلف عن سياسة على بك فعمل على اكمال محاولات فتح طريق البحر الاحمر ومصر أمام التجارة العالمية ووقع معاهدة مع السلطات البريطانية سنة ١٧٧٥ واعطى فيها التجار الانجليز الحق فى دخول المنطقة الحرام بين جده والسويس كما أعطاهم حق التجارة فى أسواق مصر ، وتطلع كذلك الى الاستيلاء على مشيخة الشيخ ظاهر العمر ولم يحل دون ذلك سوى وفاته (٤٩) .

وارادت السلطات العثمانية احتواء أبى الذهب فرغبت فى ترقينه الى منصب الولاية ليكون لها حق نقله وكان أبو الذهب يفهم هذا فاعتذر عن قبول منصب الباشوية وشكر للسلطان عطفه — ورجعت مصر الى ماكانت عليه من التبعية للسلطان العثمانى وصدر فرمان بتعيين أبى الذهب شيخا للبلد، وفرمان بتكليفه محاربة الشيخ ظاهر وتمكن أبو الذهب بمعونة المغاربة من جند الشيخ ظاهر الذين خانوه من فتح غزه ثم يافا كما لعب عثمان ابن الشيخ ظاهر دورا فى معاونته ضد والده طمعا فى أن يحل محله فى ولاية صيدا ، واستطاع أبو الذهب أن يفتح يافا بعد مذبحة رهيبة ليرهب أهل عكا وفعلا قدمت وفود المسلمين والنصارى واليهود فيها نعلن خضوعها ، ولكن أبو الذهب توفى فجأة فى ٨ يولية سنة ١٧٧٥ قبل البدء فى مهاجمة المدينة .

(مراد وابراهيم)

وبعد وفاة أبى الذهب اقتسم مماليكه السلطة وتولى ابراهيم بك مشيخة البلد وتولى مراد بك امارة الحج ومنصب الدفتردارية ولم يستطع السلطان أن يتفرغ لمحاربتهما لانشغاله فى حرب الروسيا ثم استطاع بمعاونة حسن باشا الجزايرلى من القضاء على حركة ظاهر العمر ثم وجهه فى حملة بحرية سنة ١٧٨٧ وتمكن مراد وابراهيم من العودة الى القاهرة سنة ١٧٩٢ وتعاهدوا مع الباب العالى على أن يتوليا الحكم ويدفعا ٧٥٠ كيسا جزية سنوية ويرسلا اغلال الحرمين ويصرفا أموال الرزق كما جرت العادة ، ويبطلا فرض المظالم .

وكان قوام الادارة المزدوجة :

١ ــ تجاهل سلطة الباب العالى تماما سواء من ناحية دفع الجزية او من ناحية اتفاقه مع الدول الاوربية بخصوص الامتيازات الاجنبية كما تجاهلا فرماناته الصادرة الى مصر .

٢ ــ استحداث انواع كثيرة من المغارم والقروض .

٣ ــ تأخرت البلاد اقتصاديا فى عهدها بسبب اهمال الزراعة ، وانخفاض النيل ، وانتشار الأوبئة والطواعين وكثرة الوفيات .

٤ ــ كثرة اعتداء البكوات المماليك على ارزاق الناس وارواحهم واختلال الامن واضمحلال التجارة الخارجية .

٥ ــ سوء العلاقات مع الدول الاجنبية التى سحبت قناصلها بسبب المعاملة السيئة للتجار الاجانب وكانت فرنسا قد عقدت مع مصر معاهدة سنة ١٧٨٥ بقصد استخدام طريق البحر الاحمر ومصر للتجارة الفرنسية ، فى مصر ، والنشاط التجارى الذى قامت به الغرفة التجارية فى مرسيليا ، وعلى هذا فقد شكا التجار الفرنسيون والقناصل الفرنسيون الى سفير فرنسا فى القسطنطينية فحاولت فرنسا التفاهم مع مراد وابراهيم وارسلت القنصل ماجلون Magallon ليحاول التفاهم مع بكوات المماليك ولكن جشع مراد وابراهيم والتنافس الشديد بين التجار الشوام المسيحيين والتجار الفرنجة حال دون الوصول الى وضع مرض .

السمات العامة للاوضاع الاقتصادية فى القرن ١٨

عندما غزا العثمانيون مصر ، اعتبر السلطان سليم نفسه مالكا لجميع الاراضى الزراعية واخذ يوزعها على الفلاحين لكنه لم يترك للفلاح سوى الانتفاع بالارض فقط ، وترك أراضى الرزق فى يد اصحابها ، ونظرا لان الفلاح لم يكن يملك الارض فانها كانت تؤول بعد موته للدولة دون ورثته ، واذا ارادوا الانتفاع بها كانوا يدفعون مبلغا من المال نظير ذلك وسوء توزيع الارض جلب على الفلاح المصرى الفقر ، فعلى الرغم من ان العثمانيين حرصوا على زراعة الارض وحرموا ترك أى ارض قابلة للزراعة دون

زراعة تحريما صارما ، والزموا الكشاف والملتزمين بضروره مراعاه ذلك فانهم كانوا يهدفون الى منع استغلال الملتزمين للدولة وتحصيل أكبر قدر من الضرائب لمصلحة الخزانة (٥٠) .

ونظرا لان الرى الحوضى هو الذى كان سائدا وقتئذ ، وهو نظام يتوقف على ايراد النيل ومناسيبه وقت الفيضان ، ويعتمد على مدى اهتمام السلطات بتنظيم توزيع المياه على القرى ، فان الزراعة كان يصيبها الضرر البليغ عندما كانت تختل المصالح وتفسد أجهزة الادارة بالقرى وترتبط مصالحها بمصالح كبار السادة من الترك والمماليك واعتداء القوى على الضعيف وحدوث المشاجرات ، وقد حدث هذا بصفة خاصة فى القرن الثامن عشر (٥١) .

والرى الحوضى بطبيعته لايسمح بزراعة الارض اكثر من مرة فى العام غالبا ، فاذا أضفنا الى هذا الصعوبات الناجمة من تدهور قيمة العملة النقدية التى كانت متداولة وهى البارة والقيمة التبادلية بينها وبين العملات الذهبية والفضية ، وكذلك التذبذب الشديد فى أسعار المنتجات الغذائية الاساسية وخاصة القمح ، أدركنا مدى ما كان يعانيه الفلاح والشعب المصرى من ضائقات اقتصادية ادت كما حدث فى القرنين ١٨ الى حدوث حركات شعبية وهياج وعصيان كان اخطرها ماحدث سنوات ٢٢ — ٢٣ — ١٧٢٤م (٥٢) .

فالعثمانيون عندما اختل نظـام الادارة فى مصر عجزوا عن القيام بالمشروعات اللازمة وانصرف الملتزمون الى جمع اقصى مايمكنهم جمعه من غلة الأرض ، والفلاح لفقره لم يستطع تحسين زراعة أرضه ، ونتيجة لذلك قلت مساحة الأرض المزروعة وطغت عليها رمال الصحراء وقل انتاج الأرض وظهر العجز واضحا فى الانتاج الزراعى (٥٣) .

وانحطاط الزراعة هذا ادى الى حدوث انحطاط فى مستوى المعيشة وضعف القوة الشرائية ، فتضاءلت أهمية السوق المحلية لقلة الاستهلاك ولانعزال مصر عن السوق الدولية وتوقف النمو الصناعى تبعا لذلك ، ولم تظهر الراسمالية المصرية بسبب تسلط الاقطاع الحربى العثمانى (٥٥) .

٢ — أما الصناعة : فقد أصابتها انتكاسة ، وأصبحت لاتمثل الا دورا ثانويا وضئيلا بالنسبة للدخل القومى وذلك بسبب :

١ — عزلة مصر فى العهد العثمانى سياسيا وفكريا واقتصاديا مما أدى الى اصابة الصـــناعة بالجمود .

٢ — تأثر الصناعة بالانحطاط العام حينما أهمل العثمانيون القيام بخطط اقتصادية طويلة الاجل ، وانصرفوا الى العمل على الابقاء على حالة التوازن الدقيق بين القوى الحاكمة .

٣ — انتقال بعض الصناع المصريين الى استانبول حينما نقل سليم أمهرهم اليها (٥٦) . وكانت الصناعة بمصر بصفة عامة تشمل صناعات يدوية أهمها صناعات الغزل والنسيج اليدوى وصناعة اللباد الخاص بصناعة الطرابيش واللبد والبسط والاكلمة من أصواف الغنم ، وكذلك بعض صناعات البناء والادوات المنزلية وان كانت قد فقدت طابعها الفنى الذى كان يميزها منذ العصر الفاطمى والمملوكى ، وصناعات الحصر وكذلك صناعة السكر فى الوجه القبلى وأيضا صناعة استخراج الزيوت من بذور الخس والسمسم والقرطم والكتان (٥٧) .

٣ — التجارة :

وبالطبع وبسبب اهمال الزراعة والصناعة ، ران على أسواق الاستهلاك المحلية الضعف لما كانت تعانيه البلاد من انهيـــار عام بسبب نظام الحكم العثمانى ، واصبحت حياة المجتمع القروى قائمة على مبدأ الاكتفاء الذاتى الى حد كبير ، ولم يترك السادة من الترك والمماليك للفلاح سوى النفقات التى تجعله بالكاد قادرا على الاستمرار فى زراعة الارض التى لم يكن له حق ملكيتها .

ونظرا لاهمال الطرق التى كانت عصب النقل البرى وخاصة فى وقت الفيضان الذى كان يجعل القرى اشبه ببحيرة واسعة ، فالعثمانيون لم يوجهوا أية عناية تذكر نحو صيانة الجسور أو تحسين طرق المواصلات .

البرية حتى انه لولا النيل نفسه الذى ربط البلاد ببعضها ، لصارت مصر عدة ولايات متقطعة الأوصال ، وكثيرا ماكانت المواصلات النهرية تتعرض للتوقف بسبب تراكم الطمى نتيجة الاهمال فى تطهير الترع . وذلك كله ادى الى انهيار المراكز التجارية التى كانت الملاحة النهرية والطرق البرية الزراعية وسيلتها لتصريف منتجاتها ، كما ان كثرة الرسوم المفروضة المرهقة على التجارة بعد تضارب السلطات وجشع المماليك ادى الى تضاؤل التبادل التجارى بين الاقاليم المختلفة .

ولكن هذا لم يمنع بعض المراكز التجارية من الصمود فى وجه هـــذا الاهمال ، فقد صمدت المنصورة لوقوعها على الطريق البرى بين القـــاهرة ودمياط ، وكذلك صمدت كل من قوص وقنا لوقوعهما عند نهاية طريق الصحراء بين النيل والبحر الأحمر ، وكذلك اسيوط التى تبدأ وتنتهى عندها قوافل السودان ، وأيضا اسنا التى تقع على الطريق الخارجى الى اقليم سنار ، ثم المحلة الكبرى التى تقع فى منطقة لها شهرة فى زراعة الكتان والحبوب ، وأخيرا القاهرة باعتبارها حاضرة البلاد ومقر الحكم ومقر اقامة كبار الأعيان من العثمانيين والمماليك (٥٨) .

وقد أصيبت الراسمالية المصرية بضربات قاصمة ، منها التلاعب بالعملة حين لجأ السلاطين والولاة الى سحب العملات المعدنية والذهبية والفضية واصدار عملات تناسب قيمتها المعدنية سعرها الالزامى (٥٩) ، ومنها كذلك ان المماليك لم يستثمروا الاموال التى تكدست لديهم بل صرفوها فى حياة الترف واقامة القصور والعمائر ، ومنها عدم استقرار الامر بسبب المعارك الطاحنة بين فئات الجند وتنازع البكوات المماليك ونهب الاسواق والدكاكين والقرى ، وازدياد نشاط القرصـــنة .

ثم ان التجارة الخارجية

تدأخذت فى التدهور منذ مطلع القرن ١٦ بسبب استيلاء البرتغاليون على طرق التجارة واحتكارهم لها بين الشرق والغرب ، ومنعهم نفاذ التجارة فى موانى البحر الاحمر وتحالفهم مع الحبشة (٦٠) .

ولما سيطر العثمانيون على منطقة البحر الأحمر من الشمال باستيلائهم على الشام ومصر بذل السلطان سليم جهوده لاستعادة طريق التجارة عبر مصر ، فعقد مع ممثلى البندقية معاهدة فى فبراير سنة ١٥١٧ منحهم فيها ماكانوا يتمتعون به من امتيازات فى عهد المماليك

وفى سنة ١٥٢٢ وقع خلفه السلطان سليمان القانونى معاهدة تجارية دعمت هذه المعاهدة كما اتجه نحو التحالف مع فرنسا تدعيما لنفوذ الدولة العثمانية فى وسط اوربا ، ولاخراج فرنسا من الاحلاف البحرية التى تزعمها شارل الخامس ضد دولته .

وبالطبع تأثرت مصر بهذه التطورات ، فقد منح الاجانب الامتيازات تشجيعا لهم على الاقامة فى ولايات الدولة العثمانية والتعامل معها ، وانعكس هذا على موانى البحر الأحمر وعادت اليه الحركة والنشاط وعادت البضائع للظهور فى الموانى المصرية ولعل هذا هو الذى دعا العثمانيون الى التفكير فى ايصال البحر المتوسط بالبحر الاحمر ، ولكن قصر مدة حكم الولاة فى مصر ، وقلة الاموال اللازمة حالت دون تحقيق هذا المشروع (٦١) ثم عندما تسرب الخلل الى الاجهزة الادارية فى الدولة العثمانية وفى مصر عاد الاضطراب الى البحر الأحمر ، ووقع تحت سيطرة فئة من اللصوص وطغمة من الافاقين ، وتناقص حجم التجارة واصاب الكساد والخراب موانيه الى ان ظهرت فى محاولات لاستعادة النشاط التجارى فى البحر الأحمر ومصر فى النصف الثانى من القرن ١٨ كما ذكرنا .

٤ ــ الجزية :

كان الولاة فى مصر مكلفين بارسال جزية سنوية للسلطان تعرف باسم (الخزنة) ، وقد بلغت قيمتها ٦٠٠ الف قرش والجزية كانت احدى الواجبات الرئيسية للوالى يقوم بارسالها سنويا بطريق البر فى حراسة ثلاثمائة فارس ومائتين من المشاة من الانكشارية ، وجرت العادة ان يقيم الوالى لذلك احتفالا خاصا يشارك فيه الموظفون وظل أمر الجزية منتظما حتى منتصف القرن ١٨ عندما بدأت هذه الجزية تصل الى استانبول بشكل متقطع ، ثم انقطعت فترة فى عهد على بك الكبير ، ثم عاد محمد بك ابو الذهب فأذن

الوالى بارسالها ، ثم عادت فقطعت فى عهد مراد بك وابراهيم بك بعد ان عاد القبطان حسن باشا الى استنبول ، ومعنى هذا أن الجزية لم ترسل بانتظام عندما كان النفوذ العثمانى يضطرب فى مصر ، وعندما كان نفوذ المماليك يطغى على النفوذ العثمانى .

ومع الجزية كان الوالى غالبا مايرسل معلومات خاصة عن الولاية ، وكانت هذه فرصة ينتهزها بعض الولاة للايقاع بخصومهم ، كما جرت العادة على ان يرسل الولاة ايضا بعض المواد الغذائية وكميات من الحلوى لسيدات القصر فى قافلة بحرية ، وكان من أهم هذه المواد الارز والسكر والبنجر والزعفران والفلفل والمسك والسنامكى والصمغ والبخور والحناء .

ولاشك أن هذا كله كان يمثل عبئا على ولاية مصر (٦١) .

السمات العامة للاوضاع الاجتماعية

يرى بعض المؤرخين ان المجتمعات فى الشرق الادنى كانت على شفا الانهيار قبل دخول العثمانيين ، ولكن دخولهم اليه آخر هذا الانهيار ، ذلك انهم ساروا على نظام ضرائبى مخفف ، فأنقذوا الفلاحين والتجار وبسطوا حالة الامن والاستقرار التى تمتع بها الشرق الادنى حتى بداية القرن ١٨ .

ثم بدأ المجتمع المصرى والاقتصاد المصرى يتدهور الى حد كبير بعد أن اهملت الزراعة والرى ، حتى ان مساحات كبيرة من الارض الزراعية لم تعد صالحة للزراعة ، كما نقص عدد السكان من أربعة ملايين الى نحو مليونين ونصف سنة ١٨٠٠م .

ويعزى السبب فى هذا التدهور الى فساد الحكم العثمانى بعد فترة من الزمن وبالدرجة الاولى لأن العثمانيين فى بداية حكمهم لم يفهموا طبيعة تكوين المجتمع المصرى ، فقد كان المجتمع فى نظر العثمانيين ينقسم الى قسمين :

القسم الأول : هم الحكام الترك .
القسم الثانى : هم الرعية

وكانت مهمة القسم الثانى فى نظرهم هى السهر على خدمة القسم الأول ومعنى هذا أن الترك أصبحوا طبقة ارستقراطية منعزلة عن المجتمعات فى الشرق العربى ، ولذا فلم يكن للحكم العثمانى تأثير واضح فى حياة الناس ، فلم ينجحوا فى عثمنة العرب ، بل على العكس نجحت هذه المجتمعات وبالاخص فى مصر فى صبغ الترك بصبغتها المحلية (٦٢) .

واذا ماتفحصنا حالة المجتمع المصرى فى العصر العثمانى ، نجد أنه اصبح بذلك ينقسم الى ثلاث طبقات متميزة ، هى الترك العثمانيين ، والمماليك، والمصريين .

ولم بكن هناك بذلك توازن بين هذه الطبقات من الناحية العددية ، ولا من حيث الوظيفة الاجتماعية ، ومع ذلك فقد تكاملت هذه الطبقات فى شكل هرمى وانفصلت كل منها عن الأخرى انفصالا تاما .

وعلى الرغم من أن المماليك كانوا مثل الترك اجانب ، فان الترك شعروا بأنهم أخذوا البلاد عنوة بحق الفتح ، ولذا وجب أن يخضع المماليك لهم مع مابينهم من تحالف ، ورغم مساعدتهم لهم فى حكم البلاد

وكان اى رجل مصرى تزداد ثروته ، أو ترتفع قيمته العلمية ، فهو رغم ذلك يعتبر فى نظر الترك (فلاحا) .

ونظام الحكم العثمانى نفسه ، الذى كان يقوم على قصر مدة الحكم للوالى ، والذى دفعه الى البحث عن المال ، كان سببا فى أن يعمل على التحكم والضغط على الأهالى ليحتفظوا بهيبته ، ولبحصل على مايريد ، ولذا فقد فصل الولاة بين كل ما هو تركى وبين بقية الطبقات . ولم يكن هذا الشعور موجودا لدى الولاه فقط ، بل وجد لدى الموظفين الترك ولدى رجال الأوجاقات كذلك .

ولقد حرص السلطان سليم من اجل تحقيق هذه النظرية على الفصل بين الترك وغيرهم اذ حرم على رجال قواته الزواج من المصريات أو حتى من ارامل المماليك .

ومع هذا ومع بداية القرن ١٨ تقريبا بدأ الترك يتزوجون من المماليك بل وبدأوا يشتغلون بالتجارة وامتلاك العقارات وذلك بعد أن ضعفت الدولة العثمانية وضعف نفوذها فى مصر (٦٣) .

نظام الطوائف فى مصر

وكان الناس ولاسيما الطبقات العاملة فى الفلاحة والتجارة والحرف المختلفة تنقسم الى طوائف وكانت تضم اصحاب الحرفة الواحدة والمهنة الواحدة سواء اكانت حرفة حره أو مذهب دينى أو طائفة من الاعمال الأخرى فهناك طوائف خاصة بالاساتذة ، وطوائف للطلبة وطائفة للخدم وطوائف لأصحاب الحرف وطوائف للتجار وأخرى للشحاذين وحتى طوائف للصوص ، معنى هذا أن التنظيم الطائفى اصبح تنظيما اجتماعيا واقتصاديا وأصبحت الحرفة الواحدة منظمة اجتماعية واقتصادية شبه مستقلة لها دستورها القائم على العادات والتقاليد الموروثة ولها شيخها الذى يتولى العلاقة بين الطائفة والحكومة . وكان السبب فى هذا التنظيم الطائفى هو أن كل طائفة عملت على المحافظة على سرية الصناعة أو الحرفة داخل نطاق معين أو أسرة أو اسرات معينة .

وهكذا لعب التنظيم الطائفى دورا واضحا وهاما فى حياة الناس فقد كانت الطوائف الحرفية تنتمى الى احدى المنظمات الدينية اى العشيرة وهى جماعة من جماعات الطرق الصوفية ولذا عرف عن اهل الطوائف والحرف الامانة والتعفف ، وقاومت الطوائف كل مشكلات التنافس بين افرادها ولكنها من ناحية أخرى كانت مسئولة عن عرقلة تقدم الصناعة وفشل الصانع فى التقدم المهنى والابتكار .

وقد شجعت الدولة هذا النظام لانه كان يعينها فى حفظ الامن ويساعدها على الاتصال بالاهالى .

اما العلاقة داخل الطائفة فقد كان فيها بعض التناقض فالاصل فى الطائفة انها تضم أصحاب الصناعة والعمال ولذا فكان من الطبيعى أن تكون السيطرة داخلها لأصحاب الصناعة وكذلك فان شيخ الطائفة ورغم أن المفروض أن يكون حامى الطائفة وحارسها فانه كان فى الواقع هو الذى يقوم بسرقتها ونهبها . وينطبق هذا ايضا على طوائف الفلاحة فى الريف .

ولم تكن العلاقة بين الطوائف تقوم على اساس العزلة وانما كانت هناك

عوامل حالت دون ذلك فالاسلام يدعو للمساواة الاجتماعية ، ولم يكن الحاجز بين الطوائف كبيرا فقد كان فى استطاعة الفرد أن ينتقل أحيانا من طبقة اجتماعية الى طبقة اجتماعية أخرى .

واذا كانت حياة القرية ساعدت على أن تتجدد مراكز الناس وأعمالهم وحالتهم الاقتصادية بمولدهم فالابن يرث أباه فى مهنته والبنت تتزوج زميل والدها فى الحرفة فقويت الرابطة الاجتماعية داخل الحرفة ، وساعد ذلك بالتالى على وحدة الدم داخل الحرفة الواحدة ، وفى المدينة أتاحت حياة الناس فيها لتجمع الطوائف فى الاعياد والمناسبات المختلفة ، كما أن انقسام المدينة من الناحية الادارية الى عدد من الاحياء أو الحارات ساعد على تماسك الطوائف وعلى أن يقيم أفراد كل طائفة فى حارة واحدة .

نظره بسيطة الى هذه الأوضاع نرى أن الترك من ضباط الجيش ورجال الدين عاشوا فى غنى وترف وفى وضع منعزل مترفع عن المصريين وبعدهم يجىء المماليك الذين سرعان ما أصابوا الغنى والترف أيضا ، بل انهم بعد مدة أصابوا من الغنى والثروة ما لم يصبه الترك ، ثم جاء بعد ذلك العلماء ومشايخ الطرق وكبار التجار ثم أصحاب الحرف وعاشها هؤلاء فى فقر وجهل وظلام فقد كانوا يدفعون الجزية ويدفعون للمماليك .

الحالة العلمية

اذا كانت مصر قد حكم عليها بشىء من العزلة بعد كشف طريق رأس الرجاء الصالح فان الحكم العثمانى أتم هذه العزلة ، فالدولة العثمانية عزلت نفسها عن أوربا فكريا ، وأدت هذه العزلة الى تضاؤل الاتصال الفكرى والحضارى بين مصر وأوربا . وانحطت بذلك الآداب العربية بصفة عامة وأصبحت العلوم الطبيعية والرياضية فى حالة راكدة وانعدم التأليف فيها تقريبا وأصاب البلاد نتيجة تأخر العلوم والفكر حالة من الجمود شاع فيها عنصر الخرافة ، وتأثرت علوم التاريخ بهذا التدهور ووقع المؤرخون تحت سطوة الخوف من السلطات الحاكمة فجاءت كتاباتهم مليئة بالجمود والثناء عليهم مثلما جاء فى كتابات ابن زنبل الرمال .

وكانت العلوم الدينية تحتل المكان الاول منذ اهتمام المشتغلين بالعلوم ، وكانت العلوم الشائعة عندهم هى العلوم النقلية اى الفقه والحديث والتفسير والعلوم العقلية وهى النحو والبيان واللغة وهذه لم تنل المرتبة التى نالتها العلوم النقلية (٦٥) .

ولم تنل العلوم الحديثة اى اهتمام فقد كانت مضطربة الى حد كبير ونحولت الى خرافات وأوهام وقل المشتغلون بها والمتفرغون لدراستها (٦٦) .

ويقول الاستاذ/محمد عبد الله عنان أن السلطان سليم جمع من تراث مصر وثرواتها الفنية كل ماستطاع ، وأخذ يخرب المساجد والاثار الخالدة ، وأخذ عددا من العلماء والمفكرين الى استانبول ، واستولى على تراث مصر العلمى والادبى ونزع الكتب من المساجد والمدارس ومنهامؤلفات المقريزى والسيوطى والسخاوى وابن اياس (٦٧) .

واقتصر التعليم فى مصر فى ذلك الوقت على الازهر ، ومع ذلك فقد أصابه ما أصاب الحركة الفكرية من الانحلال والتدهور ، ونقص عدد مدرسيه وعلمائه وانكمشت الحركة التعليمية فيه وذلك لانقطاع النفقة عليه ، ولذلك فقد لجأ عدد من اساتذته الى الوجه القبلى حيث أقاموا فى قفط وتوص صورة من صور النهضة الأدبية المحلية ، ولكن مع ذلك فقد أدى الازهر دوره فى تلك الفترة المظلمة من تاريخ مصر بالصورة التى سمحت بها موارده المالية (٦٨) .

وكان الازهر يحصل على تلاميذه من الكتاتيب التى كانت تعلم الاطفال القرآن ومبادىء القراءة والكتابة (٦٩) .

الحالة الصحية

لم تشغل الاحوال الصحية ، ومشاكل الصحة بال السلطات العثمانية ، ولذا فلم تكن الصحة العامة فى حالة مرضية ، فقد اهملت المرافق العامة وخاصة مرافق القاهرة فاستحالت شوارعها وحاراتها الى برك واوحال ومستنقعات تفوح منها الروائح الكريهة .

وكان نطاق المقابر يدخل فى اطار المدينة وخاصة من جهات الجامع الأحمر والرويعى والأزبكية والقاض وأدى هذا الى مشاكل صحية على جانب كبير من الخطورة ، ونظرا لانه لم يكن هناك تعليم صحى فقد تعرضت البلاد الى العديد من الاوبئة المهلكة ساعد من قسوتها كثرة فترات المجاعة والغلاء التى أصابت البلاد مثل (الوباء العظيم) الذى أصاب مصر سنة ١٦٩٢ ومثل وباء الطاعون الذى أصاب البلاد سنة ١٧١٨ والذى قدر فيه عدد ضحايا هذا الطاعون بثلاثمائة الف ضحية ، وبلغ موتى كارثة سنة ١٧٦٣ خمسة آلاف ضحية يوميا .

وبالطبع ادى هذا الى كما رأينا — الى نقص فى عدد السكان (٧٠) .

واذا كانت هذه العزلة التى فرضتها الدولة العثمانية على مصر والعالم العربى قد أدت الى تأخره الحضارى والفكرى وحالت دون ملاحقته للنهضة التى حدثت فى الغرب فانها من ناحية أخرى أفادت مصر والشرق فائدة كبرة فقد وفرت الحماية لهذه المنطقة ضد التنافس الاستعمارى الذى اشتعل بين دول أوربا بعد الانقلاب الصناعى ، أو على الأقل أخر هذا التنافس الاستعمارى من السيطرة على منطقة الشرق العربى ، كما ان الحكم العثمانى ساعد على توفير الوحدة بين أخطار العالم العربى وذلك بالقضاء على الحواجز بين هذه الدولة ، يضاف الى ذلك أن الحج كان احدى وسائل هذه الوحدة بحيث أصبح العالم العربى الآسيوى ومصر أشبه بدولة واحدة مقسمة الى عدد من الأقاليم تخضع للدولة العثمانية .

وهناك بعد هذا العرض بعض الحقائق : —

أولها : أن المصريين وقد لاقوا الكثير من اعتداءات المماليك المتكررة من السلب والنهب بعد انهيار الحكم العثمانى وقويت شوكة المماليك وكثر التنافس بينهم فانهم كانوا يلجأون الى كبار العلماء بالازهر ليدفعوا عنهم شر هذا الاعتداء ، والجبرتى يحدثنا عن علماء الازهر الذين تصدوا للدفاع عن المصريين ، وأخص بالذكر منهم الشيخ أحمد الدردير مفتى المالكية ، والشيخ عبد الله الشرقاوى ، والشيخ عمرو مكرم نقيب الاشراف ، والشيخ محمد

السادات ، والشيخ خليل البكرى ، والشيخ محمد الأمير . فقد كان هؤلاء رسل الثورات المصرية وقوادها فى أواخر القرن الثامن عشر ضد الولاه الترك الظالمين وضد البكوات المماليك وخاصة مراد وابراهيم ، والمصريون قد ثاروا سنة ١٧٨٥ وأجبروا ابراهيم ومراد على توقيع وثيقة فى شهر ذى الحجة سنة ١٢٠٩هـ تعهدوا فيها بأبطال المظالم والضرائب المستحدثة ، ودفع اتباعهم من سلب أموال الناس ، وارسال أموال الحرمين الشريفين والعوائد المقررة لهما ، وأن يسيرا فى الناس سيرة حسنة (٧١)

وثانيها : ان المماليك ورغم أنهم قد بلغوا حدا كبيرا من القوة فى القرن الثامن عشر بحيث أنهم كان فى استطاعتهم خلع الباشا العثمانى ، ومنع الخراج ، وكان فى يدهم كل موارد البلاد ، وتحت سلطتهم الفلاحون المسخرون ، وفى يدهم حكم الاقاليم (السنجقيات والكشوفيات) فانهم لم يستقلوا عن الدولة العثمانية ولم يعيدوا استقلال مصر الى ما كانت عليه سنة ١٥١٧م . السبب فى ذلك هو ان المماليك عاشوا دائما منقسمين على انفسهم عاجزين عن توحيد كلمتهم وعن الخضوع لزعامة أمير منهم يصل بهم الى الاستقلال ، وكان كلما ظهر منهم أمير واصبح حاكما لمصر كان الامراء الاخرون هم أول من يثور عليه ، ويخرج على طاعته ، وظلت الحرب سجالا بينهم ، وكانوا احيانا يقتلون الامير واحيانا يقاومهم وأحيانا يهزم ويذهب الى الصعيد وهناك يستعد ويسترد قوته ويعود من جديد ، وتاريخ مصر مملوء بتلك الثورات التى لم تكن فى القرى فقط بل كانت فى شوارع القاهرة (٧٢) .

وكانت مهمة الدولة العثمانية فى هذه الحال هو الايقاع والتفرقة بين الامراء والمماليك . وهنا يظهر سؤال آخر . وهو لماذا كان الامراء المماليك منقسمين على انفسهم ؟ بحيث ادى هذا الانقسام الى فشلهم السياسى ؟

السبب هو حب النفس المتولد عندهم ، فهم من اصل واحد ، ارقاء وعبيد جلبوا من روسيا وبلاد القوقاز وسواحل بحر آزوف وبعض جهات ايطاليا وفرنسا وأسبانيا ، وانتزعوا من بين اهليهم فى سن مبكرة وحيل بينهم وبين ماضيهم ، ثم دربوا تدريبا مصطنعا ، فليس هناك لاحدهم ميزة

على الاخر الا الميزة الشخصية ، كأن يكون اكثر شجاعة ومهارة فى الحرب السياسية . اذن فنفسية المملوك تسيطر عليه وتفسر وجهة نظره فى الحكم أو السياسة ، وتربيته تولد فيه الا يهتم الا بنفسه ولا يبدى اى اعتبار آخر . وقد ذهب العلماء الى أن نمو الالفة والمحبة ينبع من حياة الفرد فى وسط الاسرة ، فالطفل ينمو ويدرب على الا يستأثر لنفسه بكل الخيرات ، ولذلك وجد علماء النفس أن كل تربية مدرسية أو عسكرية فى ثكنات لاتحل محل تربية المنزل لأن فى الاسرة مجال لوجود العواطف ، والمملوك ينشأ لايجد أبا ولا أما ولا اخا يضاف الى ذلك انه لاينظر فى الساعة التى يعيش فيها فيغتنم منها كل ما يستطيع لانه رأى أن أمراء اقوياء من المماليك قد قتلوا فلم يقوموا بتنفيذ المشروعات الانتاجية والبنائية فى مصر لان الذى ينتفع بها آخرون .

والشواهد التاريخية فى حياة المماليك تعطينا مثلا واضحا لذلك ، فظهور على بك الكبير واستئثاره بالحكم فى مصر يوضح بشكل ظاهر ضعف الحكومة العثمانية ونفوذها فى مصر توضيحا ظاهرا ، ثم أن فشله فى الاستقلال بها يوضح عجز المماليك عن تحقيق الاستقلال لتنازعهم وعدم اتحاد كلمتهم . ولما كاد على بك أن ينجح فى الاستقلال بمصر ويكون امبراطورية مصرية نجد ان الذى أسقطه ليس الدولة العثمانية وليست الحماية العثمانية وانما الذى اسقطه ثورة أحد مماليكه المقربين ضده وهو محمد بك أبو الذهب .

مراجع الفصل الاول

١ــ Histoire de la Nation Egyptienne. Tome V. Henry Deharain, L, Egypte Turque. P. 15.

٢ ــ د . محمد أنيس ود . السيد رجب حراز : الشرق العربى فى التاريخ الحديث والمعاصر القاهرة ١٩٦٧ ص٤٧ .

٣ ــ La Grande Encyclopedie. Tome 31 P. 695-696.

٤ ــ د . عبد الغنى البشرى : اثر سياسة القوميات فى الحركة القومية العربية . القاهرة ١٩٦٦ ص ١٠٢

٥ ــ محمد السيد عبد المنعم الراقد : الغزو العثمانى لمصر ونتائجه على الوطن العربى ١٩٦٨ ص ٢٥٨ ــ ص ٢٥٩ .

٦ ــ ابن اياس (محمد ابن أحمد) : بدائع الزهور فى وقائع الدهور جزء ٥ تحقيق محمد مصطفى طبعة استانبول ١٩٣٢٠٠٠ ص ٢٠٦.

٧ ــ المرجع السابق ص ٢١٣

٨ ــ محمد عبد المنعم الراقد . المرجع المذكور ص ٢٦٢ ــ ص ٢٦٤

٩ ــ د . محمد انيس . المرجع المذكور

١٠ ــ د . جلال يحى : مصر الحديثة ١٥١٧ ــ ١٨٠٥ المكتبة التاريخية ــ ٣ ــ ص ١٣٧

١١ ــ د . حسن عثمان : المجمل فى التاريخ المصرى .. ناريخ مصر فى العهد العثمانى ص ٢٤٨ .

١٢ ــ ابن اياس جزءه ص ٢٣٦

١٣ George, kirk A.shat history of the middle East from The Rise of Islam to the modern times London PP. 60-61.

١٤ ــ Deharn Op-cit PP. 28-29.

١٥ ــ د . حسن عثمان . ص ٢٤٩

١٦ ــ د . جلال يحيى . ص ١٣٨

١٧ ــ عبد الرحمن الجبرتى : تاريخ عجائب الاثار فى التراجم والاخبار . دار الفارس ببيروت الجزء الأول ص١ ــ ص٦٥ .

١٨ ــ د . حسن عثمان : ص ٢٤٩

١٩ ــ المرجع السابق ص ٢٥٧ ــ ٢٥٨

٢٠ ــ أندريه ريمون : فصول من التاريخ الاجتماعى للقاهرة العثمانية ترجمة زهير الشايب . القاهرة ص ٢٢٤ ــ ص ٢٥٦

٢١ ــ د . جلال يحيى ص ١٥١ ــ ص ١٥٤ .

٢٢ ــ جورجى زيدان ، تاريخ مصر الحديث من الفتح الاسلامى الى الان .. ، ط ٣ القــاهرة ١٩٢٥ ص ١٧ .

٢٣ ــ د . حسن عثمان .. ص ٢٥١

١٨ ــ د . حسن عثمان . ص ٢٦

٢٤ ــ ابن اياس ... جزء ٥ ص ٢١٩ ، ص ٢٢٤

٢٥ ــ د . حسن عثمان ... ص ٢٥٤

٢٦ ــ د . جلال يحيى : ص ١٦٧

٢٧ ــ المرجع السابق ص ١٧٠ ــ ص ١٧١

٢٨ ــ عبد الرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم .. ، ط ٤ القاهرة ١٩٥٥ ص ٢٣

٢٩ ــ محمد عبد المنعم الراقد : المرجع المذكور ص ١٩٧ ــ ص ٢٠٠ ،

٣٠ ــ المرجع السابق : ص ٢٦٤

٣١ ــ د . أنيس . ص ٦٥ ــ ص ٦٩

٣٢ ــ Kirk. ; op. cit. P. 60.

٣٣ ــ د. أنيس ص٦٥ ــ ص٦٩

٣٤ — احمد حافظ عوض : فتح مصر الحديث أو نابليون بونابرت فى مصر القاهرة ١٩٢٥ ص ٣٥ — ص ٤٠

٣٥ — المرجع السابق ص ٣٤ (هامش)

٣٦ — الجبرتى : الجزء الأول ص ٣٠٦ — ص ٣٢٤ ، ص ٣٥٧ — ص ٣٦٢.

٣٧ — د . السيد رجب حراز : دراسات فى التاريخ المصرى .. القاهرة. ص ١٥٣ — ص ١٥٤.

٣٨ — انظر الجبرتى

٣٩ — الجبرتى ص ٣٦٢ — ص ٣٧٩

٤٠ — فتح مصر الحديث ص ٣٥

٤١ — الجبرتى ص ٣٩٧ — ص ٣٩٩

٤٢ — فتح مصر الحديث ص ٣١ — ص ٣٢

٤٣ — Kirk, ; op. cit. PP. 71-72.

٤٤ — د . انيس ص ٩٧ — ص ٩٨

٤٥ — فتح مصر الحديث ص ٣٣

٤٦ — الجبرتى ص ٣٩٨ — ٣٩٩

٤٧ — الجبرتى جزء ١ ص ٤٠٥ — ص ٤٠٦

٤٨ — الجبرتى جزء أول ص ٤٠٦

٤٩ — الجبرتى جزء أول ص ٤٠٦ — ص ٤٠٩ ، ومن ص ٤١٥ — ص٤١٦

٥٠ — الرافعى .. المرجع المذكور ص ٣٢

٥١ — الشربينى : تطور الرى المصرى . القاهرة . الألف كتاب . العدد ٢٦٤ ص ٢٠

٥٢ — أندريه ريمون : فصول من التاريخ الاجتماعى للقاهرة العثمانية (ترجمة زهير الشايب) روز اليوسف ص ٢٨٤ — ٢٨٩.

٥٣ — د . جلال يحيى : مصر الحديثة ١٥١٧ — ١٨٠٥ المكتبة التاريخية — ٣ — ص ١٩٧ — ص ١٩٩

٥٤ — محمد عبد المنعم الراقد .. ص ٣٤١ — ٣٤٢
٥٥ — .. د . راشد البراوى ومحمد حمزة عليش : التطور الاقتصادى فى مصر فى العصر الحديث ط٢ القاهرة ١٩٤٥ ص ٢٢
٥٦ — ابن اياس ص ٢٢٢ ، ص ٢٢٧
Encyclopedie de l'Islam. Art Selim.
٥٧ — الرافعى ص ٥٦ — ص ٥٨
٥٨ — البراوى ... ص ٢٤ ، ص ٢٥
٥٩ — ابن اياس ص ٢١٥
٦٠ — د . العشرى حسين درويش : التطور الاقتصادى دراسة لتاريخ أوربا الاقتصادى القاهرة ١٩٧٦ ص ١٩٩
٦١ — د . حسن عثمان : ص ٢٦٨
٦٢ — د . جلال يحيى : المرجع المذكور .. ص ١٤٥ — ص ١٤٦
٦٣ — د . محمد أنيس : الشرق العربى فى التاريخ الحديث المعاصر .. ص ٥٢ — ص ٥٦
٦٤ — د . جلال يحيى المرجع المذكور ص ١٨٦ — ص ١٨٤
٦٥ — محمد عبد المنعم الراقد : ص ٤١٨ — ص ٤٢٤
٦٦ — جورجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية — الجزء الثالث — القاهرة ص ٣٣٥ — ص ٣٣٧
٦٧ — محمد عبد الله عنان : تاريخ الجامع الأزهر . الطبعة الثانية . القاهرة ص ١٣٨ — ص ١٣٩
٦٨ — المرجع السابق ص ١٤٢
٦٩ — د . حسين عثمان ص ٢٧٥
٧٠ — اندريه ريمون : المرجع المذكور ص ٤٩ — ص ٦٢
٧١ — د . محمد أنيس . ص ٥١ — ص ٥٦
٧٢ — الجبرتى . الجزء الثانى ص ١٦٦ — ص ١٦٨

الفصل الثانى

الحملة الفرنسية على مصر ١٧٩٨ — ١٨٠١

يرى بعض الكتاب ان اسباب الحملة الفرنسية على مصر ترجع الى ما قبل الثورة الفرنسية ، فقد كان ليبنتز فيلسوفا رياضيا وسياسيا شهيرا ومؤرخا ، فكر فى حمل لويس ١٤ على عدم محاربة أوربا المسيحية وعرض عليه فكرة غزو مصر سرا باسم المسيحية واسقاط الامبراطورية الهولندية فى الشرق ، وكتب بذلك مذكرة مطولة شرح فيها الحروب الصليبية وبالأخص حملة لويس ٩ على مصر ، وتدرج فى شرحه الى علاقة فرنسا بتركية ، ومصلحة فرنسا فى احتلال وادى النيـل .

وبقى أمر هذه المذكرة سرا ، حتى اذا ماالحتل بونابرت بلدة هانوفر سنة ١٨٠٣ وجدت نسخة من هذه المذكرة وصلت الى بريطانيا صورة منها فنشرتها فى لندن باللغة الانجليزية ، وكانت تهدف من نشرها اطلاع الشعب البريطانى على العوامل التى دعت فرنسا الى احتلال مصر .

وكان ليبنتز يرى أن استيلاء فرنسا على مصر يمكنها من القضاء على نفوذ هولندا التجارى فى جزر الهند الشرقية ، وتحويل هذه الجزر الى طريق مصر لمصلحة فرنسا وكذلك عندما قويت سلطة روسيا ، وامتدت نفوذها الى بعض أملاك الدولة العثمانية فى أواخر القرن ١٨ خافت فرنسا من استيلائها على الآستانة ، ومن تمزيق شمل الدولة العثمانية ، فرأت حكومة لويس ١٦ أن تحتل مصر غنيمة لها فى ميراث الامبراطورية العثمانية العجوز ، وكان من مؤدى هذا الرأى مسيو دىسارتين M. de Sartine وزير الحربية وفعلا وفى سنة ١٧٧٧ أوفدت فرنسا البارون دى توت Barron de Toot الى مصر بحجة عمل أبحاث فلكية وعملية ، وذلك للعمل على رسم خرائط لشواطىء

مصر وسوريا وجزر اليونان وكريت ، ولدراسة النقطة الواقعة بين ساحل مصر بين الاسكندرية وأبى قير خاصة ، ومعرفة اى النقاط تصلح لرسو السفن وانزال الجنود الى البر ، وكان معه ضابط بحرى لقياس عمق النقط المجاورة للساحل للتعرف على مايصلح لرسو السفن .

كما كلف سونينى بالذهاب الى السويس لمثل تلك الدراسات ، ولرسم خريطة لمدينة القاهرة ، وحدث هذا بينما كان مراد وابراهيم يتطاحنان على السلطة .

ومرت بضع سنوات لم يستقر فيها راى فرنسا ، وفى سنة ١٧٨٠ كتب الكونت سان بريست St. Priest سفير فرنسا فى الآستانة يحث فرنسا على غزو مصر خوفا من روسيا وخاصة أن مصر كانت خالية من اية تحصينات، وقوتها الحربية ضعيفة .

وفعلا صممت فرنسا على تنفيذ هذه السياسة ، واعدت ٢٨ الف جندى ، وجهزت السفن لنقل هذه القوة الى الاسكندرية وابى قير ودمياط ، وكانت تريد الاعتماد على مساعدة القبط العديدين المقيمين فى القاهرة والوجه القبلى ، ولكن الحوادث عطلت امر هذه الحملة ثم قامت الحملة الفرنسية(١)

وفى العقد الاخير من القرن الثامن عشر كانت فرنسا تشتبك مع أوربا فى حرب عامه ، وكانت تلك الحرب تمثل المرحلة الاخيرة من مراحل نضالها فى سبيل التحرر ، وكان ميدان الحرب هو ايطاليا ، وكانت النمسا باعتبارها اكبر دول أوربا فى ذلك الوقت وباعتبارها تحكم شمال ايطاليا تتلقى الضربات الفرنسية . وكان بونابرت هو الذى يقود الحملة . الحملة الايطالية . وهنا وحتى عقد الصلح النهائى فى معاهدة كمبيوفورميو بدأ تفكير بونابرت فى القيام بحملة على مصر فان حملته هذه على ايطاليا قد قربته بشدة من الحوض الشرقى للبحر المتوسط واصبح محور سياسته فى ذلك الوقت يقوم على قاعدتين .

---

(١) Charles Roux ; les Origines de l'Expedition d'Egypte PP. 80-100.

مصر وسوريا وجزر اليونان وكريت ، ولدراسة النقطة الواقعة بين ساحل مصر بين الاسكندرية وأبى قير خاصة ، ومعرفة اى النقاط تصلح لرسو السفن وانزال الجنود الى البر ، وكان معه ضابط بحرى لقياس عمق النقط المجاورة للساحل للتعرف على مايصلح لرسو السفن .

كما كلف سونيني بالذهاب الى السويس لمثل تلك الدراسات ، ولرسم خريطة لمدينة القاهرة ، وحدث هذا بينما كان مراد وابراهيم يتطاحنان على السلطة .

ومرت بضع سنوات لم يستقر فيها راى فرنسا ، وفى سنة ١٧٨٠ كتب الكونت سان بريست St. Priest سفير فرنسا فى الآستانة يحث فرنسا على غزو مصر خوفا من روسيا وخاصة أن مصر كانت خالية من أية تحصينات، وقوتها الحربية ضعيفة .

وفعلا صممت فرنسا على تنفيذ هذه السياسة ، واعدت ٢٨ الف جندى ، وجهزت السفن لنقل هذه القوة الى الاسكندرية وابى قير ودمياط ، وكانت تريد الاعتماد على مساعدة القبط العديدين المقيمين فى القاهرة والوجه القبلى ، ولكن الحوادث عطلت أمر هذه الحملة ثم قامت الحملة الفرنسية(١)

وفى العقد الاخير من القرن الثامن عشر كانت فرنسا تشتبك مع أوربا فى حرب عامه ، وكانت تلك الحرب تمثل المرحلة الاخيرة من مراحل نضالها فى سبيل التحرر ، وكان ميدان الحرب هو ايطاليا ، وكانت النمسا باعتبارها أكبر دول أوربا فى ذلك الوقت وباعتبارها تحكم شمال ايطاليا تتلقى الضربات الفرنسية . وكان بونابرت هو الذى يقود الحملة . الحملة الايطالية . وهنا وحتى عقد الصلح النهائى فى معاهدة كمبيوفورميو بدأ تفكير بونابرت فى القيام بحملة على مصر فان حملته هذه على ايطاليا قد قربته بشدة من الحوض الشرقى للبحر المتوسط وأصبح محور سياسته فى ذلك الوقت يقوم على قاعدتين .

---

(١) Charles Roux ; les Origines de l'Expedition d'Egypte PP. 80-100.

حكومة جلالة سلطان تركيا ، وأن جيشا كجيشنا الذى يستوى عنده جميع الاديان ، يتساوى لديه المسلمون والأقباط والاعراب والوثنيون على السواء).

واجابه الوزير فى ٢٣ منه بأنه يوافق على الفكرة التى يرى فيها تعويضا لما فقدته فرنسا فى جزر الهند الغربية ، ويفتح لها الطريق الى الهند (١) .

فى ذلك الوقت كانت ايضا جمهورية البندقية قد اضمحلت بشكل ظاهر ، وساءت احوال فرسان القديس فى مالطة وانهارت أحوالهم المالية ، وتمكن بونابرت من الاستيلاء على مالطة حتى يقضى على الاتجاه الروسى نحو الشرق ، وتكون فى مالطة حزب جمهورى تقدمى يدين بمبادىء الثورة الفرنسية ومن اجل ذلك كان بونابرت متحمسا لاستيلاء فرنسا على مالطة بعكس حكومة الادارة التى كانت ترى ان مبادىء الثورة الفرنسية لاتؤيد القضاء على دولة مستقلة .

ولكن بعد أن انتخب دى هامبيتش De Hempesch رئيسا للفرسان ، وكان المانيا يمثل الاتجاه النمساوى فى الجزيرة فقد اقتنع رجال الادارة فى فرنسا بوجهة نظر بونابرت ومهدوا له السبيل ليعرقل تدبيرات النمسا فيها . وليقضى على مؤامرات روسيا ضد الدولة العثمانية .

وحتى سنة ١٧٩٨ كانت انجلترا هى الد أعداء الجمهورية الفرنسية ، وكانت هزيمتها تعنى سيطرة فرنسا على أوربا كلها . ولذا فقد كان الراى العام الفرنسى يؤيد القيام بعمل حربى حاسم ضد انجلترا ، وكان كل ماينقصها اسطول قوى يكون من القوة بحيث يمكن القوات الفرنسية من عبور المانش ونزولها فى الاراضى الانجليزية ، وكانت فكرة غزو انجلترا واملاء الصلح عليها فى لندن يعصف بعقول الشعب الفرنسى فقد استقرت الكراهية العميقة ضدها فى نفوس الفرنسيين ، والف شعراؤهم الاشعار المختلفة والاناشيد والمسرحيات حول موضوع هذا الغزو (٢) ، ومن اجل ذلك قررت حكومة

---

(١) حافظ عوض : فتح مصر الحديثة ص ٧٨ ، ص ٧٩

(٢) ج كرستوف هيرولد : بونابرت فى مصر . ترجمة فؤاد اندراوس . مراجعة د. انيس القاهرة ١٩٦٧ ص ٥٠ ــ ٥٦

الادارة تكوين جيش أطلقت عليه (جيش انجلترا) ووقع الاختيار على بونابرت لقيادته وكان الغرض من هذا العمل احتلال انجلترا بصفة جديدة وذلك على عكس ما قاله البعض من اعـداد (جيش انجلترا) أو الحملة الكبـيرة La Grande Expedition هو ذر الرماد فى العيـون فان انجلترا فى الحقيقة كانت العدو اللدود والأكبر لفرنسا ، وكانت فرنسا تريد القيام بعمل حاسم ضدها ولم يصرف بونابرت وحكومة الادارة عن غزوها سوى عوامل قاهرة اذ عندما قام بونابرت بجولة تفتيشية فى فبراير سنة ١٧٩٨ على الساحل الشمالى لفرنسا تبين أن الحملة ضد الجزر البريطانية تلزمها استعدادات كبيرة وهامة وطويلة ويلزمها اسطول حربى كبير ، وجاءت أبحاث الضباط الذين يتفقدون السواحل الشمالية تؤيد هذه الحقيقة . والبحرية الفرنسية فى ذلك الوقت كانت قد بلغت حدا كبيرا فى التدهور لان الثورة الفرنسية وان كانت قد نفخت روحا جديدة فى جيوش فرنسا البرية الا أنها أحدثت اثرا سيئا فى الاسطول الفرنسى لانها أشاعت فيه الفوضى وذلك بسبب انتشار مبادىء الثورة التى لاتعبأ بالنظام ، وقامت الفتن فى أحواض السفن واستغنى عن خدمات رجال المدفعية البحرية المدربين واضطر كثير من الضباط الاكفاء وأبناء الاسر العريقة الى ترك السلاح البحرى ؛ وعلى ذلك فقد اقترح بونابرت على حكومة الادارة أن توجه جيشها لفتح مصر وهو عمل فى نظره لايقل أهمية وأثرا عن غزو انجلترا نفسها ووافقت حكومة الادارة وشجعها على ذلك ثقتها فى عبقرية بونابرت العسكرية وكفاءته .

وكانت فرنسا فى ذلك الوقت تنافس انجلترا منافسة واسعة فى ميدان الفتح والاستعمار ، وكانت فرنسا أيضا قد فقدت مستعمراتها فى أمريكا والهند على حين بقيت لانجلترا ممتلكات واسعة فى تلك الجهات ، وأرادت فرنسا أن تعوض خسارتها بفتوحات جديدة تكون بديلا لما فقدته من مستعمرات وكان تاليران وزير خارجية فرنسا قد عاد من أمريكا وبعد أن شاهد هناك تكوين مستعمرات انجليزية فى الدنيا الجديدة ولمس فوائد الاستعمار للدول الاوربية وارداد اعتقادا فى ضرورة تشييد امبراطورية فرنسية واسعة فى تلك المناطق وفى غيرها . ولكنه واذا كان يحبذ فتوحات لفرنسا فانه كان يفضل الدبلوماسية وفن الصيد الهادىء فى المياه العكرة (١) .

---

(١) ج . كرستوفر هيرولد . بونابرت فى مصر .. ترجمة فؤاد اندراوس مراجعة د. محمد أنيس القاهرة سنة ١٩٦٧ ص ٢٨ — ٢٩

وكان الانقلاب الصناعى الذى انتشر فى اوربا فى أواخر القرن الثامن عشر قد أدى الى التوسع فى الانتاج الصناعى وانتعاش التبادل التجارى بين الامم والرغبة فى امتلاك مستعمرات فأسفر هذا كله عن زيادة حدة التنافس الاستعمارى بين الدول وكانت انجلترا تكاد تحتكر طريق رأس الرجاء الصالح لتجارتها الشرقية وخاصة بعد تكوين شركة الهند الشرقية فاتجهت فرنسا الى طريق التجارة الذى يمر بمصر والبحر الاحمر وأولت مشروع قناة السويس عنايتها ليصبح أقصر الطرق وأسرعها بين الشرق وأوربا فتتحول اليه التجارة وتفقد انجلترا سلاحا قويا من أسلحتها وهو تفوقها التجارى وبذلك ترجح كفتها فى ميدان المنافسة التجارية وينجم عن هذا التفوق التجارى تفوق آخر سياسى . ومن الطبيعى أن هذا لايتحقق الا اذا استولت فرنسا على مصر والاستيلاء على مصر لايحتاج منها الى جهد كبير فقد انهارت سلطة تركيا فى مصر — كما رأينا ووقعت البلاد تحت تصرف المماليك الضعفاء فاتجه تفكير فرنسا الجدى الى مصر . ولذلك فقد استولت على كورسيكا واهتمت بمالطة وفكرت فى الاتصال بمسيحى البلقان وسرعان ما دخلت مصر فى دائرة هذه المشروعات واهتم بونابرت فى صلح كمبيو فورميو المذكور بأن يجعل من البحر المتوسط بحيرة فرنسية .

ثمة حقيقة اخرى واضحة وهى أن فرنسا وقد رأت النشاط البريطانى فى العراق ، اخذت تتطلع نحو عمان ، وكانت سلطنة مزدهرة على يد أسرة بورسعيد سنة ١٧٥٢م ، ومنذ قيام الثورة الفرنسية اخذت فرنسا التى دخلت فى حروب مع بريطانيا تهتم بالخليج العربى ، وقررت ارسال قنصل لها الى مسقط ، وارسلت لذلك بوشامب Beauchamp اليها واقام هذا القنصل بجولة له فى أرجاء الامبراطورية العثمانية قبل الوصول الى مسقط ، وعندما كان فى حلب فوجىء بالغزو الفرنسى لمصر ، واصدرت الدولة العثمانية أمرا بالقبض عليـــه .

وطبعا كانت العلاقة واضحة بين الغزو الفرنسى لمصر ، والاهتمام الفرنسى بالخليج العربى ، وسياستها فى الاتصال بتيبو صاحب آخر ملوك المسلمين فى الهند ، والذى كان يخوض صراعا كبيرا ضد السيطرة البريطانية فى بلاده ، ومساندته ضد هذا الحكم (١) .

---

(١) د. محمد انيس : الشرق العربى فى التاريخ الحديث والمعاصر ص ١٠١

وكان قد زار مصر فى ذلك الوقت بعض الرحالة الفرنسيين وأحدثت زياراتهم أثرا كبيرا فى توجيه الرأى العام الفرنسى نحو الاستعمار فى الشرق عامة ومصر خاصة ، وكان أول هؤلاء الرحالة وهو البارون **Baron De Tott** الذى قدم لحكومته فى سنة ١٧٧٦م مذكرة عن حالة تركيا ذهب فيها الى انها فى طريقها الى السقوط وان واجب فرنسا هو الاستيلاء على مصر ذات الخير الوفير فهى مقر التجارة فى العالم وحتى تستأثر فرنسا بتجارة الشرق والهند .

وبعد ظهور هذه المذكرات نشر الرحالة سافارى **Savari** رسائله المشهورة سنتى ١٧٨٦/٨٥ وفيها وصف مصر وخصوبتها وفى العام التالى ظهرت رحلة فلنى **Volney** فى مصر والشام وامتلا أسماع الفرنسيين وأذهانهم بذكر مصر وفتح مصر واستعمار مصر وهيأ هذا الكتاب الذى طبعه ثلاث مرات فى مدة قصيرة أذهان الفرنسيين نحو استعمار مصر فقد وصف فلنى بؤس الفلاحين المصريين ورأى ان خير علاج لاصلاح حالهم هو خروجهم من السيادة العثمانية ودخولهم تحت حكم دولة اخرى تكون صديقة لمصر وذات حضارة ولها نهضة ادبية وعلمية وفنية وذاع الاعتقاد بأن فلنى يقصد فرنسا عند اشارته الى الدولة المتحضرة ، وعلى ذلك فقد اشترك هؤلاء الرحالة الثلاثة حول توجيههم لأنظار فرنسا نحو خصوبة مصر وغناها وحول تقهقر مصر وانهيار النفوذ العثمانى فيها حتى أنه ليسهل فتحها . وجاء ذلك فى الوقت الذى كان فيه الفرنسيون يبحثون عن الميادين المحتملة لتأسيس مستعمرات جديدة بنجاح ، وفى الوقت الذى كان فيه الفرنسيون يتوقعون انحلال الامبراطورية العثمانية ولا يريدون أن تفلت الفرصة من يدهمفلاينالون نصيبهم من الغنيمة ، وكان الرأى العام الفرنسى يكاد يكون مجمعا على تفضيل الاستيلاء على مصر ، ومن ثم فلم يكن مشروع الحملة الفرنسية على مصر وليد ظروف طارئة . وبعض المؤرخين يذكرون أن حكومة الادارة كانت تخشى من نفوذ بونابرت بعد انتصاراته الباهرة على أعداء الثورة فى ايطاليا وودت لو انها استطاعت التخلص من هذا القائد بارساله فى حملة جديدة تبعده عن باريس وعن فرنسا فوجدت فى تعيينه قائدا للجيش المرسل الى مصر فرصة سانحة لتحقيق هذه الرغبة غير انه من الصعب قبول هذا الرأى لأنه لم يكن من السهل اخراج جيش الشرق الكبير وقوامه اكثر من ٣٦ الف جندى مع صفوة قواد فرنسا وعلمائها الى مصر لمثل هذا السبب كيف ويحدث أن

ترسل هذه القوة الكبيرة مع شخص غير مرغوب فيه وهى تعطيه القوة التى يستطيع أن يحقق بها ما يريد فى فرنسا نفسها .

ثم أن بونابرت كاد يتمتع بنفوذ سياسى لايتمتع به عادة القادة العسكريون حتى أن أعضاء حكومة الادارة بداوا يحسون بقوة شخصيته وبأنها تفرض نفسها عليهم فى أمور الدولة ، وقد سعى بونابرت الى الدخول فى حكومة الادارة ولكن سنه التى لم تبلغ الاربعين كانت تحول دون ذلك ، وهو فى قرارة نفسه لم يكن راضيا عن حكومة الادارة وكان يحتقر رجال القانون كرجل عسكرى ، وكان يعلم أن حكومة الادارة مكروهة من الشعب الفرنسى ، ويعلم أيضا انه لايستطيع البقاء بدون جيش وأن اليعاقبة اخذوا يهاجمونه فأحس بحرج موقفه وانه فى حاجة الى المحافظة على سمعته العسكرية ولذا فلابد .ن خلق ميدان يظهر فيه موهبته العسكرية ، ولم يكن أمامه غير مشروع الحملة الفرنسية على مصر .

وقد اثر عنه انه قال مرة لصديقه بوريني (أن أوربا بأسرها ليست الا جحر فار ، وماصدرت الشهرة العالمية ، وما دورى الصيت الخالد ، الا من الشرق وفى الشرق) (١) .

وكان يعتمد فى تنفيذ مشروعه هذا على مساعدة تبو صاحب وعشائر المهراتا الحربية فى الهند (٢)

وفى الوقت الذى استقر فيه الرأى العام الفرنسى على ضرورة الاستيلاء على مصر كانت بريطانيا ترقب بعين القلق تطور فرنسا وازدياد قوتها ، وكانت تخشى أن تثب على احد اجزاء الامبراطورية العثمانية وتبتلعها لأن هذا يخل بالتوازن الدولى ويجعل لفرنسا قوة خطرة فى أوربا ، وكانت بريطانيا لها مصالح تجارية كبيرة مع دول هذه الامبراطورية ، ولذا كانت تحرص بشدة على أن تبقى هذه الامبراطورية على ما هى لايهدد سلامتها عدو ، ولايفوزا

---

(١) فتح مصر الحديث ص ٨٠

(٢) هـ . أ . ل فيشر : تاريخ أوربا فى العصر الحديث (١٧٨٩ — ١٩٥٠) . تعريب أحمد نجيب هاشم ووديع الضبع . الطبعة السادسة . القاهرة ؟ ص ٥٣ .

بأى جزء من أملاكها منافس ، وأصبحت السياسة البريطانية فى ذلك الوقت تقوم على أساس المحافظة على الامبراطورية العثمانية من كل خطر يهدد كيانها (١) .

اعـــداد الحملة

أعدت فرنسا حملة على مصر ، اختلف المؤرخون والكتاب حول عددها وتجهيزاتها ، فمنهم (٢) من يقول انها تكونت من ٣٠٠ر٣٢ جندى منهم ٣٠٠ر٢٤ من المشاة ، وأربعة آلاف من الفرسان ، وثلاثة آلاف من الطوبجية ، والف من الأتباع ، جهز لنقلها ٢٣٢ سفينة نقل ، وجهز لحراستها ومرافقتها اسطولا بحريا من ١٣ بارجة ، وتسع فرقاطات ، واحدى عشرة طرادة ، ومنهم (٣) من يقول أن عدد الجند كان ثلاثين الفا يصحبهم ٢٣ الف من القواد والضباط والكتبة والنساء والأطفال ، وأن عدد سفن النقل والسفن الحربيةكان ٣٨٠سفينة ومنهم (٤) من يقول أن هذه الحملة ضمت ١٧ الف جندى من القوات البرية ، ١٧ الف جندى من القوات البحرية ، ترافقهم ١٣ بارجة تحمل ١٠٢٦ مدفعا ، و ٤٢ فرقاطة ومركبا خفيفا وزورق بريد وغيرها من صغار السفن و ١٣٠ ناقلة من شتى الأنـــواع والف قطعة من مدفعية الميدان ، ١٠٠ الف قطعة من الزخيرة و ٥٦٧ عربة و ٧٠٠ حصان ، هذا بالاضافة الى ما انضم الى الاسطول من جنوة واجاكسيو وشفتيافكيا ، حتى بلغ جملة عدد الرجال ٥٥ الفا وعدد السفن نحو ٤٠٠ سفينة ، ورافق هذه الحملة كذلك لجنة علمية فنية و ٥٠٠ مدنى بينهم ٢٦ من مندوبى الجيش و ٤٤٥ من الموظفين الاداريين (٥) ، وهذه التجهيزات ، ومهما اختلف المؤرخون فى عددها فانها تدل على أن الحملة أعدت بعناية وبكفاءة تتناسب مع الهدف منها ، خاصة وأن

---

(١) حسين مؤنس : الشرق الاسلامى فى العصر الحديث . القاهرة ١٩٣٨ ص ٧٩ .

(٢) احمد حافظ : فتح مصر الحديث ص ٨٣

(٣) مذكرات نقولا الترك ص ٥

(٤) كريستوفر هيرولد : بونابرت فى مصر ص٥ — ص٦

(٥) المرجع الســابق ص ٣٦ — ص ٣٧

قيادتها كما رأينا قد اسندت الى بونابرت ، وانه قد صحبه عدد من كبار القواد منهم أمير البحر دى بروى de Brueys ورئيس أركان Ganteuame ورئيس أركان القوات البرية برتييه Berthiers وعدد آخر من كبار القواد امثال دوجا Dugua وكليبر Kleber وديزيه Desaix ودى بوى Dupuy وعـــدد من العلماء فى الهندســـة والرياضـــة والطبيعة والفلك والموسيقى والرسم والشعر والمعمار ، واحضر بونابرت كذلك معه مطبعة عربية واخرى افرنجية ، وعددا من الآلات والادوات العلمية ، ومكتبة عن الشرق ومصر ليقرأها الضباط أثناء تقدمهم الى مصر .

وانتهى بونابرت من تجهيز الحملة فى ١٢ أبريل سنة ١٧٩٨ ، وخرجت من موانى طولون ومرسيليا وكورسيكا وجنوا فى سرية تامة خشـــية من تعقب بريطانيا لها ، فى الساعة السادسة من صباح ٨ مايو سنة ١٧٩٨ (١)

قيـــام الحملة :

فى ٥ مارس سنة ١٧٩٨ استقر راى حكومة الادارة على ارسال الحملة ، وتكتمت امرها خوفا من تسرب انبائها الى بريطانيا ، وفى ١٢ ابريل أطلق على هذه الحملة (جيش الشرق) ، واسندت القيادة الى بونابرت ، وصدر قرار يحمل تعليمات واضحة من مقدمة وست بنود .

فاما المقدمة : فقد أوضحت ان سبب هذه الحملة هو عقاب المماليك الذين اتصلوا بالانجليز واصبحوا تحت تصرفهم والذين اضطهدوا التجار الفرنسيين واستغلوهم أسوأ استغلال .

وفى البند الاول : تقرر اعطاء القيادة البرية والبحرية لبونابرت .

وفى البند الثانى : طلب طرد الانجليز من كافة ممتلكاتهم فى الشرق وفى الجهات التى يستطيع بونابرت الوصول اليها والتغلب عليها وبالاخص المراكز التجارية فى البحر الاحمر .

---

(١) فتح مصر الحديث ص ٨٢ — ص ٨٥

وفى البند الثالث : كلفته الحكومة بتنفيذ مشروع ربط البحر الاحمر بالبحر المتوسط واتخاذ كافة الوسائل اللازمة التى تتيح لفرنسا السيطرة الكاملة على البحر الاحمر والتجارة فيه .

وفى البند الرابع : كلف بونابرت بالعمل على تحسين أحوال المصريين .

وفى البند الخامس : أوصى بالمحافظة على العلاقات الحسنة مع السلطان العثمانى .

وفى البند السادس : نص على أن تظل هذه الاوامر والتعليمات غير مطبوعة وسرية .

وهكذا يظل بونابرت يصدر أوامره باسم بونابرت القائد العام لجيش انجلترا حتى اقلعت الحملة من طولون فى ١٩ مايو سنة ١٧٩٨ فى طريقها الى مصر (١) .

(الاســتيلاء على مصر)

وفى الطريق استولت الحملة على مالطة وكان بها فرسان القديس يوحنا وكانت علاقاتهم بالاهالى متوترة ولذلك فلم تبد الجزيرة مقاومة للجيش الفرنسى ، كما أنه من المعروف أن هذه القوة كانت مكلفة بالحرب ضــد المسلمين ووضع بونابرت حامية بها من ثلاثة آلاف جندى واستولى منها على ١٢٠٠ مدفع كما اخذ جماعة يعرفون العربية أصبحوا أدلاء ومعاونين له وعرفوا بالكتيبة المالطية وكانوا نحو الفين (٢) .

وقبل أن ينزل بونابرت الى الاسكندرية أصدر منشورا الى جنوده فى ٢٢ يونيه سنة ١٧٩٨ طلب منهم فيه أن يكونوا دوما مستعدين لبذل غاية الجهد ، فهم سيخوضون حربا ضروسا ضد بريطانيا وضد المماليك الذين يعضدون تجارة بريطانيا ، وطلب منهم احترام عقائد الشعب المصرى

---

(١) د . محمد فؤاد شكرى : عبد الله جاك مينو ـــ القاهرة ١٩٥٢ ص ٨٠ .
(٢) المرجع السابق ص ٨٤ ـــ ص ٨٥ .

ومعاملته معاملة حسنة قائمة على التسامح ، وان يحترموا الشيوخ وتقاليد الشعب وعاداته فهو شعب مسلم له تقاليد تخالف تقاليد الفرنسيين ، وطلب منهم البعد عن أعمال السلب والنهب (١) .

ووجه خطابا آخر على ظهر الباخرة لوريان كذلك فى ٣٠ يونيو الى والى مصر أبى بكر باشا يخبره أن فرنسا لاتريد الا تأديب المماليك الذين اساءوا معاملة التجار الفرنسيين ، وذلك بعد ان عجزت الدولة العثمانية عن تأديبهم ، كما اخبره بأنه ليست لديه أطماع ضد السلطان العثمانى ، وأن فرنسا صديقة للسلطان ولذا فيجب عليه مقابلة الفرنسيين مقابلة طيبة .

وفى صباح يوم ٢ يوليو بدأ الهجوم على الاسكندرية فقاومه اهلها ببسالة بمواردهم المحدودة ومن نوافذ المنازل ، ولم يكن للترك بها سوى ثلاث سفن استأذن قائدها ادريس وخرج بها الى الآستانة ولتفوق بونابرت فى النظام والسلاح وحسن القيادة احرزت النصر ، والقى محمد كريم السلاح بعد مقاومة عنيفة من قلعة قيتباى وخسرت الاسكندرية نحو ٨٠٠ بين قتيل وجريح وكانت المدينة ينقصها البارود ولم يرسل مراد بك منه سوى قنطارين ، وبعد أن استنجده محمد كريم ثلاث عشرة مرة ومع ذلك فقد جرح كليبر ومينو واسكال وقتل اللواء ماس وخمسة آخرون من الضباط وعين بونابرت كليبر حاكما على الاسكندرية ويساعده مجلس من محمد كريم وكبير علمائها الشيخ محمد المسيرى وخمسة من أعيانها وترك بها حامية من عشرة آلاف جندى .

واوصاه فى رسالة له بالعناية بالمرضى ، وانشاء المستشفيات ، وأن يراقب حركات العربان ، وأن يسرع فى بناء الاستحكامات لحماية الاسطول الفرنسى الذى سيرسو فى خليج أبى قير ، وأن يمهد المواصلات بين الاسكندرية ورشيد ، والا يتدخل فى مسائل الشرع والعقيدة الشعب المصرىتاليفاله (٣)

---

(١) فتح مصر الحديث . نص رسالة بونابرت الى الجند على ظهر الباخرة لوريان ص ٨٩ — ص ٩٠

(٢) المرجع السابق . نص رسالة بونابرت الى أبى بكر باشا . ص ١٠٩ — ص ١١٠

(٣) اوامر بونابرت الى كليبر : فتح مصر الحديث ص ١١٢ — ص ١١٣

وكتب لمحمد كريم فى ٧ يولية يطلب منه ، وقد ولاه حكم الاسكندرية أن يمد يد العون لكليبر وللجيش الفرنسى (١) وبعد انصراف بونابرت الى القاهرة وعلم بذلك المماليك هربوا من رشيد فأقام الاهالى بها حكومة يراسها ثلاثة من أعيانها وبدأوا المقاومة . وفى القاهرة انقسم المماليك ، فابراهيم بك حمل المال والمتاع واتجه نحو الصالحية واما مراد بك يقود جيشه الذى يتراوح بين ١٢ — ٢٠ الفا منهم ٦٠٠٠ من المماليك والباقى من المصريين فلاحين وعرب ، وفى رشيد حدثت معركة عند شبرا خيت اصيبت فيها سفينة السلاح المصرية ، وقاتل المصريون ببسالة ولكن لحقت بهم الهزيمة وفر المماليك بعد أن فقدوا نصف قوتهم وتركوا سلاحهم . ووصل بونابرت فى طريقه الى القاهرة وعند مشارفها اجتمع العلماء والاعيان واتفقوا على اعلان المقاومة واقاموا المتاريس بين بولاق وشبرا واخذ الناس يجمعون المال ويشترون السلاح ويجهزون الجند ، وقاد السيد عمر مكرم المتطوعين فى شوارع القاهرة حاملا البيرق النبوى من القلعة وقدم اليها عربان البحيرة والصعيد وكذلك عرب الخبيرية والقيعان وأولاد على والهنادى .

وفى معركة امبابة والاهرام هزم مراد ، رغم قتاله ببسالة وشجاعة وفر ابراهيم بك والباشا التركى فثار الناس ونهبوا بيتى مراد وابراهيم ، وكانت هذه المعركة هى آخر مقاومة للمماليك وفر مراد بعدها الى الوجه القبلى وقر راى العلماء على القاء السلاح وتسليم المدينة لبونابرت على شريطة تأمين الاهالى على أرواحهم ودخلها ديبوى يوم ٢٣ يوليو ونزل فى بيت ابراهيم بك الصغير صهر ابراهيم بك الكبير ، اما بونابرت فدخلها فى اليوم التالى ونزل فى بيت محمد بك الالفى على بركة الازبكية وتعرضت القاهرة للسلب والنهب

(الفرنســيون فى مصر)

قبل ان يدخل بونابرت القاهرة وجه منشورا الى المصريين حرره باللغة العربية يلاحظ فيه روح الاقتباس من القرآن الكريم وفيه شرح بونابرت سياسته التى إعتزم اتباعها فى مصر شرحا وافيا . فهو يحاول ان يفصل بين

(١) رسالة بونابرت الى محمد كريم : فتح مصر الحديث ص ١٠١٤.

المماليك والعثمانيين ويوضح أن فرنسا ستبقى فى حالة سلم مع الدولة العثمانية ما استطاعت الى ذلك سبيلا ، ففرنسا حين قررت فتح مصر قررت أيضا الا يوقعها ذلك فى حرب مع الدولة العثمانية وقال بونابرت للمصريين فى منشوره انه جاء : ليحررهم من المماليك الذين ليس لهم حق فى مصر ويعاملون الناس معملة سيئة ويستولون على أموالهم ، كما أن الفرنسيين لم يجيئوا لازالة الدين الاسلامى ، كما أدعى البعض وانما ليخلصه من يد الظالمين ، وأن الفرنسيين يعبدون الله ويحترمون نبيه والقرآن الكريم وأنه سوف لايستثنى احدا من اهالى مصر فى الدخول الى المناصب السامية واكتساب المراتب العالية كما استطرد فقال أن الفرنسيين ايضا مسلمون خالصون فهم قد نزلوا فى روما وخربوا كرسى البابوية الذى كان يحث الناس على حرب المسلمين وحين قصدوا جزيرة مالطة طردوا منها فرسان القديس يوحنا الذين كانوا يقولون أن الله طلب منهم محاربة المسلمين ، وفوق ذلك فالفرنسيون مخلصون لحضرة السلطان العثمانى وأن المصريين بذلك اذا أطاعوهم وتعاونوا معهم نالوا منهم الخير اما من يتعاون من المماليك فسوف يتعرض للعقاب الشـــــديد .

ثم أصدر بونابرت خمسة أوامر اوجب على المصريين طاعتها : —

١ — على القرى الواقعة فى طريق الجيش الفرنسى والتى لا تبعد أكثر من ثلاثة فراسخ عليها أن ترفع العلم الفرنسى علامة على الطاعة والولاء وترسل نوابا عنها لتقديم الطاعة .

٢ — كل قرية تقاوم الفرنسيين يجرى حرقها .

٣ — كل قرية تعلن الطاعة عليها رفع العلمين الفرنسى والعثمانى .

٤ — يجب على المشايخ فى كل بلد التحفظ على املاك المماليك وعدم التصرف فى شىء منها .

٥ — يجب على الناس الانصراف الى عبادتهم وحياتهم العادية ويدعون فى صلاتهم للسلطان العثمانى والفرنسيين ويلعنون المماليك (١) .

---

(١) الجبرتى : جزء ثانى ص ١٨٢ — ١٨٤ (نص المنشور) نشر بيروت

بعد ان راى ابراهيم بك هزيمة مراد فى امبابة فر هو ومن معه من المماليك الى بلبيس فتتبعه بونابرت حتى خرج الى الشام ودخل غزة ، أما مراد فتتبعه ديزيه الى الوجه القبلى .

وكان بونابرت قد عرض عن طريق رجل يقال له روزتى — سيأتى ذكره — على مراد بك أن يعطيه حكم الوجه القبلى من جرجا جنوبا فرفض مراد بك ، بل طلب هو من بونابرت الخروج من مصر ويعطيه هو عشرة آلاف كيس ، فما كان من بونابرت الا أن أسند الى ديزيه مطاردته فى الصعيد (١)

وخرج ديزيه ومعه أربعة آلاف جندى وعدد من الكتبة من قبط مصر منهم رجل غنى يقال له المعلم يعقوب القبطى ، والتقى بمراد فى المنيا على رأس عدد من المماليك والعربان والمصريين وكان مراد قد تصالح مع عثمان بك حسن وحسن بك الجداوى وكانا فى اسنا بأتباعهم بعد أن طردهم مراد وابراهيم ، ولذا فقد بلغت قوات مراد نحو ٢٠ الف ولكن انتصر عليهم الفرنسيون وهرب المماليك الذين عجزوا عن الصمود أمام نيران الفرنسيين وأمام فنون القتال الحديثة ، ولم تنفعهم شجاعتهم وبسالتهم ، وفى اللاهون حدثت معركة اخرى ، وتكررت الوقائع التى مات فيها عدد كبير من المماليك والعربان والفلاحين المصريين ، واخيرا تقهقر مراد بك الى أسوان (٢) .

وبعد أن استقر بونابرت فى القاهرة طلب فى يوم الخميس ١٣ صفر ١٢١٣هـ — ٢٦ يوليو عام ١٧٩٨م المشايخ والوجاقلية واختار برنابرت عشرة من العلماء كون منهم ديوانا لمساعدة حاكم القاهرة ديبوى وهؤلاء العلماء هم عبد الله الشرقاوى ، خليل البكرى ، مصطفى الصاوى ، سليمان الفيومى ، محمد المهدى ، موسى السرسى ، مصطفى الدمنهورى ، أحمد العريشى ، يوسف الشبراخيتى ، محمد الدواخلى ، واختار الشيخ المهدى سكرتيرا

---

(١) نقولا الترك . ص ١٨

(٢) المرجع السابق ص ٣١ — ٣٣

لهذا الديوان واختار معهم ثلاثة من الفرنسيين هم كاف ووطار وبودوف وعين العالم الفرنسى مونج Monge رئيسا وكلفه بالاشراف على أعمال الديوان. الا أن بونابرت عين رجلا نصرانيا روميا يسمى برطلمين كان المصريون يسمونه فرط الرمان . كتخذا مستحفظان أى كمدارا للقاهرة وكان له حانوت فى الموسكى يبيع فيه قوارير الزجاج وكان هذا الرجل يحقد على المصريين ولذلك عقد كرهوه بشدة . وقصد بونابرت بذلك ان يشعر المصريين انهم يحكمون أنفسهم مقربين اليه وأن الفرنسيين لم يأتون كفاتحين وانما ليقيموا شعائر الدين ويقضوا على تعنت المماليك .

وكذلك أصدر بونابرت أوامره المشددة الى الجنود بعدم الاعتداء على أرواح الناس وأموالهم ونسائهم وبيوتهم وتركهم يباشرون عبادتهم فى حرية ولكنه على الرغم من ذلك فان الجنود عاثوا فسادا ونهبوا البيوت واستولوا على كثير من بيوت وأملاك الامراء .

واذا كان بونابرت قد فعل الكثير ليظهر للمصريين انه صديق لهم ولنبيهم حين اشترك معهم فى الاحتفال بوفاء النيل فى اغسطس وقام الجند الفرنسيون فاشتركوا بموسيقاهم وحرابهم فى هذا الاحتفال ، وحين شاركهم مع الشيخ البكرى فى مولد الرسول وصرف الاموال الواسعة فى هذا الاحتفال بل أحيانا مالبس الجبة والقفطان وتغذى على مائدة الشيخ البكرى وترك الناس يباشرون عباداتهم فى حرية . فانه سرعان مارجع الفرنسيون الى عاداتهم وتقاليدهم فشربوا الخمر وفتح الأروام المحلات لبيعها ، كما أقاموا حفلات السهر والرقص وسارت نساؤهم فى ملابسهن الافرنجية التى كانت محل غضب من المصريين وقتذاك ودون أن يدرى الفرنسيون كانوا عاملا فى ارتفاع الاسعار ، لأنهم حينما أرادوا مجاملة المصريين أو لعل ذلك حدث بما جاء الى ايديهم من أموال طائلة نهبوها واشتروا السلع بأثمان عالية بدأت الأسعار ترتفع وساءت حالة الخبز وقلت الاغذية المعروضة فى الاسواق، كذلك سار الفرنسيون على سياسة احترام العلماء والتقرب اليهم وخاصة أكابرهم مثل الشيخ السادات والشيخ خليل البكرى الذى اختاره بونابرت نقيبا للاشراف مكان عمر مكرم ، كما عين مصطفى بك كتخدا الباشا أميرا للحج ، وكتب بذلك رسميا للدول . وحينما أراد اجراء سلسلة من الاصلاحات

الاجتماعية العمرانية وأصدار أوامره بتسجيل العقارات والمواليد والوفيات ، ووسعوا الشوارع والميادين وغرسوا الاشجار على جانبيها وأقاموا مصانع للجوخ والذخيرة ، وبدأ العلماء الفرنسيون فى دراسة مشروع توصيل البحرين الاحمر والابيض ، وبسبب ذلك وبسبب تجميل القاهرة وتوسيع الشوارع وانارتها ليلا اضطر الفرنسيون الي هدم بعض أبواب الحارات والمساجد،كما أن بونابرت أصدر تعليمات بضرورة تسجيل الوفيات والمواليد فأغضب المصريين لأنهم لم يتعودوا على ذلك ، كما أنه فرض رسوما على تسجيل العقارات

كذلك كان بونابرت بحاجة الى المال وبخاصة بعد أن تحطم اسطوله فى أبو قير ففرض على القاهرة ٥٠٠ ألف ريال تجبى من التجار ، وفرض الضرائب على نساء المماليك فأخذ من السيدة نفيسة زوجة مراد بك ١٢٠ الف ريال فرنسى (٢٤ الف جنيه) كما استولى الفرنسيون على الكثير من الخيول والابل والسلاح والابقار والثيران وجمعوا من ذلك الشيء الكثير ثم عاد بونابرت وطلب من أهل الحرف بالقاهرة مبلغا من المال عجزوا عنه فاستشفعوا بالعلماء فخففه الى النصف وأعطى لهم مهلة أطول .

وكانت هذه التصرفات تهيب المصريين وجعلتهم يكرهون الحكم الفرنسى ، ولم تنطو عليهم حيل بونابرت فاستمروا فى أعمال المقاومة وانتهزوا الفرص المناسبة للثورة وخاصة حين تعددت الضرائب والغرامات والرسوم التى فرضها الفرنسيون وحين وصل منشور السلطان العثمانى يدعو للثورة بعد معركة النيل وهزيمة الاسطول الفرنسى فيها ، وكذلك فان هذه المعركة شجعت المصريين وجعلتهم لايخشون الفرنسيين وأصبحت القاهرة مهيئة للثورة (١) .

وقبل ان نتكلم عن ثورات المصريين يجب علينا أن نتكلم أولا عن معركة النيـــل .

---

(١) الجبرتى مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس . جزء أول ص ١٠٧ — ص ١١٤ .

« معــركة الفيــــل »

فالحقيقة ان الحملة الفرنسية على مصر تبدأ نهايتها والصفحة الاخيرة لها منذ قدومها الى مصر ، وذلك لان المصريين كرهوها ونظروا اليها كمحتل غاصب رغم تظاهر بونابرت بصداقته لهم فلم يتعاونوا مع الفرنسيين مدة ثلاث سنين هى فترة وجود الحملة فى مصر .

وكانت انجلترا لاتعلم الجهة التى تقصدها الحملة وظنت أنها تريد غزوها فى بلادها وأن استعداداتها فى البحر المتوسط تهدف الى الوصول الى جبل طارق قاصدة احتلال أو غزو البرتغال ثم احتلال ايرلندا ثم انجلترا نفسها . كما ظن بعض أعضاء الحكومة الانجليزية أن الحملة ستسير الى الهند عن طريق راس الرجاء الصالح ، وكان فى استطاعة الحكومة الانجليزية أن تعرف وجهة الحملة وأعضاء حكومة الادارة وعددهم خمسة كانوا يعلمون وجهتها ولكن يظهر أن — المخابرات الانجليزية لم تنشط النشاط الكافى فمثلا اعداد الحملة لمطبعة عربية يدل على انها تقصد بلدا عربيا ونلسن كتب الى سانت فنسانت St. Vincent امير البحر يقول له أنهم يتصرفون فى سرية تامة . ومعنى ذلك فى رأى نلسن فى الامر سرا . وكان من اثر هذا التخبط أن اصدرت انجلترا امرها الى الأميرال سان فنسان لمراقبة بوغاز جبل طارق وعهد فنسان الى نلسن بالتجول فى البحر المتوسط لمراقبة حركات الاسطول الفرنسى وصدر اليه الامر الصريح بألا يدخر وسعا فى اغراق أو أخذ أو حرق أو تحطيم هذه العمارة الفرنسية . ولم يكن غرض الانجليز بذلك فتح مصر وانما كان تدمير الاسطول الفرنسى أينما وجد سواء اكان راسيا فى ميناء أو سائرا فى البحر ، وكان من حسن الحظ أن اقلعت الحملة من فرنســا واستولت على مالطة وعرجت على جزيرة كريت ثم وصلت الى الاسكندرية دون أن يقابلها الانجليز فقد اضطرت عاصفة بحرية شديدة الاميرال نلسن الى الالتجاء الى جزيرة سردينيا ولو حدث وتقابل الاسطولان لكانت الخسارة شديدة . وكانت العمارة الفرنسية تتكون من سفن حربية وناقلات جنود عددها ٤٠٠ سفينة فلو قابلها نلسن لأغرق منها عددا كبيرا . وكان نلسن قد وصل قبلها الى الاسكندرية وغادرها فورا عندما لم يجد الفرنسيين وذلك للبحث عنهم فاتجه الى شواطىء آسيا الصغرى الى صقلية ثم عاد الى

الاسكندرية وفى أثناء ذلك اشتد قلق الرأى العام الانجليزى لان نلسن لم يستطع فى بحر ثلاثة أشهر قضاها فى عرض البحر أن يدرك الاسطول الفرنسى وترك بونابرت يستولى على مالطة ويحتل سواحل مصر ، واتجه نلسن على الفور الى ابو قير حيث كان الاسطول الفرنسى راسيا فيه وقد تقدم اسطول نلسن عند اقترابه من أبو قير سفينة مصرية كانت تقل جماعة من البحارة المصريين تقدموا ليرشدوا الاسطول الانجليزى الى مسالك البحر فى تلك الجهة وقد تبين أنه كان فى النيه ارسال الاسطول الفرنسى الى الجزر الايونية بعد وصول الحملة الى مصر وبعد أن احتلت الاسكندرية ولكن بونابرت حجزه بعض الوقت ، ومسئولية بقاء الاسطول الفرنسى فى الشواطىء المصرية مسألة ثار حولها جدل بين المؤرخين ، فالحقيقة أن مسألة مرساه لم تكن قد درست تماما بين بونابرت ودى بروى ، فالأخير لم يكن يعلم الغرض الحقيقى من الاستعدادات البحرية فى طولون والاثنان كانا يجهلان طبيعة الشواطىء المصرية جيدا ، وكان قد حدث اتفاق بين بونابرت وحكومة الادارة على اتخاذ كورنو الواقعة فى منتصف المسافة بين فرنسا ومصر مقرا للاسطول حتى يستطيع أن يلعب دورا فعالا فى تموين الحملة ونقل الاخبار من والى فرنسا ، وفى الطريق اخذ دى بروى يوضح لبونابرت تعذر ارساء الاسطول فى كورنو لعدم صلاحيتها لرسوه ، ولما نزلت الجيوش الفرنسية الى الاسكندرية اتضح الدور الذى يمكن أن يلعبه الاسطول ، فالحملة لم تستقر بعد فى مصر ، وأراد بونابرت أن يبقى الاسطول قريبا من الشواطىء المصرية فترك لدى بروى حرية البقاء فى الاسكندرية أو النزول فى خليج أبى قير ، واذا عرفنا ان بونابرت كان يفكر فى الرجوع السريع الى فرنسا ، وأنه كان فى النيه ارسال حملة اخرى لتأييد هذه الحملة وتدعيمها ادركنا اهمية الاسطول الفرنسى للحملة الزاحفة على مصر والتجأ دى بروى الى خليج ابو قير ووضع سفنه فى وضع استعداد للقتال وكان هذا الاسطول فى وضع ضعيف بسبب :

١ ــ قلة التموين ورداءة بحارته .

٢ ــ ضعف صحة دى بروى نفسه مما جعله يترك امر العناية بالاسطول لضباطه .

٣ ـ كان بين سفن الاسطول وجزيرة أبو قير ثغرة واسعة وكذلك بين السفن وبعضها ثم هو لم يهتم بتحصين الجزيرة .

وقد استفاد نلسن من ذلك فجعل سفنه تدخل بين سفن الاسطول الفرنسى وبينها وبين الشاطىء ، وكان الاسطول قد حاول أن يدخل ميناء الاسكندرية ولكن الفرنسيين اعتقدوا أن دخول الميناء متعذر لوجود الصخور فى ذلك الثغر واعتقدوا أن المجارى الصالحة للملاحة بين هذه الصــخور ليست عميقة لدخوله ، وغير كافية لدخول السفن فراى قائد الاسطول الفرنسى أن يرسل الاسطول فى جهة قريبة فى الشاطىء وقر رايه عند خليج أبو قير وهو خليج مفتوح ، ووقفت السفن بعيــدة عن الشاطىء فلم تستفد من حماية الشاطىء لها ورسا الاسطول فى خط مواز للشاطىء ، ووجدهم الانجليز راسين فى تلك الصورة . فلما وصل نلسن بعد الظهر فى أول أغسطس ســـنة ١٧٩٨ صمم على الاشتباك فى المعركة فورا واعتقد أمير البحر الفرنسى دى بروى De Brueyes ان الانجليز سيكتفون بحصار الاسطول الفرنسى وكان أمامه اما أن يحارب الانجليز حربا متحركة أى تتحرك السفن وتخرج بعرض البحر وتكون الحرب أشبه بحرب الجيوش البرية فيقوى القائد مثلا القلب أو الجناح أو يتقدم او يتأخر أو يقوم بحركة التفاف ولكن دى بروى لم ير اتخاذ حركة الحرب المتحركة لان هذا النوع من الحرب يتطلب مهارة من البحارة وسرعة الحركة وهى غير متوفرة فى البحارة الفرنسيين ، ورأى دى بروى أن يقف فى مكانه ويتلقى هجوم الانجليز ويرد باطلاق المدافع وهذا وضع يشبه القلاع فالسفينة كقلعة ثابتة يهجم عليها العدو وترد عليه باطلاق النار وكان من المحتمل أن تنجح هذه الخطة لولا أن الانجليز انشطروا شطرين شطر تمكن من الولوج داخل الخليج أى وقف بين السفن الفرنسية والشاطىء داخل الخليج ، وقسم بقى خارج الخليج وحصر الانجليز الجزء الامامى من الاسطول بين نارين احدهما من الشاطىء والاخر من الخارج .

ولسوء حظ الفرنسيين أن قذيفة مدفع أصابت مخزن البارود الموجود فى أكبر بارجة فرنسية وهى لوريان L'orient وكان عليها الاميرال دى بروى فانفجر البارود واصيب من كان فى السفينة ومنهم دى بروى نفسه وبعد ذلك تولى القيادة فيلنوف .

الى أن انجلت المعركة فى النهاية عن حرق وتحطيم معظم سفن الاسطول الفرنسى الواقع بين نارين وهربت نحو خمس سفن فرنسية بقيادة فيلنوف وكان سكان الاسكندرية ورشيد يرون النار طول الليل مشتعلة فى البارجة الفرنسية لوريان ويسمى الانجليز هذه المعركة معركة النيل The Battle of The Nile

ويسميها الفرنسيون معركة أبو قير البحرية وفيها خسر الفرنسيون نحو أربعة آلاف ، وأسر كثيرون أعادهم الانجليز الى الاسكندرية تخلصا من مؤونتهم ومعالجتهم ، وفقد الانجليز ٢١٨ قتيلا وجرح منهم ٦٧٨ جنديا ، وأصيبت بوارجهم بعطب وتلف من شدة الضرب . وكان لها وقع حاسم ، وتأثير كبير على بقاء الحملة الفرنسية فى مصر وبالتالى فى جلائها عنها . فقد فقد بونابرت أسباب الاتصال بأوربا عامة وفرنسا خاصة وضاع كل أمله فى امكان وصول المدد والذخيرة من فرنسا اليه ، كما أن ضياع الاسطول حرم الفرنسيين من أكبر ضمان يعتمدون عليه ويلجأون اليه اذا اضطرتهم الظروف فى مصر الى التقهقر أو العودة ، وذلك لان الانجليز بعد هذه المعركة فرضوا على سواحل مصر الشمالية حصارا قويا قطع الاتصال بين فرنسا ومصر .

وكان هذا الحصار عاملا أساسيا فى هذه الحملة النهائية . ولو أنه كان عاملا بطيئا ولاجل ذلك لايقدره كثير من الناس ، وكان هذا الحصار أحد العوامل التى جعلت الدولة العثمانية تعلن الحرب على فرنسا وكان من الجائز قبل ذلك أن تسلم الدولة العثمانية باستيلاء فرنسا على مصر وكان ذلك حساب فرنسا فى السياسة لان بونابرت كان يحاول جاهدا أن يحصر الحرب بينه وبين المماليك فقط . وحاولت فرنسا أن تقنع السلطان أن الحملة على مصر ليست عملا عدائيا موجها ضده واقترحت عليه مشروع اتفاق يقوم على أساس الاعتراف بسيادته على مصر فيقيم نائبه فى القاهرة على أن يحتفظ الفرنسيون بمهمة الحكم الداخلى بالاستناد الى قوة عسكرية لهم فى البلاد ويتعهدون بعدم الاساءة الى ديانة المصريين ومعتقداتهم ، أى أن فرنسا كانت تريد أن تحكم مصر دون أن تغير مركزها ، وهذا مافعله الانجليز بعد احتلالهم مصر سنة ١٨٨٢م (١) وكان من المحتمل أن تسلم تركيا لهذا الامر وتقبل أخف الضررين ولكن حدث أمران :

---

(١) بونابرت فى مصر ص ١٤٢ — ١٨١

الأول : موقعة النيل وذلك أن حصار الانجليز وتحطيم الاسطول الفرنسى معناه ان فرنسا لايمكنها أن تهدد تركيا فى جهة أخرى غير مصر .

الثانى : قررت الروسيا مساعدة تركيا واعلان الحرب على فرنسا وهذا وهو العامل الاساسى وهو اهم من انتصار الانجليز . فالروسيا اعلنت انها مستعدة للوقوف الى جانب تركيا ومحاربة فرنسا ، وهذا الموقف جعل تركيا تأمن خطر روسيا وحربها ، وكانت الاشاعات فى ذلك الوقت قد راجت أن فرنسا متفقة مع الروسيا بالاغارة على أملاكه فى البلقان واذن فقبل أن تتخذ تركيا خطة حاسمة وجب عليها أن تتأكد أولا من موقف الروسيا وعدم عدائها لها . وكانت الروسيا تحت حكم القيصربول Boul وكان يكره تقدم فرنسا فى البحر المتوسط وينقم عليها سياستها فى الشرق حينما احتلت الجزر الايونية ، ، وكذلك كان بونابرت اثناء وجوده فى ايطاليا قد بدأ ينشىء صلات وعلاقات وثيقة مع اليونان ، وكانت روسيا تريد أن تكون صاحبة النفوذ الأول فى بلاد البلقان ، وكره بول أيضا امتلاك الفرنسيين ولهذا قرر مساعدة الدولة العثمانية ودفاعا عن مصالح بلاده وتكون حينذاك التحالف الدولى الثانى من انجلترا وروسيا وتركيا ، وبدأت تركيا عدة حوادث عدائية ضد فرنسا . عندما اعتقلت سكرتير السفارة الفرنسية والرعايا الفرنسيين وهذه كانت طريقتها عندما تقطع علاقاتها مع اى دولة ، وقد نظمت الدول الثلاث المقاومة ضد فرنسا باستنكار احتلال الفرنسيين لمصر وقرروا الا تكون هناك مفاوضات صلح انفرادية بل لابد من اشتراك الجميع فيها . واعتقدت انجلترا أن القدر الذى قامت به سنة ١٧٩٨ حين دمرت الاسطول الفرنسى فى أبو قير يكفى وانها سترابط فى البحر المتوسط ، وارسلت بعثة عسكرية لتنظيم الجيش التركى وأرسلت لها شحنات من الأسلحة لتعزيز الجيش ، أما نصيب تركيا فقد اتفق على أن تقوم بارسال جيش برى لاخراج الفرنسيين . وأرسلت ايضا منشورات لاعلان الجهاد فى مصر ، وشجعت المماليك على تقديم المساعدة الكافية ، وأمرت قوات الشام بقيادة الجزار بالتوجيه الى مصر لمهاجمة الفرنسيين . أما روسيا فقد قالت أن مصر بعيدة عنها ويجب عليها لذلك ان تحصر جهدها فى البحر المتوسط وذلك بأن تشترك مع العثمانيين فى اخراج الفرنسيين من الجزر الايونية . وقام الانجليز باحتلال مالطة . وكانت السياسة البريطانية فى ذلك الوقت تحرص على

أن تبقى مصر ولاية عثمانية ومنع وقوعها فى ايدى اى دولة أجنبية قوية لأنها تخشى من أن تتقدم هذه الدولة فتتخذ من موقع مصر الجغرافى سلاحا ضد الانجليز . وظلت هذه هى أسس السياسة الانجليزية طوال القرن التاسع عشر ثم بدأت تغير من موقعها هذا وعلى الاخص بعد فتح قناة السويس واحتلال فرنسا للجزائر وقيام ايطاليا فى البحر المتوسط (١) .

مقاومة الشعب المصرى للاحتلال الفرنسى

لم يكد سكان الاسكندرية يعلمون من نلسن بخبر قدوم الحملة الفرنسية حتى استعدوا للمقاومة ، ولم تكد الاخبار تصل الى سمع الشعب المصرى حتى هب ، يتزعمه علماؤه وكبار رجال التجارة ، وشيوخ المدن والقرى والنواحى ، يدفع عن نفسه هذا الاحتلال ، واجتمع العلماء فى قصر ابراهيم بك ، وحضر أبو بكر باشا والى مصر وقواد المماليك هذا الاجتماع واخذوا يتباحثون فى الأمر ،واخذوا يتهمون الدولة العثمانية بأنها آذنت لفرنسا بذلك العدوان ، وأخذ أبو بكر باشا يدفع هذه التهمة عن الدولة العثمانية ، وأجمع هؤلاء على سجن القنصل الفرنسى وجميع التجار الفرنسيين فى قلعةالجبل(٢)

كذلك لم يكد عرب الشام يسمعون بخبر الحملة الفرنسية على مصر حتى أصابهم غضب شديد كما سرى الغضب فى انحاء الحجاز ، وظهر ذلك بوضوح فى ثورة أهل الشام ضد أمير المحمل صالح بك ، واتهموه بأنه هو والأتراك السبب فى دخول (الكفار) بلاد المسلمين وخراب مصر وبلاد الشـــام (٣) .

وجاء من مكة رجل من الاشراف يسمى الشيخ محمد الجيلانى ومعه ثمانية آلاف من أهل مكة ، واخذ يهيج الاهالى ، ولما بلغ الامر الى ديزيه وكان

---

(١) د. محمد فؤاد شكرى : الحملة الفرنسية وظهور محمد على ص ١٤٢ — ص ١٦٢

(٢) فتح مصر الحديث ص ١١٦ ، ص ١١٧

(٣) نقولا الترك : ص ١٩

يقاتل مراد بك فى الوجه القبلى قاتل هؤلاء العرب وانتهت المعارك بينه وبينهم بقتل الشـــيخ الجيلانى (١) .

اما فى الأســـــكندرية :

فقد أخذ السكان يحصنون القلاع ويزيدون فى أعداد المتطوعين ، ولما نزلت الحملة الفرنسية الى البر فى ٢ يولية سنة ١٧٩٨ ، أرسل محمد كريم حاكم المدينة الرسل الى مراد وابراهيم يطلب الرجال والسلاح ، وانتظارا لوصول هذا المدد أخذ يقاتل هو وقواته القليلة ببسالة معتصما بقلعة قايتباى حتى جهده القتال ، ، وأخيرا القى السلاح عندما تبين له أنه لاجدوى من مواصلة القتال حيث لم ينجده المماليك بعد ثلاث عشر رسالة سوى بقنطارين من البارود ، وأعجب بونابرت بشجاعة محمد كريم ، واخلاصه لبلده فأكرمه وعينه حاكما على المدينة ، وطلب منه أن يتعاون مع الفرنسيين ، الا أن محمد كريم كان يرى فى الفرنسيين غزاة لبلده فاستمر يقاوم سرا ، وبدأ الأهالى يتمردون على الفرنسيين ويدبرون ضدهم المكائد ، وانتقلت هذه المقاومة الى البحيرة ، اذ عندما علم أهلها بقيام كتيبة فرنسية للطواف بجهات البحيرة ورشيد والاسكندرية للاطمئنان على مواصلات الفرنسيين ، رفض الأهالى فى الاسكندرية تزويدها بما تحتاجه من ماء ومؤونة ، وقوبلت الكتيبة فى دمنهور بمقاومة شديدة أجبرتها على الرحيل ، واتهم كليبر حاكم الاسكندرية الفرنسى محمد كريم بأنه المدبر لهده المقاومة وقبض عليه وقدم للمحاكمة وحكم عليه بالاعدام ، ثم سمح له بونابرت بأن يفدى نفسه بثلاثين الف ريال رفض دفعها فى اباء وشمم وقابل الموت بشجاعة فداء لوطنه (٢) .

وفى الاسكندرية أيضا ظهر رجل مغربى اسمه الشيخ محمد اجتمع حوله نفر كبير من العربان والفلاحين والمغاربة ، فتوجهت اليه قوة فرنسية اشتبكت معه وتمكنت من القبض عليه وشنقته (٣) .

---

(١) المرجع السابق ص ٣٣ .

(٢) عبد الرحمن الرافعى : مصر المجاهدة فى العصر الحـديث الحلقة الأولى ١٧٩٨ — ١٨٠٥ — القاهرة ١٩٥٨ ص٩ — ص٢٠

(٣) نقولا الترك : ص ٣٣

واستمرت المقاومة فى مدن البحيرة وقراها وخاصة تلك التى تطل على النيل ، فقد كان الفرنسيون يسيرون سفنا فى النيل تقوم بتوصيل البريد الى المدن ، فكان الفلاحون يهاجمونها ويجرونها الى جرف النيل ويخرج عليها الفلاحون والعربان فيقتلون من فيها (١) .

واتبع الفرنسيون اسلوب البطش فى مقاومة هذه الثورات ، قبضوا على عدد من الشيوخ والاعيان بتهمة تحريض الاهالى على المقاومة ، وأحرقوا قرية القطا فى محافظة الجيزة ذلك لان أهلها ثاروا أيضا فى وجه الكتيبة التى أرسلها بونابرت الى هذه الجهة .

واذاء هذه المقاومة وهذا التصرف من جانب المصريين قام بونابرت وعهد الى جماعة من الاروام قبلوا التعاون مع الفرنسيين ، بحراسة مراكبهم فى النيل ، كما قاموا بتسيير دوريات حربية فى فروع النيل لحراسة مراكب البريد والتجارة ، وجعل لهذه الدوريات قواعد فى موانى مصر القديمة وبولاق ورشيد ودمياط وبعض مدن الوجه القبلى (٢) .

وفى المنوفية ، وكان بونابرت قد أمر باعدام خمسة من الاهالى فى كل قرية تثور فى وجه الفرنسيين وأمر أن تقدم كل قريه جوادين من خير الجياد وأن تفرض على كل قرية تعصى الامر الف ريال غرامة . ثارت القرى ورفضت هذه الاوامر وخاصة فى قريتى غمرين ونتا وحمل أهلها السلاح ، وأغلقوا الابواب فى وجه الكتائب الفرنسية ، فما كان من حاكم المنوفية يعاونه حاكم الغربية الا أن جرد الحملات على هذه القرى التى عمت فيها ثورات الرجال والنساء معا ، وقتلت هذه الكتائب نحو ٤٠٠ شخص من الأهالى .

وفى المحلة الكبرى وفى سمنود وفى طنطا ثار الاهالى ورفضوا دفع الغرامات التى فرضت عليهم ، فأرسل حاكم الغربية كتيبة للقبض على زعماء الثورة فى طنطا ، ولاخضاع الثوار فى قرى ومدن الغربية ، وأمر حاكم المدينة سليم الشوربجى بأن يقدم له أربعة من الزعماء ليكونوا رهينة لديه فجاءه

---

(١) المرجع السابق ص ٢٧
(٢) مصر المجاهدة ص ٥٢ — ص ٥٦

بأربعة من أئمة مسجد السيد أحمد البدوى ، ورفض كبار الشيوخ الامتثال للاوامر بالحضور ورفضوا التعهد بالتزام الهدوء ، وفى ٧ أكتوبر وكان مولد السيد البدوى قائما ، هاجم الاهالى كتيبة فرنسية يعاونهم سكان القرى المجاورة ، كما هاجموا السفن التى حملت الرهائن الى القاهرة ، ولكنهم لم يتمكنوا من انقاذهم ، وفشل هذا الحاكم فى القضاء على هذه الثورة ، فطلب من بونابرت قوة أكبر ، فرأى بونابرت ان يلتزم جانب الحكمة والتعقل حتى لايثير ثائرة مدينة كبيرة كطنطا لها قداسة ومركز دينى خاص (١) .

وفى المنصورة هاجمت جماعات من الثوار فى العاشر من أغسطس سنة ١٧٩٨ معسكر الحامية الفرنسية واشعلوا فيه النار ، وهرب الجند وأسرعوا نحو السفن يلوذون بالفرار ولكن الاهالى تكاثروا عليهم فاتخذ هؤلاء الفارين طريق دمياط فأخذ الاهالى عليهم الطريق وقضوا عليهم .

وكانت ثورة المنصورة هذه سببا فى شدة الهياج وروح المقاومة فى البلدان المجاورة ، وكان القائد الفرنسى دوجا قد جاء الى المنصورة يبحث عن زعماء الثورة وعلم أنهما الامير مصطفى ورجل يدعى على العديسى تمكنا من الفرار ، ففرض بونابرت ثلاثة آلاف ريال غرامة على أعيان المنصورة ، فرفض الأهالى دفعها ، وقاوموا المحصلين .

وفى جهات المنزلة تزعم حسن طوبار شيخ البلدة ثورة ضد الفرنسيين وأخذ يقاوم قوات الجنرال دوجا ، وقامت مراكب الصيادين تقاوم السفن الفرنسية التى جاءت الى الجمالية مما اضطر القائد الفرنسى الى الانسحاب بعد معركة استمر فيها القتال اربع ساعات وبعد أن أضرم النار فى المدينة فقضى عليهـــا .

ولما ذهب دوجا لاخماد الثورة فى دمياط فى ١٦ سبتمبر قابله أسطول الصيادين القادم من المنزلة بقيادة حسن طوبار ، الا أن الاسطول أرتد الى البحيرة ثم تحصن فى قرية الشعراء جنوبى دمياط ، ووصل اليه المدد

---

(١) المرجع السابق ص٧٥ — ص٦٢

من المنزلة ، كما ثارت أيضا الاهالى والصيادين فى عزبة البرج ، ولما كان الجنرال دوجا يقود قوة كبيرة تحمل السلاح والذخيرة فقد أضطر كثير من سكان وثوار عزبة البرج الى الفرار نحو الشام ، وقام الاهالى فى الشعراء بترك المدينة حتى اذا جاءها دوجا للاستيلاء عليها وجدها خالية من سكانها فاحرقها .

وعلى الرغم من القسوة والبطش التى اتبعها الفرنسيون فان حسن طوبار ظل يخلق المصاعب فى وجه الفرنسيين ، فقاموا يهاجمون دمياط والمنزلة والمطرية بقوات كبيرة واستولوا عليها وهاجر حسن طوبار الى غزة (١) .

ولما وجد بونابرت اشتداد المقاومة فى الاسكندرية وفى القاهرة وفى المدن قام بتحصين هذه الجهات .

فعهد الى أحد رؤساء الفرق الهندسية وهو كريتين Cretin بتحصين ثغر الاسكندرية وفى مدن الوجه القبلى أقام الفرنسيون القلاع الحصينة فى قنا والقصير وأسيوط وبنى سويف والمنيا وأرسلوا لها المدافع والاسلحة (٣)

أما فى القاهرة فقد أسند بونابرت الى المهندس كفارللى وكان أعرجا استعاض عن رجله المقطوعة بأخرى من الخشب فعرف (بأبى خشبة) ، أمر بتحصين القاهرة وبناء القلاع والاسوار حولها وخاصة بعد ثورة القاهرة الأولى .

وقام هذا المهندس باقامة قلعة الغريب ، وقلعة فوق كوم العقارب فى القاهرة ، وقلعة فى مسجد الظاهر بيبرس خارج باب النصر ، وقلعة فوق كوم قنطرة الليمون خارج الازبكية ، وقلعة فوق الكوم بجانب الرضوانية خارج الأزبكية .

---

(١) نقولا الترك ص ٢١ — ص ٢٦

(٢) فتح مصر الحديث ص ١٠٤ .

(٣) مذكرات نقولا الترك ص ٣٣

ذلك لان بونابرت راى أن يحتاط لما عسى أن يحدث من ثورات أخرى ، والى هذه القلاع ارسلت المدافع والاسلحة المختلفة (٤) .

(ثورة القاهرة الاولى ٢١ اكتوبر سنة ١٧٩٨م)

ان ثورة القاهرة الاولى ضد الفرنسيين أسبابها عديدة وهذه الاسباب ترجع فى المقام الاول الى كراهة المصريين للحكم الفرنسى فهو يمثل احتلالا اجنبيا لبلادهم ولم تفلح تحليلات بونابرت على الشعب وتقربه منه فى القضاء على ذلك الكره ثم أن سلوك بونابرت كان متناقضا فمع أنه تحبب الى الشعب المصرى وتظاهر بحبه للاسلام وشارك فى الاعياد والمناسبات وتحبب الى العلماء وأنشأ الديوان من علماء الازهر الا أنه من ناحية أخرى لم يقبض على ناصية جنوده الذين نهبوا الثروات والقرى واعتدوا على الحرمات وعلى بيوت الناس ثم هو أخذ ينعى على المماليك سفههم وظلمهم واخذ ينعى عليهم ضرائبهم العالية ومع ذلك فرض هو ضرائب عجز المصريون عن الوفاء بها . فقد فرض على سكان القاهرة ضريبة عالية فى شكل سلفة اجبارية قدرها مائة الف جنيه وعلى الرغم من معارضة الديوان وتوسطه فى تخفيضها فان بونابرت لم يقبل ، كما فرض على تجار الاسكندرية ٣٠٠ الف فرنك وعلى تجار رشيد ١٠٠ الف فرنك وعلى تجار دمياط ٥٠ الف فرنك وعلى تجار المنسوجات فى القاهرة ٦٠ الف ريال نقدا ، ٤٠ الف ريال ملابس واحذية للجنود وعلى تجار البن والبهار فى القاهرة ٢٠٠ الف ريال وعلى الاقباط الذين يتولون تحصيل الضرائب من الاقاليم ١٠٠ الف ريال وعلى تجار خان الخليلى ١٠ آلاف ريال وعلى وكالات الصابون ١٠ آلاف ريال وعلى وكالات الفاكهة ٦ آلاف ريال والسائقين ١٥ الف ريال وعلى تجار السكر ١٠ آلاف ريال وعلى تجار الاقمشة فى الغورية ١٥ الف ريال ، كما أن بونابرت أجبر نساء المماليك على افتداء انفسهن بالمال ، كما قطع رواتب الاوقاف عن مستحقيها ، واستولى الفرنسيون على بعض المبانى بحجة حاجتهم اليها ، كما هدموا ابواب الحارات وبعض المساجد والمحال لتجميل القاهرة كما كانت سياستهم فى تسجيل العقود والمواليد والوفيات وفرض الرسوم نظير ذلك سببا فى زيادة غضب المصريين لانهم لم يكونوا معتادين على هذه العادات .

---

(٤) المرجع السابق ص ٣٠

وكذلك صدرت أوامر بونابرت بالزام كل صاحب عمل أو مهنة أن يكون لديه ترخيص يجيز له القيام بعمله من ادارة التسجيلات ، وعلى أن يجدد هذا الترخيص سنويا ، كذلك حددت الضرائب التى تحصل على المبانى والوكالات والحمامات ومعاصر الزيوت وطواحين الغلال والمقاهى والمنازل وتدرجت هذه الضرائب ما بين نصف ريال ، و ١٨ ريال .

كذلك كان بونابرت قد أمر فى ١٠ سبتمبر سنة ١٧٩٨ بانشاء محكمة تجارية فى كل من القاهرة والاسكندرية ورشيد ودمياط على أن يكون أعضاؤها من تجار المكان ويقومون بهذه الوظائف دون مقابل ، وهؤلاء يعينهم بونابرت بعد تزكية مدير الشئون المالية .

وفى ١٦ سبتمبر ١٧٩٨ صدر أمره بانشاء مكتب التسجيل فى كل مديرية ليحصل رسوما معينة فى كل عملية تسجيل .

من هذا نرى أن بونابرت أخذ يشدد ويدقق فى عملية جمع الضرائب المباشرة على الاطيان والضرائب الغير مباشرة عن طريق التسجيل والتقاضى ، وزيادة الضرائب الغير مباشرة على الاماكن العامة بالاضافة الى فرض المغارم على التجـــار .

وكان لهذه السياسة المالية أثره ، فهى السبب الاول والمباشر لقيام ثورة عارمه فى القاهرة . فاذا أضفنا الى هذه الأوامر الفرنسية المتعددة التى قضت على الحريات الشخصية والتى كانت تقضى بأن يلبس كل مصرى شارة الثورة الفرنسية ، وأن يطلق صاحب كل منزل فانوسا على بابه ، واذا أضفنا كذلك أن عملاء الدولة العثمانية أخذوا يبثون الدعايات التى تقول أن العثمانيين قادمون لطرد الفرنسيين مما شجع المصريين على الثورة ، أدركنا لماذا ثارت القاهرة هذه الثورة الكبيرة (١) .

يضاف الى كل هذا ممارسة الفرنسيين لبعض العادات مثل اقـــامة

---

(١) د. محمد فؤاد شكرى : عبد الله جاك منو ــ القاهرة ١٩٥٢ ، ص ١٠٦ ــ ص ١٠٨

الحفلات والرقص وشرب الخمر وهذه الافعال لم تكن تتفق مع تقاليد وعادات المصريين ومع دينهم .

ويحكى لنا الجبرتى أن المصريين قد شكلوا لجنة للثورة تديرها وتنشر دعوتها وتنظم صفوفها واسندت رئاستها الى الشيخ محمد الانور السادات، وكان نابليون يشك فيه وأنه رئيسا للثورة ولكنه لم يرد القضاء عليه نظرا لمنزلته الكبيرة فى نفوس الناس واجتمعت قيادة الثورة فى ليلة الاحد ٢١ اكتوبر سنة ١٧٩٨ لرسم خطة الثورة وكان أعضاء اللجنة ثلاثين عضوا واتفقوا على بدء الثورة فى اليوم التالى .

أما حوادث الثورة فقد بدأت باقفال الحوانيت ودعوة التجار والصناع للذهاب الى مركز القيادة لرفع أصواتهم احتجاجا على الضرائب الجديدة وفى يوم ٢١ اكتوبر كانت القاهرة فى حالة هياج عظيم وخطب العلماء فى جموع الناس وحمل الناس العصى والاسلحة وبدأت تصل الوفود من القرى المجاورة وذهب الناس الى بيت القاضى التركى ابراهيم واجبروه على السير معهم الى بونابرت لمطالبته بالغاء الضرائب ولما رأى القاضى خطورة التجمهر ورغب فى العودة ضربه الناس ثم أن حاكم القاهرة ديبوى Dupuy خرج ومعه قله من الجند وياوره الخاص السير بودون وسار الى بيت القاضى ليتعرف حقيقة الامر ولما قابل المتظاهرين وحاول مهاجمتهم ضربوه بالحجارة والرماح وقتلوه وذاع خبر مقتله فقوى عزم الثوار واستولوا على جهات باب الفتوح وباب النصر وباب زويلة وباب الشعرية واقاموا المتاريس فى الشوارع والحارات وخرج الجنود الفرنسيون يطلقون النار على المتظاهرين وطفقت جموع الناس تحتشد فى جهة الازهر وبداخله وحوله ، وبلغ عددهم أكثر من ٥٠ الفا ، وعاد بونابرت على عجل عندما علم بخبر خطورة الحال وكان يتفقد استحكامات مصر القديمة والروضة ولما تاكد من خطورة الثورة أمر بنصب المدافع على المقطم وعلى القلعة ونظم قيادة لجنوده فى الازبكية واقام مخفرا لهم لمرافقة الجماعات المجاورة وسير الطلائع المسلحة لاكتشاف جهات القاهرة ووضع المدافع فى الشوارع الهامة ، واستغل مجىء الليل فى نصب مدافعه على سطح المقطم كما استغله المصريون فى الذهاب الى القرى يستصرخون الناس على الثورة فجاء ثوار من قليوب على راسهم سليمان

الشواربى شيخ قليوب كما جاء ثوار من مختلف الضواحى ولكن الجنود الفرنسيين وزعوا قواتهم للحيلولة دون انحياز سكان الضواحى لثوار القاهرة ، وحاصر بونابرت الثورة فى القاهرة وعزلها عن البلاد الاخرى المجـــاورة .

ومن ظهر اليوم التالى ١٠/٢٩ وحتى الساعة الثامنة مساء استمر الفرنسيون يضربون الازهر والحى المجاور له بالمدافع فقتلوا الكثير من الناس وأوشكوا على هدم الجامع الازهر وانهالت القنابل على الجهات المجاورة كالصنادقية والغورية والنحاسين فألقت الرعب فى قلوب الناس ، واحتل الفرنسيون الشوارع الموصلة الى الازهر فحصر الناس بين نارين ، وهكذا لم ينفع الحماس أمام قوة الحديد والنار وذهب الناس يطلبون من بونابرت العفو .

وقدرت الخسائر لدى الفرنسيين بنحو ٢٠٠ قتيل منهم الجنرال ديبوى والكولونيل سلكوسكى وبعض الضباط والمهندسين وقدرت خسائر المصريين بنحو اربعة آلاف شهيدا . وهكذا قضت هذه الدماء التى سالت أنهارا فى شوارع القاهرة على كل آمال بونابرت فى اكتساب قلوب المصريين ونزلت الجنود الفرنسية الى الازهر ورابطت فيه ونهبت الكثير من البيوت بحجة التفتيش عن السلاح حتى اضطر سكان تلك الجهات الى الرحيل بعيدا والنجاة بأنفسهم ، وبدأ الفرنسيون سلسلة من الانتقام الرهيب وأعدموا ثمانية من لجان الثورة بعد سجنهم بالقلعة وقتلوا كثيرامن النساء والقوا بجثثهن فى زكائب فى النيل وحاكم بونابرت خمسة من علماء الازهر وسجنهم فى القلعة ، وفى اليوم الرابع ذهب وفد من العلماء الى بونابرت يطلب العفو فأخذ يعدهم دون أن يجيبهم وطلبوا اخراج الجند من الازهر فأجابهم الى ذلك وأبقى سبعين جنديا فى منطقة الازهر للمحافظة على النظام واستولى الفرنسيون على المساكن حول الازبكية ليقيموا فيها لانهم لم يعودوا يأمنون على أزواجهم وأصدر بونابرت أمرا بحظر اصلاح السلاح عند المواطنين (١) .

---

(١) الجبرتى : مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيين . الجزء الأول . تحقيق أحمد زكى عطية وآخرون . القاهرة ١٩٦١ ص ١٢٥ — ص ١٣٧ .

وكانت ثورة القاهرة هذه سببا فى انتزاع الثقة التى كانت قائمة بين الجنود والاهالى وباعدت الى الإبد بين مصر والجيش الفرنسى ، ولم يستطع الجنود الفرنسيون أن يسيروا فى الشوارع بغير سلاح ونفروا من المصريين وعاملوهم بقسوة وشرعوا فى احصاء الاملاك والمطالبة بالضرائب ، وساد الارهاب جو المدينة وأبطل بونابرت عقد الديوان وانصرف الى تحسين القاهرة فأقام القلاع على التلال المحيطة بها ونصب عليها المدافع وهدم الكثير من الاماكن بالجيزة ومصر القديمة وشبرا وبلغ ما أقامه من القلاع تسعة عشر قلعة .

وبعد ثورة القاهرة ، أصدر بونابرت منشورا على لسان العلماء وزعه على الشوارع امتن فيه على أهالى القاهرة بالعفو وأخذ يحذر الناس من الفتنة وتكرار الثورة (١) .

ولكن الدولة العثمانية لم تغفل ايغال صدور المصريين على بونابرت والفرنسيين فانها أصدرت المنشور تلو الاخر تحث المصريين على الثورة وتذكرهم بأن الفرنسيين (كفار) يسخرون من جميع الاديان وينكرون البعث والنشور ، وأن من مبادئهم ايقاع الفتن وبذر بذور الخلاف بين الشعوب والامم ولذا فيجب على (المسلمين) أن يكونوا على حذر منهم ولايرهبون كثرتهم وينقون فى نصر الله ، ويوعدونهم بأن القوات العثمانية ستشد أزرهم .

ويدل أسلوب المنشورات وما فيها من طعن فى مبادىء الثورة الفرنسية على أنها كتبت بتحريض من بريطانيا (٢) .

واستمر بونابرت كذلك فى تحذير الناس على لسان العلماء من مؤامرات المماليك ، وبأنهم يحاولون الايقاع بالشعب المصرى ، فهم أعداء (لمولانا السلطان) وأنهم (اغتاظوا غيظا شديدا من علماء مصر ورعاياهم حيث لم

---

(١) نص منشور بونابرت بالصفح عن أهالى القاهرة : فتح مصر الحديث ص ٢٦٥ — ص ٢٦٦ .

(٢) منشور الدولة العثمانية الى الشعب المصرى . المرجع السابق ص ٢٦٧ — ٢٦٩ .

يوافقوهم على الخروج معهم ..) ويقول لهم أنهم حين يطيعون المماليك فانما يهلكون أنفسهم ، ويدعوهم لدفع الخراج المطلوب ويطمئنهم على انفســـــهم (١) .

وكان بونابرت قد اصبح يخشى هذه المقاومة العنيفة ، ويرى أن الشعب المصرى يرفض وجود الفرنسيين ولايثق فى سياسة التودد التى اتبعها ، فأخذ يستخدم اسلوب النصائح ، وارغام العلماء ، ومن قبل التعاون مع الفرنسيين ، فى تحذير المصريين من الفتنة واشعال الثورات .

الحملة الفرنسية على الشام

بدأ العثمانيون والانجليز يعملون لاخراج الفرنسيين من مصر وقررت الحكومة العثمانية ارسال جيش لاخراج بونابرت من مصر أحدهما يأتى من الشرق من الشام والآخر يأتى من الشمال وتحمله السفن الانجليزية العثمانية وتهبط به شمال الدلتا ، وعلم بونابرت بذلك فقرر القيام بحملته على سورية قبل أن يتمكن الجيش العثمانى من الاغارة على مصر وقاد بنفسه هذا الجيش وتعددت الاراء حول غايته من هذه الحملة ، وبعض المؤرخين يغالى فيها لدرجة أن بعضهم يقول أنه اراد التوغل فى آسيا والوصول الى الهند وبعضهم ذكر أنه أراد أن يتجه الى آسيا الصغرى ومنها الى القسطنطينية وبعدها يتوغل فى أوربا حتى يصل الى باريس وطبعا لا يعقل هذا لأن عدد الجيش الذى صاحب بونابرت كان عشرة آلاف وهو لايكفى لفتح هذه البلاد وضمان حكم الفرنسيين فيها . ثم أن هناك معلومات تفيد أن بونابرت كان عازما على الرجوع الى فرنسا فى الوقت المناسب وكان ينتظر تطور الاحداث فيها . ومن ثم فلا يمكن أن يقوم بفتوحات وهو فى نفس الوقت يعزم على العودة الى فرنسا . ولذلك فالاسباب الحقيقية لهذه الحملة تكمن فى أن بونابرت أراد الدفاع عن مصر ضد العثمانيين وتوطيد الحكم الفرنسى فيها لانه كما قلنا اتفقت الدول العثمانية مع الروسيا وانجلترا وتحالفوا على

---

(١) نصـــيحة من علماء المسلمين بمصر المحروسة . المرجع الســـابق ص ٢٧٢ ، ص ٢٧٣ .

ارسال قوات من الشام لغزو مصر فرأى بونابرت أن يقاوم هذه الجهود فيذهب الى الشام ويهزم قوات العثمانيين ويمنع تقدمهوم الى مصر ، وقد يستطيع ان يجبر الدولة العثمانية على ترك حلفائها ، كذلك كان الاسطول الانجليزى يحاصر شواطىء مصر وكانت السفن الحربية فى ذلك الوقت تحتاج الى الماء الصالح للشرب والمؤن اللازمة وتحتاج الى الموانى تحتمى بها من اشتداد الزوابع ولو أن بونابرت استولى على الشام وسقطت موانى حكا ويافا وحيفا فى يد الفرنسيين فانه يحرم الانجليز من هذه المرافق الهامة ، ويصبح حصار الانجليز لمصر صعبا . وكان لهذا الاعتبار أهمية كبيرة فى تقريره لحكومة الادارة فى ١٠ فبراير سنة ١٧٩٩ (منع الاسطول الانجليزى من التموين الذى يحصل عليه من سوريا وذلك بالاستفادة من الشهرين الباقيين من الشتاء حتى يمكن تحويل كل الشاطىء الى صديق لى بالحرب والمفاوضات)

وكان الجزار والى عكا قد تلقى رسائل السلطان العثمانى يطلب منه العمل ضد الفرنسيين فى مصر ، وقام الجزار من ناحيته بطرد القنصل الفرنسى من عكا ، وارسل قواته الى يافا وغزة والعريش (١) ، وكان السلطان العثمانى قد أسند اليه ولاية مصر بجانب عكا وصيدا ، ووعده بمساعدة برية وبحرية ليسير بها ويخلص مصر من الفرنسيين واخذ الجزار من ناحيته يراسل الفلاحين المصريين والعربان ويدعوهم للثورة ضد الفرنسيين (٢) .

وقبل أن يخرج بونابرت بحملته على سورية أصدر منشورا على لسان أعضاء الديوان فى ٢٨ يناير سنة ١٧٩٩ يعلن فيه أنه قد صفح عن سائر أهل مصر ، وأنه اعاد الديوان من ستين عضوا رغبة منه فى العناية بمصالح الأهالى ، وأنه أنزل العقوبة عمن ثبت انه خالف التعليمات من الفرنسيين رغبة فى منع المظالم ، ولذلك فعلى الرعية أن تشغل نفسها بأمر دينها وتترك الفتنة ، وتمتنع عن الشغب (٣) .

---

(١) نقولا الترك ص ٣٥ .

(٢) نفس المرجع ص ٢٧ .

(٣) نص المنشور ص ٢٩١ — ص ٢٩٢

وقد خرج بونابرت فى فبراير سنة ١٧٩٩ بعد أن عين الجنرال دوجا قائدا للقوات فى القاهرة أثناء غيابه ، وأخذ العهد على العلماء والاعيان بالطاعة ، وعين كليبر مقدما لحملة على الشام .

ووصل بونابرت العريش فى ٢٠ منه فاحتلها ، وبعد نزول قواته الى العريش اصدر رسالة تزلف فيها لأهالى سورية ويخبرهم أنه ماجاء الى سورية الا بغرض القضاء على المماليك وعساكر الجزار ، وليس لحرب الدولة العثمانية مع انها ارسلت الجيوش لحربه ، وذلك لأنه لايقصد التعدى كما أمر بذلك الاسلام (١) .

وكان بونابرت كلما استولى على احد المواقع أو انتصر فى احد المواقع يصدر المنشور تلو المنشور الى أهالى مصر بقصد ادخال الخوف فى قلوبهم بأن قواته تنتصر دائما فى حروبها (٢) .

وبعد أن هزم بونابرت الجيش الثانى العثمانى فى العريش واصل زحفه الى عكا مقر الحكم العثمانى احمد باشا الجزار فحاصرها وكانت مدينة محصنة له حاميتها وعددها أربعة آلاف وفى يافا بدأ يظهر الطاعون بين جنوده ، وهنا ارتكب بونابرت خطأ يحاسبه عليه التاريخ مر الحساب ، اذ انه قتل هذا العدد الكبير من الأسرى المغاربة والمماليك مخالفا بذلك كل القوانين والنظم المعروفة فى الامم المتمدينة ، وقد قتل هؤلاء الاسرى لانه ضاق بهم ذرعا ووجد انهم موضع مضايقة له فلو ارجعهم الى مصر لاحتاجوا الى قوة تحرسهم ولو أبقاهم لاحتاج الى قوة تحرسهم ولاحتاج لاطعامهم فى الوقت الذى يحتاج فيه هو الى الطعام ، واختصر الامر واطلق عليهم هو بنادقه فقتلهم جملة ثم تقدم الفرنسيون الى حيفا ولم يجدوا مقاومة جديدة وساروا بعدها الى يافا فحاصرها واستولى عليها فى ٧ مارس بعد معركة شديدة ثم سلمت وجعلها بونابرت هدفا لهجومه لأنها تفتح الطريق أمامه الى سورية وتقضى

---

(١) نص رسالته الى أهالى سورية . فتح مصر الحديث ص ٣٠٢ — ص ٣٠٣ — ص ٣٣٤ .

(٢) المصـــدر السابق .

على نفوذ الجزار فى تلك الجهات فبدأ حصاره لها يوم ١٩ مارس ١٧٩٩ لكنه فشل فى التغلب عليها وارتد عنها وكان ارتداده هذا هو أول هزيمة له فأثر هذا فى نفسه تأثيرا كبيرا وخشى عواقب ذلك فى مصر . وكان بونابرت كلما أحرز نصرا ارسل البشرى الى القاهرة وأرسل الاعلام التركية والمملوكية لتنصب على مساجد القاهرة والجامع الازهر (١) .

بينما كان بونابرت يحاصر عكا طلب مشايخ شفا عمر ، والقاهرة ، وعبلين واغلب المدن الشامية واعطاهم الامان واخذ عليهم عهدا بالطاعة ، وعين على بعض المدن حكاما فرنسيين .

ويرجع فشل بونابرت فى حصاره لعكا الى أن الفرنسيين استهانوا بعكا فى أول الأمر ، فحفروا عدة خنادق غير عميقة ولم يكن من الممكن الاحتماء بها من النيران ، كذلك كان موقع عكا حصينا فلم يتمكن الفرنسيون من الاحاطة بها من جميع الجهات فهى تقع على رأس جسر بارز فى البحر ولذلك فقد حوصرت من جانب واحد وهو الجانب البرى ، ولما حاولوا التقدم تعرضوا لهجوم السفن الراسية فى البحر ، كما لم يستطع بونابرت اتباع طريقة التجويع لأن المؤن كانت ترد الى المدينه بانتظام عن طريق سفن الاسطول الانجليزى ، ولما حاول الفرنسيون التغلب عليها بسرعة ودك أسوارها والدخول اليها عنوة فشـــــلوا .

وثالثا : أن الفرنسيين صحبوا معهم ادوات الحصار على تسع سفن فاستولى عليها السير سدنى سميث واستعملت ضد الفرنسيين وكانت هذه ضربة كبرى لبونابرت ..

ورابعا : ان سيدنى سميث أرسل الى الجزار مهندسا فرنسيا اشتهر فى بناء الاستحكامات الحربية وهو فيلييو **Phéllipeau** كان زميلا لبونابرت فى المدرسة الحربية ومن أشد منافسيه وهو من الاشراف الذين هاجروا من بلادهم وانضموا الى الحلفاء والى هذا المهندس يرجع الفضل فى استمرار

---

(١) نقولا الترك ص٣٩ ــ ص٤١

مقاومة عكا وقوة تحصينها ، وكانت نفس هذا المهندس ممتلئة حقدا على بونابرت وجيوش فرنسا الحديثة ، ومن تم كان الحصار قليل الجدوى وعندما طال الحصار أرادت تركيا أن تحصر القوة الفرنسية بين نارين وتضطرهم الى رفع الحصار عن عكا فأرسلت قوة بقيادة والى دمشق فأرسل بونابرت قوة قليلة العدد بقيادة كليبر لعلاقتها وكادت تلحق الهزيمة بكليبر فأسرع اليه بونابرت واحرز النصر فى تل طابور بالقرب من بحيرة طبرية . وحدث بعد انتصار بونابرت فى هذه المعركة أن دخل دير الرهبان الفرسيسكان وطلب من رئيس الدير أن يقيم الصلاه بصفة رسمية شكرا لله على انتصاره ودخل هو نفسه الكنيسة وجثى على ركبتيه وقت الصلاة (١) ، فلما علم سميث بمساعدة المسيحيين الفرنسيسكان له بعث اليهم بعدة منشورات من التى وزعها بونابرت على المصريين ومنها منشوره الاول الذى يقول فيه أن هدم أركان الدين المسيحى وشل عرش البابوية فدهش السوريون وامتنع اللبنانيون عن توريد الخمور والبارود والمساعدة له .

وبعد ان هزم بونابرت وكليبر القوات التى أرسلها العثمانيون لمحاربته ، حضر اليه عباس بن الشيخ ظاهر فعينه بونابرت أميرا على صفد ، ثم جاءه كذلك شيوخ المقاومة الذين كان قد نفاهم الجزار منذ ٢٢ سنة فى مناطق الجبال والبرارى فأكرمهم وعينهم حكاما على بلادهم ، فاستلموا صور وعكا وقلعة تبنين وهونين وقلاع المتاولة ، وأخذوا يمدون الفرنسيين بكل مايحتاجونه من مؤن .

كما طلب بونابرت مصطفى بشير من طرشيحا وطلب منه جميع الجند من الفلاحين والتوجه الى صفد وفتحها ، وسلمها له أهلها وطردوا عساكر الجزار منها .

ثم ارسل بعدها الجنرال جنو ومعه أولاد ظاهر العمر عباس وصالح فهزم قوات الجزار فى مكان يقال له أرض الشجرة ودخل طبرية بعد ذلك واستولى على مخزونها من الحبوب والمؤن (١) .

---

(١) نقولا الترك ص ٤٢ — ص ٤٤ .

وسادسا : انشار مرض الطاعون بين الجنود الفرنسيين .

ولما وجد بونابرت ذلك قرر رفع الحصار والعودة الى مصر . وقد لاقى وحملته مصاعب جمة اثناء رجوعهم الى مصر عن طريق الصحراء بسبب تفشى الطاعون وشدة الحرارة وفى أثناء عودته حصلت مسألة تسميم الجرحى فقد طلب بونابرت من كبير أطباء الجيش تسميم الجرحى الميئوس من شفائهم، ولكنه رفض القيام بهذه المهمة وقال أن مهمته هى انقاذ الجرحى وقبل أحد صيادلة الجيش القيام بهذا العمل بأن أعطاهم مخدرا . وترتب على ذلك أن حقد الجيش الفرنسى على هذا الصيدلى ولم يتمكن من العودة الى فرنسا وظل طول حياته فى مصر حتى جلاء الفرنسيين عنها ولكن هؤلاء الجرحى لم يموتوا رغم اخذهم هذا المخدر وكانت النتيجة النهائية لحملة الشام انها نجحت فى تحقيق الاغراض التى من أجلها قامت ما عدا مسألة حرمان الانجليز من الشواطىء الشامية ، ولكن الفرنسيين نجحوا فى افساد تدابير العثمانيين وتعطيل هجومهم على مصر . (١) .

(موقعة ابو قير البحرية)

وبعد عودة بونابرت من الشام شرع فى تنظيم البلاد واصلاح حالها لان حالتها كانت قد ساءت لاضطراب الامن ونشوب الفتن المختلفة فى الاقاليم ولكن حدث فى ذلك الوقت أن اغارت القوات البحرية التركية على مصر سنة ١٧٩٩ أما الحملة البرية من الشرق فقد تعطلت بسبب حملة بونابرت على الشام ، وكان الهجوم البحرى بالاتفاق والتعاون مع انجلترا ونزل الجيش التركى فى ساحل أبى قير شرق الاسكندرية تحت حراسة الاسطول الانجليزى الذى كان يرأسه سدنى سميث ، وكان يقود هذه الحملة مصطفى باشا ، وبدلا من تقدم هذا الجيش نحو الدلتا عسكر فى ابو قير بحجة حاجة الجنود الى الراحة من السفر ، أما بونابرت فجريا على خطته ابتدأ فى جمع الفرق الفرنسية المتفرقة فى كافة جهات القطر فى نقطة واحدة . وبدأ زحفه ووجد أن مصطفى باشا قد استولى على قلعة أبو قير وتحصن بها فأخذ بونابرت

---

(١) المرجع السابق ص ٤٤ ــ ص ٤٦

يهاجمه بعد أن نظم جيشه وتدخل الاسطول الانجليزى فى المعركة واخذت كفة الترك ترجح فى البداية ولكن بونابرت سرعان مانظم صفوفه واحرز النصر ووقع مصطفى باشا اسيرا فى هذه الموقعة (موقعة أبو قير البرية) فى اغسطس سنة ١٧٩٩ أما انتصار الفرنسيين فيرجع الى سوء تصرف الترك لان قائدهم وعد بمكافأة مالية لمن يأتى أو يحضر رأس فرنسى فانهمك الجنود العثمانيون فى قطع رؤوس الفرنسيين القتلى واختلت صفوفهم وانتهز الفرنسيون الفرصة وأحرزوا النصر ثم دخلوا على القائد التركى فى خيمته وبذلك استطاع بونابرت بحسن تدبيره أن يفسد تدبير الترك فى حملتهم على الشام من جهة وعلى مصر من جهة أخرى .

حكومة الادارة والحملة الفرنسية

وقفت حكومة الادارة فى فرنسا من حملتها على مصر موقفا سلبيا ، اذ عندما توقع كل الذين ساهموا فى قيامها وعلى رأسهم تاليران ، ان الحملة على وشك الفشل ، أخذوا يتنصلون من مسئوليتها ، وبدأوا يبعدون عن الزج بأنفسهم فى اى عمل يتعلق بها وبمصيرها ، ومع هذا فقد اخذت حكومة الادارة تحاول مساعدة الحملة حربيا ودبلوماسيا ، صحيح أنها لم ترسل الحملة الثانية التى كان من المتفق ارسالها فى عقب الحملة الاولى ، وذلك بسبب سيطره الاسطول البريطانى على البحر المتوسط ، وصحيح أنها لم تتخذ اية خطوة ايجابية فى التفاوض مع الدولة العثمانية كما كان مقررا ، وكما كان مقررا من ارسال تاليران نفسه للتفاوض ، وذلك اما خوفا من الوقوع اسيرا فى ايدى الاسطول البريطانى ، واما حرصا على بقائه فى باريس لمواجهة الموقف فى فرنسا بعد سفر بونابرت ، وقد أرسلت حكومة الادارة الى بونابرت تخبره بذلك ، وتترك له الامر ليتصرف هو بنفسه ، ولكنها من ناحية أخرى حاولت اعادة السيطرة الفرنسية فى البحر المتوسط قبل دخول نلسن اليه ، آملة الاتفاق والتعاون مع الاسطول الاسبانى ، وآملة أن تجد المعاونة والتعاون من الجزائر وتونس ، ولكن السفير الفرنسى فى مدريد فشل فى مهمته ، وتغير موقف الحكومتين التونسية والجزائرية ، وكانتا تحت الاشراف العثمانى الغير مباشر . عندما فتحت فرنسا مصر ، فقد خشيت تونس من تدهور علاقتها التجارية مع مصر واصدر الباى والداى

اوامرهما فى القبض على الرعايا الفرنسيين فى البلدين ، وبدات القراصنة تهاجم المراكب الفرنسية فى البحر المتوسط ، وأدى هذا الى زيادة المتاعب فى هذه المنطقة ، وعبثا حاولت تبديد مخاوف باى تونس وداى الجزائر (١) .

ومع كل الذى حدث فانه فى ١٩ ديسمبر سنة ١٧٩٨ صدرت الاوامر بضرورة اصلاح الاسطول الفرنسى فى الموانى جميعها لتكون قادرة على تطهير البحر المتوسط من المراكب البريطانية ومن مراكب الأعداء بصفة عامة، مع التجنب فى نفس الوقت الدخول فى صدام مباشر مع الاسطول البريطانى فى معركة قد تكون خاسرة .

ولما وصلت رسائل بونابرت عن حملة سورية الى حكومة الادارة ، بدأت الاخبار عن سوء حالة جيش الشرق تتلاشى ، وكانت هذه الاخبار قد ملأت الاسماع فى أوربا ، واخذت فكرة ارسال اسطول الى البحر المتوسط تأخذ بصفة غير جدية ، خاصة وأن كورفو استسلمت لقوات تركية روسية ، كما ساءت حالة الجيش الفرنسى فى ايطاليا وتوالت هزائمه ، فقد جعل ذلك حكومة الادارة تفكر فى استدعاء جيش الشرق كله أو بعضه ، وكتبت الى بونابرت فى ٢٦ مايو ، وتركت له أمر تعيين خليفة له فى حالة عودته الى فرنسا (٢) .

وبدأ تاليران يلجأ الى الوسائل الدبلوماسية لاعادة جيش الشرق ، وفكر فى التفاوض مع الباب العالى عن طريق ممثل بروسيا ، ولكن هذه المحاولة فشلت ، كما فشلت محاولة قام بها ممثل اسبانيا ، مع كل فلم ييأس تاليران ، وقدم مشروعا يقضى بالدخول فى هذه المفاوضات على أن يقدم بونابرت ، تطمينا للدول ، تأكيدا بألا يدخل جيش الشرق ميدان الحرب فى أوربا بعد وصوله الى فرنسا ، ثم استقال تاليران فى ٢٠ يونية وخلفه رينارت الذى تبنى هذا المشروع .

---

(١) د. محمد فؤاد شكرى : عبد الله جاك منو ص ١١٧ — ص ١٢١

(٢) بونابرت فى مصر ص ٤٤١ — ص ٤٤٢

ووصلت اخبار معركة أبو قير البرية وانتصار بونابرت الساحق فيها ، فتخلت فرنسا عن هذه الفكرة ، فان هذا الانتصار جعل الجيش الفرنسي في مصر في مركز قوى ، يجعل بونابرت نفسه يستطيع القيام بالمفاوضة ، وبدأت حكومة الادارة تفكر في الكتابة اليه بهذا الخصوص (١) ، ثم وصل بونابرت نفســـه فجأة الى فرنســـا .

اذ بينما كان بونابرت يتفاوض مع سيدنى سميث ليتبادل الاسرى ، ارسل له سميث مجموعة من الصحف الاوربية التى كانت تفيض بأنباء الهزائم التى لحقت بفرنسا وفقدانها للاراضى التى فتحتها ، ويقول البعض أن سدنى سميث كان يريد بذلك اخراج بونابرت من مصر ، لانه عندما يعلم بحالة فرنسا فانه سيعود اليها ، ويستطيع سميث بذلك أن يقبض عليه فى عرض البحر ، ولكن هذا الكلام مشكوك فيه فسميث خياله أوسع من هذا ، وانما هى مجاملة القواد لبعضهم حتى فى حالة الحرب . وكانت أهم مجاملة يؤديها القائد البريطانى للقائد الفرنسى هى اطلاعه على أخبار بلاده المقطوعة عنه .

ولما اطلع بونابرت على هذه الأخبار عزم على ترك مصر بالعودة الى فرنسا لاتمام أهدافه الأصلية وهى الاستيلاء على السلطة فى فرنسا . وبالفعل دبر هذا الخروج ولم يخبر أحدا حتى الأشخاص الذين اختارهم للعودة معه . وقد غافل الانجليز وتمكن من الخروج من الاسكندرية والوصول الى فرنسا ، وعقب وصوله استطاع الاتصال بالافراد الناقمين على حكومة الادارة ، وتمكن من اسقاط حكومة الادارة واقامة النظام القنصلى بعد القيام بانقلاب بروميير سنة ١٧٩٩ وأصبح هو أحد ثلاثة قناصل يتولون السلطة وكان هو القنصـــل الأول .

كليبر والحملة الفرنسية فى مصر

ترك بونابرت قيادة الحملة الى كليبر ، وذلك لكفاءته ، وان كان كل منهما يكره الاخر وترك بونابرت له تعليمات تقضى بضرورة الاحتفاظ بمصر ما امكن ، وسمح له بالدخول فى مفاوضات مع الدولة العثمانية لاعادة مصر

(١) المرجع السابق ص ٤٥١ — ٤٥٢

اليها لو استمر المرض منتشرا بين الجنود ولو استمرت فرنسا عاجزة عن انقاذ الحملة ومساعدتها ، ولكن اذا أدى الامر الى الانسحاب فيجب على كليبر الا ينفذ ذلك الا بعد عودة السلام الى أوربا (١) .

وكان بونابرت قبل خروجه قد كتب رسالة الى الصدر الاعظم يقول له أن فرنسا ليست عدوة لجناب السلطان ، وانما العدو الحقيقى هو روسيا ، وهو فرسان القديس يوحنا ، وأن فرنسا لم ترد هذه الحرب مع الدولة العثمانية ، والجيش الفرنسى عموما جيش قوى ، وفرنسا بعد ذلك تود أن توقف تركيا هذه الاستعدادات التى تلجأ اليها مع انجلترا لمواصلة الحرب ضد فرنسا ، كما تود أن يعود السلام والصفاء بين فرنسا والدولةالعثمانية(٢)

ومع التعليمات التى تركها بونابرت الى كليبر ، ترك اربع مذكرات :

١ ــ الاولى : عن (الادارة الداخلية) وينصحه فيها باستمالة العلماء ، ويتحدث فيها أيضا عن مكانة القاهرة فى العالم الاسلامى ، وعن ضرورة المضى قدما فى محاولة اقناع المصريين بأن الفرنسيين يحبون القرآن الكريم ، ويخدمون الرسول ، واوصاه باستخدام القبط فى جمع الضرائب والقيام بالاعباء المالية ، مع تعويد المصريين على الخدمة العسكرية .

٢ ــ الثانية عن (التحصينات) وفيها أشار على كليبر بتحصين العريش والقطية والصالحية ووادى الطميلات والاسكندرية وابو قير ودمياط .

٣ ــ والثالثة عن (الدفاع عن مصر) ويذكر له فيها أن مصر تغزى من طريق غزة وبرزخ السويس ومن الشاطىء الشمالى ، ومن الشرق والشمال معا ووضع له خططا مفصلة لمواجهة كل غزو محتمل .

٤ ــ والرابعة عن : (الشئون السياسية) وهى مذكرة هامة رسم

---

(١) نص رسالة بونابرت الى كليبر : فتح مصر الحديث ص ٤٠٧ ــ ٤١١

(٢) رسالة بونابرت الى الصدر الأعظم فى ١٧ أغسطس سنة ١٧٩٨ فتح مصر الحديث ص ٤٠٠ ــ ٤٠٣

فيها خطوط السياسة الفرنسية فى أفريقية والتى هدفت الى اتخاذ مصر قاعدة يعمل فيها الفرنسيون للتوغل فى قلب القارة (١).

كما كتب بونابرت الى أعضاء الديوان يخبرهم باضطراره للسفر ، وبأنه ترك القيادة لكليبر ، وبأنه أوصاه بالعلماء خيرا ، وليس عليهم حينئذ الا التعاون معه (٢) .

وكتب بونابرت الى الجنرال دوجا يخبره ، بأنه سيسافر الى فرنسا ، وبأن بعض السفن الفرنسية ستصل فى الشتاء القادم ، ويمكن العودة على ظهرها لتولى عمله فى القسم التشريعى (٣) .

ولم ينس بونابرت أن يترك رسالة لبوسييلج ، وهو الرجل الذى كان يتولى الاشراف على ديوان الروزنامة . يخبره بسفره ، واختياره كليبر خلفا له ، ويخبره بأنه سيطلع حكومة الادارة على ماأداه بوسييلج الحافلة من خدمات تقديرا له ولجهده (٤) :

وكان بوسييلج من أشد الناقمين على بونابرت بسبب عدم اصطحابه معه فى رحلته الى فرنسا ، وهو الرجل الذى كان يعتقد أن بونابرت لايستغنى عنه ، فقد كان رجل علم وجد يفهم جيدا كل أمور مصر . ويبدو أن بونابرت أراد أن يعين به كليبر ، فكليبر رجل كان لايعرف عن دقائق الادارة وتفاصيلها الا النزر اليسير (١) .

---

(١) عبد الله جاك منو ص١٤٢ — ص١٤٥ .

(٢) نص خطاب بونابرت الى اعضاء الديوان فى ٢٢ اغسطس ١٧٩٨ فتح مصر الحديث ص٤١٣ .

(٣) من القائد العام بونابرت الى الجنرال دوجا . الاسكندرية فى ٢٢ اغسطس سنة ١٧٩٨ المرجع السابق ص ٤١٣

(٤) من القائد العام الى المواطن بوسييلج فى ٢٢ أغسطس سنة ١٧٩٨ المرجع السابق ص ٤١٣ .

(٥) عبد الله جاك منو ص١٤٨ — ص١٤٩ .

وقام المشايخ من جهتهم بتوزيع منشور على الاهالى ادعوا فيه أن بونابرت سافر بدعوة من حكومته ، ومن أجل الاستجمام ، وترك خلفه رجلا كفؤا هو كليبر ، واهابوا بالاهالى أن يتعاونوا معه ، وأخذوا يبنون الاطمئنان فى نفوسهم على اعمالهم وأموالهم ، وطالبوهم بالتزام الهدوء والبعد عن اثارة الفتن (١) .

ماذا اراد بونابرت بهذه التصرفات ؟ هل كان يتوقع فشل الحملة ، وهل كان يخشى من تدهور الموقف بعد رحيله ؟

ان المؤرخين يقولون أن كليبر كان ناقما لخروج بونابرت .

أولا : لانه اى كليبر كان يعتقد فى فشل الحملة .

ثانيا : لانه كان يكره الاقامة فى مصر كسائر الفرنسيين ، وكان يرى من الأفضل العودة للعمل على انقاذ بلاده من الاخطار المحدقة بها بدلا من تعرض هذا الجيش الكبير للامراض والاوبئة وهجمات المصريين والعثمانيين

ثالثا : لأن الجنود الفرنسيين ببقائهم فى مصر أصبحوا محرومين من اكتساب الفخر فى حرب أوربية (٢) .

لهذا كله كان كليبر يشعر بيأس شديد لما كان يواجه الحكم الفرنسى فى مصر من مصاعب ، منها حاجة هذا الجيش الى السلاح والذخائر ، ومنها حاجته الى الدماء الجديدة ، ثم لسخط المصريين على الفرنسيين ، وترقبهم الفرص السانحة للثورة . وكان كليبر كذلك يكره بونابرت لنواياه الدكتاتورية لأنه كان من انصار الجمهورية .

ولكن اذا كان هذا هو كليبر الذى كان يعتقد فى فشل مشروع الحملة ، اذن لماذا ترك له بونابرت القيادة ؟

---

(١) من محفل الديوان الخصوصى خطابا الى سائر الاقطار المصرية من الأقاليم القبلية والبحرية وكامل الرعايا وفقهم الله ... مذكرات نقولا الترك ص ٦٢ — ص ٦٣

(٢) نقولا الترك ص٦٥ وعبد الله جاك منو ص١٤٨ — ص١٤٩

ان بعض المؤرخين يرى أن بونابرت كان يريد عودة الجنرال ديزيه الى فرنسا ، وكليبر بعده يعد أكفأ القواد (١) .

وكان كليبر من اللحظة الأولى يريد الرحيل .

كتب كليبر الى حكومته تقريرا مسهبا يصف فيه حالة الحملة وملأ هذا التقرير بعبارات كلها يأس وطلب فى نهاية التقرير السماح له باجراء المفاوضات مع الترك فورا للجلاء عن مصر (٢) ولسوء حظه وقع ذلك التقرير فى يد الانجليز فنشروه فى انجلترا وذلك دعاية ضد الفرنسيين ، ولم ينتظر وكتب للترك يبدى استعداده لان يدخل معهم فى مفاوضات ورد عليه الترك أن قواعد الدين تستلزم النظر فى الامور أولا . مع أنهم كانوا مسرورين فى حقيقة الأمر من هذا العرض وكان كليبر يهدف الى التفاوض مع الترك رأسا وتوسيع دائرة المفاوضات للانتهاء الى عقد صلح بين فرنسا وتركية ولكنه لم يكن يملك التحدث باسم فرنسا وانما كان يجوز له التفاوض فيمايختص بمصر فقط وتدخل سدنى سميث وأوضح أنه لايجوز أن يتكلم عن فرنسا وأن تركيا متحالفة مع انجلترا وروسيا فى معاهدة لاتسمح لتركيا بعقد صلح انفرادى وقال أيضا كيف يسوغ لفرنسا أن تسحب جنودها من مصر دون الاتفاق مع الانجليز لان عبور البحر المتوسط كان مستحيلا بغير الاتفاق معهم . وكانت هذه العوامل تجعل المفاوضات مع الترك عديمة الفائدة ، ومع ذلك فقد بدأت المفاوضات تارة فى خيمة الصدر الاعظم وتارة فى احدى سفن سيدنى المسماه Tiger وكانت قد ألقت مراسيها بالقرب من العريش (٣) .

أما العوامل التى دفعت سميث الى التدخل فى هذه المفاوضات .

أولهما : اعتقادم أنه من الخطر ترك العثمانيين مع الفرنسيين وحدهم لأنه يخشى من أن يتمكن الفرنسيون من استمالة الترك اليهم ، والترك فى ذلك الوقت كانوا يخشون الروسيا لانها بعد دخولها فى التحالف الدولى الثانى اهتمت باخراج الفرنسيين من الجزر الايونية ، وسمح الترك للروس بامتياز

(١) عبد الله جاك منو ص١٣٦ — ص١٣٧
(٢) عبد الله جاك منو : ص١٥٠ ص١٥٢
(٣) المرجع السابق ص١٥٠ — ص١٥٧

خطير وهو المرور من البسفور كما أن الترك كانوا مشهورين بقبول الهدايا والرشوة ، وخشى سيدنى سميث بذلك من حدوث اتفاق مجحف بمصالح روسيا وانجلترا . ولذلك رأى منع الباب العالى من أن يرتمى فى أحضان الجمهورية الفرنسية ومن اعطاء الفرنسيين كل مايطلبون فى سبيل التخلص منهم لجهلهم السياسى وقلة درايتهم . **وثانيها** : اعتقاد سميث أن تركيا لن تنجح حربيا فى اخراج الجيش الفرنسى من مصر بالقوة والطريقة الوحيدة لنجاح تركيا هى ان ترسل انجلترا قوة حربية لمساعدتها فأراد أن يحقق بالمفاوضات مايعتقد أن الترك عاجزون عن تحقيقه بالحرب وزاد سوء ظنه فى الترك عندما اتصل بهم ورأى الفساد والانحلال الموجود فى الجيش كما أدى اختلاطه بالصدر الأعظم يوسف ضيا باشا الى فكرة عدم كفاءته . **وثالثها** أن سميث كان يرى أن الجند الترك لاتدخل مصر الا للسلب والنهب والسرقة وضربة واحدة من كليبر تمزق شمل الجيش التركى ورأى أنه مادام الفرنسيون يريدون الخروج فلا داعى لتعريض الانجليز للمرض والأوبئة . **ورابعها** : أنه مع اعتقاده فى أن خروج القوة الفرنسية من مصر هو زيادة لقوة الجيوش الفرنسية فى أوربا الا أنه يرى امكانية تشتيت هؤلاء الجنود فى موانى أوربا المختلفة وعدم تجميعهم بحيث يصعب على حكومة فرنسا تنظيمهم فرقا واعادة الروح العسكرية الى صفوفهم ونفوسهم . **خامسا** : كان هناك سبب شخصى وهو اعتزاز سميث بذكائه وكفاءته السياسية وكان يرى أنه لم يخلق ليقود بعض السفن الحربية فقط وانما يمكن أن يكون له نصيب فى السياسة فهو يطمع فى أن يضيف الى مركزه الحربى دورا سياسيا وفعلا رفعته حكومته الى وزير مفوض لترقية مركزه فى الدوائر العثمانية ولكن لم يكن قصدها هو أن يتولى المفاوضات بنفسه بل يشترك فيها فقط .

أما وجهة نظر الانجليز فى ذلك الوقت بالنسبة لجلاء الحملة الفرنسية فهو اذا كان الفرنسيون يريدون الخروج من مصر فانما يتم ذلك بتسليمهم انفسهم كأسرى حرب ويحررون من سلاحهم أما العثمانيون فقد رحبوا فعلا وفى الباطن برغبة كليبر لانهم هزموا فى الشام وفى سواحل مصر واخفقت محاولات نزولهم فى دمياط ، وبعد المفاوضات عقدت اتفاقية العريش فى ٢٤ يناير ١٨٠٠ وتقضى بجلاء الفرنسيين عن مصر بكامل سلاحهم وعتادهم وعودتهم الى فرنسا على نفقة الدولة العثمانية دون أن يتعرض لهم أحد فى

البحر . وشرع الفرنسيون فعلا فى اخلاء بعض المواقع استعدادا للجلاء كما شرع العثمانيون يتأهبون لدخول مصر ونزلت قوة انجليزية فى ميناء السويس. ولم يكن هذا الاتفاق فى حقيقته معاهدة صلح بين انجلترا وتركيا بل كان يقتصر فقط على مبدأ الجلاء وتنظيم الجلاء والمدة المقررة له وليس له علاقة باعادة السلام بين فرنسا والدولة العثمانية (١) .

بينما كان كل شىء يسير فى هذا السبيل اذ جاء بلاغ من القائد العام الانجليزى فى البحر المتوسط كيث Keith يقرر أن الحكومة الانجليزية لاتسمح الا بخروج الفرنسيين كأسرى حرب فاعتبر كليبر أنه فى حل من اتفاق العريش ورحب بذلك بعد أن بدأ يشك فى صحة عمله ، ولكنه كرجل شريف أراد أن يحترم كلمته التى أعطاها فى هذا الاتفاق ، أما وقد جاءته الاخبار بسقوط حكومة الادارة وأن بونابرت اصبح القنصل الاول والحاكم الفعلى لفرنسا فانه لابد سيحاكمه ويعتبر خروجه من مصر هروبا ، واستطاع كليبر ان يسترد الاماكن التى تركها وأصدر منشورا لجيشه ذكر فيه التقرير الانجليزى ودعا الى حمل السيف للرد عليه .

واصبح موقف سدنى سميث فى هذا الوقت حرجا لان المفاوضات جرت على سفينته وجعلت كليبر يعتقد أن انجلترا توافق على خروجه ثم جاء البلاغ الاخير يناقض ذلك وحاول سميث بهذا أن يهدىء كليبر من ناحية الدولة العثمانية ، ورجاه أن ينتظر قليلا لان الحكومة الانجليزية لاتعرف أن الاتفاق قد تم فعلا وأنه بعد وصوله اليها لابد أن الصدر الاعظم لم يكن قادرا على اخضاع جيشه وهو معسكر فى صحراء العباسية فرغب فى الدخول الى القاهرة ويعتبر نفسه فى حالة جهاد دينى ولذلك كانوا يضغطون على الصدر الاعظم ، وقد وصف بعض الانجليز حالة الفوضى فى جيش الصدر الاعظم بأنه كان يصدر الاوامر والرصاص ينطلق على خيمته ليلا . ووقعت المناوشات بين الترك والفرنسيين ثم اشتبكوا فى موقعة المطرية (عين شمس) فى ٢٠ مارس سنة ١٨٠٠ وسحق كليبر الجيش التركى وهرب العثمانيون الذين بقوا

---

(١) نقولا الترك ص ٦٧ — ص ٧٦

على قيد الحياة الى الشام وعلى رأسهم الصدر الاعظم ، واعتقد كليبر ان هذه الموقعة قضت على اتفاق العريش ، وفى اثناء سير المعركة تمكن بعض المماليك من دخول القاهرة وأثاروا المصريين فقاموا بثورة جديدة كانت أعنف من ثورة القاهرة الاولى ولما انتهى كليبر من الجيش العثمانى التفت الى القاهرة فوجدوها تشتعل بنار الثورة (١) .

« ثورة القاهرة الثانية ٢٠ مارس سنة ١٨٠٠م »

شبت هذه الثورة يوم ٢٠ مارس سنة ١٨٠٠ ومعركة عين شمس قائمة وتزعمها العلماء وعلى رأسهم السيد محمد السادات وأحمد المحروقى والشيخ الجوهرى ومصطفى البشتيلى وكان مركزها بولاق ، وكان البشتيلى محل شك الفرنسيين وقد سبق اعتقاله وضبطت الاسلحة فى وكالته التجارية، وهذه الثورة كانت اعنف واكثر استعدادا من الثورة السابقة ذلك أن الناس حملت البنادق والسيوف والرماح وبسرعة اقيمت مصانع البارود فى بيت قائد اغا بالخرنفش وانشأوا مصنعا لاصلاح الاسلحة والمدافع ومعملا آخر لصنع القنابل وصب المدافع من حديد المساجد والحوانيت وآلات الموازين وبقايا القنابل المتساقطة من مدافع الفرنسيين . وفى بداية الثورة حاول الثوار مهاجمة معسكر الفرنسيين فى الأزبكية فى نحو عشرة آلاف ثائر فردتهم المدافع وبسرعة امتدت الثورة الى انحاء القاهرة وتحصن الناس فى الشوارع والميادين والاسطح واقاموا المتاريس واشترك فى الثورة الرجال والنساء والاطفال وترددت الهتافات العالية من نحو خمسين الف ثائر فكانت تصم الاذان وعاد الثوار لمهاجمة معسكر الازبكية وكان معهم ثلاثة مدافع عثمانية تلقى صنج الموازين لعدم وجود القنابل وظل القتال يومين ولكن المدافع الفرنسية الشديدة أطلقت على أحياء المدينة المختلفة وفى اليوم التالى وصل المدد الفرنسى بعد الظهر واكتسح الشوارع حتى معسكر الازبكية تغذيه الحماسة التى جاءت عقب الانتصار على العثمانيين فى عين شمس ، وظلت الثورة مشتعلة فى القاهرة حتى وصل كليبر يوم ٢٧ مارس ووجد أن القاهرة

---

(١) عبد الله جاك منو ص ١٧٢ — ص ١٧٥ والجبرتى جزء ٢ ص ٣٥٢ — ص ٣٥٤ .

وضواحيها تصطلى بنار ثورة عارمة وأن الشوارع والحارات محصنة بالمتاريس وأن الثوار اتخذوا من الوكالات والمخازن قلاعا يتحصنون بها .

وتختلف هذه الثورة عن ثورة القاهرة الاولى فى أنها كانت أعنف وكان كليبر غائبا عن القاهرة فى بدايتها ولأن العرب والمماليك والاتراك اشتركوا مع المصريين فيها ، ووجد كليبر أنه من الصعب اكتساح الشوارع فلجأ الى الحيلة وأخذ يفاوض زعماء الترك والمماليك ولم يلتفت الى زعماء الشعب المصرى الذى تنبه الى هذه الحيلة وفطن الى أن زعماء الترك والمماليك يعبثون بهم فأخذ دعاة الثورة يحرضون الأهالى على الاستمرار وعدم الالتفات الى التفاوض ونادوا بخيانة الترك والمماليك .

وبينما كانت الثورة على أشدها وقع مراد بك الصلح مع كليبر فى ١٥ أبريل سنة ١٨٠٠ على أساس أن يحكم الصعيد تحت سيادة فرنسا وبدأ يسعى لضم المماليك فى القاهرة الى صفوفه ففشل وحينذاك اشار على كليبر بحرق القاهرة . ولما كانت المدافع الفرنسية تصب مدافعها على أحياء المدينة وتصل الامداد تباعا حتى أحاط الفرنسيون بالقاهرة شمالا وشرقا وبدأ الفرنسيون يتقدمون من جهة باب الحديد وكوم أبو الريش والحسينية وباب النصر ... وشيئا فشيئا بدأت القوات الفرنسية تتقدم حتى كان يوم ١٠ أبريل اذا بدأ كليبر يوطد سلطته واستطاع فى ١٢ منه أن يحتل كوم أبو الريش بالفجالة وكانت نقطة ارتكاز قوية للثوار ووصل بلبار من دمياط وعسكر أمام معسكر الثورة الرئيسى وفى يوم ١٤ أبريل قرر كليبر الهجوم على بولاق مع مطلع شمس اليوم التالى ، وبدأ الهجوم بالمدافع فتحطمت المتاريس والبيوت المحصنة واندفع الجنود يشعلون النار فى البيوت فطلب الاهالى التسليم وانتهز كليبر فرصة هذا الهلع الذى استولى على الاهالى وقام بالهجوم العام يوم ١٨ أبريل وكان كلما استولى على منطقة اشعل فيها النار فأحدث تخريبا رهيبا بالقاهرة ودفنت عائلات بأكملها تحت الأنقاض وخاصة فى احياء الأزبكية والساكت والفوالة والرويعى وبولاق وبركة الرطلى وباب البحر والخروبى والعدوى وباب الشعرية ... وعقد الصلح فى ٢١ من ابريل ووقف القتال الذى تعهد فيه كلبير بالعفو العام عن الاهالى

واشترط الا يغادر أحد من الأهالى القاهرة للانضمام للعثمانيين . ولكن المصريين لم يكونوا يثقون فى كلام الفرنسيين فرحل بعضهم عن القاهرة حتى بلغ عددهم نحو ستة آلاف ثم سادت السكينة الوجه البحرى والقبلى وأصبح كليبر بعد قليل مسيطرا على الحالة . ثم عندما وجد أنه تمكن من الأمور اخذ يقتص بعنف من أهالى القاهرة ففرض على الناس ١٢ مليون فرنك وطلب منهم عشرين الف بندقية وعشرين الف طبنجة وعشرة آلاف سيف ثم صادر أملاك الزعماء وخاصة المحروقى . وفرض غرامات عالية على الشيوخ السادات والصاوى ومحمد الجوهرى وفتوح واعتقل العديد من الأهالى وفتش الفرنسيون المنازل وأخذوا يذلون المصريين واعتقلوا الشيخ السادات وضربوه وفرضوا عليه غرامة فادحة قدرها ٨٠٠ الف فرنك وظل فى معتقله حتى يوم ١٩ يولية سنة ١٨٠٠ حتى سدد هذه الغرامة .

كان هذا الانتقام الرهيب بلاشك عاملا على ازدياد سخط المصريين على هذا المستعمر الغاصب فظهر من بين المصريين ومن بين العرب عامة من ثار لكرامته ولوطنيته وبعض المؤرخين يعزون الى الشيخ السادات أنه فكر فى الانتقام من كليبر وقتله ويذهبون الى أن سليمان الحلبى الذى قتل كليبر عاش فى الجامع الأزهر ثلاثين يوما يدبر لهذا القتل فكان من الطبيعى أن يعلم السادات بهذا . وفى يوم السبت ١٤ يولية سنة ١٨٠٠ أودى سليمان الحلبى بحياة كليبر ليخلفه مينو فى قيادة الحملة (١) .

« مينو والحملة الفرنسية فى مصر »

تولى مينو قيادة الحملة فى مصر بعد مقتل كليبر ولم يكن ذلك لكفاءته وانما لأنه اقدم الضباط فقط وسرعان ما وصل قرار بونابرت بتثبيته فى هذا المركز ، وكانت قلة كفاءته العسكرية سببا فى عدم كسبه لاحترام الضباط والجند وذلك لأنه قضى أكثر حياته العملية فى مناصب ادارية وكان مينو منذ وصول الحملة قد عين حاكما لرشيد حتى يونية سنة ١٨٠٠ ثم نقل بعدها قائدا لمنطقة القاهرة وقد أنف أغلب الضباط من العمل تحت رايته ولم يرتاحوا

---

(١) الجبرتى : مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيين ص٣٤ — ص٤٣ الجزء الثانى . طبع بيروت .

لارائه وسياسته فى حكم البلاد فقد كان من الرجال الذين اسنهواهم حب الاستعمار وكان يرى أن مصر خير مستعمرة تستطيع بتنويع مصادرها ومواردها تعويض فرنسا عما فقدته من مستعمرات ، وكان على العكس من كليبر يثق فى نجاح الحملة وفى قدرة فرنسا على الاحتفاظ بمصر والقيام على استغلالها وظهر تحمسه للبقاء فى مصر منذ كان حاكما لرشيد فقد أرسل لبونابرت التقارير والمذكرات عن موارد مصر والسياسة التى ينبغى انتهاجها لحكم المصريين والوسائل اللازمة لايجاد علاقات تجارية بين مصر وداخل القارة وفى رشيد أعلن أسلامه وتزوج السيدة زبيدة ابنة محمد البواب احد أعيان رشيد . وادى هذا الى كره الجند له .

وقد باشر مينو سياسته القائمة على الظلم والجبروت ففرض الضرائب والاتاوات الفادحة واشتد فى جمعها فكرهه المصريون بشدة .

وبعد تولى مينو القيادة أعلن للضباط والجند فى نداء وجهه اليهم فى ٢٢ يونية سنة ١٨٠٠ عزمه على البقاء فى مصر ووصف اتفاق العريش بأنه خيانة وتسليم من كليبر ودعا الضباط والجنود الى الطاعة وأخبرهم أنه سيطلع بونابرت على كل شىء وسينتظر منه الرد والتعليمات ، وبالجملة بسط سياسته العامة التى انتوى انتهاجها فى مصر وكان هذا مدعاة لحدوث الانقسام والفرقة بين الجيش ففريق يحبذ الجلاء وفريق يحبذ البقاء وهكذا أدى هذا الى الضعف والتعجيل بهزيمة الفرنسيين (١) .

وكانت انجلترا قد وافقت على دور القوات الفرنسية فى البحر المتوسط ولكن مينو أعلن عن طريق السير سيدنى سميث أن أمر الجلاء من اختصاص الحكومة الفرنسية وحدها وانصرف مينو الى الاهتمام بمالية مصر لسد العجز المالى وجدد الديوان الذى اهمل منذ موقعة عين شمس وثورة القاهرة الثانية وفكر فى الغاء نظام الالتزام وأمر باصدار صحيفة عربية هى (التنبيه) وسار فى حكمه على سياسة الحزم ولكن عدم توافر الثقة بينه وبين كبار الضباط كان ينغص عليه حياته ثم أن جهله بالأمور جعله يرتاب فى آراء زملائه وفى اخلاصهم له ، ودبر الضباط مؤامرة لخلعه ولكنه علم بها وأخرج

---

(١) عبد الله جاك منو ص ٢٢٨ — ص ٢٣١

بعض المتامرين من مصر وطرد البعض الاخر من القيادة / وحين : أكدت انجلترا من ضعف تركية وعجزها صممت على الدخول فى الحرب بنفسها وفى آخر عام ١٨٠٠ فكرت فى ارسال حملة لاخراج الفرنسيين من مصر ، أما السبب فى هذا التطور فى موقفها فيرجع الى ان الراى العام فى أوربا كان يميل الى عقد الصلح فراى الانجليز أنه لابد من استرداد مصر بحيث لاتبدا مفاوضات الصلح فى اوربا ومصر فى يد فرنسا حتى لايكون موقف المفاوض الفرنسى قويا يحتمل أن يرفض بونابرت الخروج من مصر الا اذا نال عنها تعويضا فى منطقة اخرى

جاءت الحملة الانجليزية بقيادة السير رالف أبركرمبى Sir Ralph Apercrompy كما جاءت حملة أخرى من الهند من البحر الأحمر لتشترك فى محاصرة الفرنسيين ، وهكذا ظهر الترابط بين مصر والهند حيث أيقنت انجلترا أن وجود فرنسا فى مصر يهدد الهند ، وتقدم العثمانيون بالجيش الثالث بقيادة الصدر الأعظم يوسف ضيا باشا وبذلك اصبحت مهددة ومحاصرة من عده نواحى . وظهر حينئذ موقف مينو ضعيفا وظهر سوء تدبيره وعناده مما لم يتفق مع خطورة الموقف اذ رفض الاستماع الى آراء الخبراء واصر على تقسيم جيشه بدلا من جمعه لمواجهة الانجليز ومنعهم من النزول أو التقدم الى القاهرة وكان مينو يخشى تقدم الترك من الشام فترك الحاميات فى داخل البلاد كما ترك بالقاهرة قوة برية كبيرة وتوجه هو على رأس قوة أخرى الى الاسكندرية فوجد الانجليز والجيش التركى بقيادة حسين باشا قبطان ، ولو كان مينو قد هاجم بكل قوته لكان أجدى له لان عدوه زاد عن ١٣ الف جندى . وفى موقعة **كانوب** فى ٢١ مارس لقى الجيش الفرنسى هزيمة واعتصم بعدها بالاسكندرية واغلق ابوابها عليه مستعدا لتلقى الحصار ، وفقد الانجليز قائدهم فتولى القيادة مكانة هتشنسن **Hutchinson** وكان أمامه احد أمرين ، أما التقدم الى داخل البلاد الى القاهرة او التقدم الى الاسكندرية ورأى أن الحل الأول افضل حتى يستطيع مقابلة الجيش التركى القادم من الشام ورأى أولا أن يعزل مينو فى الاسكندرية عن بقية جيشه حتى لايستطيع مغادرتها فقطع البرزخ بين مريوط وادكو وبذلك أغرق الارض بين الاسكندرية ورشيد ثم ثار قاصدا الى القاهرة (١) .

---

(١) نقولا الترك ص ١٠١ ـــ ص ١٠٤

وكان المماليك قد انضموا الى الحملة القادمة وزاد عددها ولما وصلت الحملة الى الرحمانية انضم الانجليز للحملة العثمانية السائرة فى النيل وواصل الجيشان سيرهما ببطء نحو القاهرة وازداد مركز الفرنسيين حرجا وضعفت روحهم المعنوية حيث لم تصلهم مساعدة بونابرت من فرنسا بعد أن وعدهم بها — وبدأ كذلك يصل جيش الصدر الأعظم الى مشارف القاهرة ، وكانت القوات الهندية على مشارف خليج السويس عند القصير وعلى وشك أن تعبر الصحراء الى قنا وتبحر فى النيل شمالا لتطبق على الفرنسيين فى القاهرة وكانت هناك قوة رابعة قادمة من جنوب أفريقيا ثم أن مراد بك مات وهو فى طريقه الى الانضمام الى الفرنسيين وكان معسكرا فى طره وكان قد وقع مع كليبر عن طريق مندوبه عثمان بك البرديسى اتفاقية ٥ أبريل سنة ١٨٠٠م التى اعترف فيها كليبر بمراد بك حاكما على الصعيد وحليفا له ، وهزم الفرنسيون فى الزوامل من الجيش العثمانى بقيادة الصدر الاعظم ولما رأى بليار Belliard وهو من انصار الجلاء هذا الموقف السىء اثر التسليم بدون مقاومة مع انه كانت معه قوة كبيرة وكان يستطيع الخروج من القاهرة وضرب الجيش العثمانى قبل أن يصل اليهم الانجليز لو أنه جمع جيشه ، وسلم بليار القاهرة للانجليز والصدر الاعظم وفق شروط اتفاقية العريش ، وبذلك تفرغ الانجليز لقتال مينو فى الاسكندرية الذى اضطر لقلة المؤونة الى التسليم والاتفاق على شروط الجلاء بنفس شروط القاهرة ووقع عليها كل من الجنرال هتشنسن واللورد كيث باشا قبطان ، والجنرال مينو بجلاء الجيش الفرنسى عن المدينة وقلاعها فى عشرة أيام وتسليم الفرنسيين سفنهم وينقلون الى أحد موانى فرنسا ومعهم امتعتهم وعشرة من مدافعهم فقط ويسلمون الباقى كما يسلم أعضاء المجتمع العلمى الفرنسى أبحاثهم ودراساتهم وخرائطهم ورسومهم ومخطوطاتهم التى جمعوها فى مصر ولكنهم رفضوا ذلك وطلبوا من القائد الانجليزى الاقلاع عن هذا الطلب والا قاموا باحراقها فقبل طلبهم ... وهكذا خرجت فرنسا من مصر (١) .

(نتائج الحملة الفرنسية على مصر)

هكذا رأينا أن الحملة الفرنسية لم تحقق ماكانت ترجوه فرنسا ، بل

---

(١) عبد الله جاك منو ص ٣٩٦ — ص ٥٤٥

انها فقدت سيادتها فى الشرقين الأدنى والاوسط بينما افادت انجلترا من هذا التراجع الفرنسى وانحسار نفوذه ، أما فى مصر كانت الحملة ذات دلالة أوضح فقد حطمت قوة المماليك حتى اذا جاء محمد على تمكن من التخلص منهم نهائيا — كما سنرى .

والحملة الفرنسية على مصر فتحت أمام محمد على مشروعات ليجعل من مصر بلدا عصريا ، وقد أخذ ينفذها هو وخلفاؤه ، فالحقيقة أن بونابرت حرك فى مصر قوى تعمل على التغيير وظل أثر حملته الثقافى ظاهرا الى اليوم، فبجانب أن الحملة كانت سببا فى تلمس آيات الفن ، وروائعه فى الاقصر والكرنك مما كان سببا فى قيام فيفان دينوى بانشاء مجموعة المتحف المصرية فى باريس بعد أن أصبح الأمين الأول لمتحف اللوفر نجد أن الحملة أيضا أخرجت سفرها العظيم وهو كتاب « وصف مصر » وكانت سببا فى فك رموز اللغة المصرية القديمة فقد حدث أن كشف ضابط فرنسى (١) حجرا قرب رشيد عليه كتابات لم يعرفها ، وأخرج الانجليز هذا الحجر الى بلادهم بعد اخراج الفرنسيين من مصر ، وبعد مدة من الزمن تمكن العالم الاثرى شمبليون من كشف سر هذا الحجر سنة ١٨٢٢ فقد كانت عليه رسالة وجهها الكهنة الى أحد ملوك البطالسة فى مصر يرجونه تخفيف الضرائب وأن هذه الرسالة مكتوبة بثلاث لغات هى اليونانية والديموطيقية والهيراطيقية والأخيرتين لغتين مصريتين قديمتين وكان هذا العالم يعرف اللغة اليونانية القديمة (الاغريقية) فاستطاع أن يقرأ هاتين اللغتين ويفك رموزهما وساعد بذلك على قراءة الاثار والكتابات المصرية القديمة .

وقام جيش العلماء والباحثين الذى صحب بونابرت الى مصر يعمل بجد ونشاط ، ويتناول مصر كلها بدراساته .

فقد أنشأ الفرنسيون معهد القاهرة Institut du Caire تولى العمل فيه طائفة من أكفأ العلماء أمثال مونج وبرتوليه وجونرى وسانت هلير وكونتيه، ولفت انظارهم ما تحظى به مصر من آثار قديمة لاتزال قائمة تتحدث عن الماضى فانصرفوا الى دراستها ووصفها ورسمها .

---

(١) يدعى بوشار Bouchard

واخذ كونتييه ينشىء المصانع ويغرس البذور ويعتنى بالزراعة . كما درس الفرنسيون مشروع قناة تصل النيل بالبحر الاحمر ، وانفقوا جهدا كبيرا فى دراسة هذا المشروع .

كما أنهم اخذوا يعيدون تنظيم القاهرة وتنظيفها مما تراكم عليها طوال العصور الوسطى ، وأدخلوا اصلاحات صحية ظاهرة .

ودونوا خلاصة اعمالهم فى سفر ضخم كتبوه حين عادوا الى بلادهم ودرسوا فيه مصر دراسة وافية وهو كتاب وصف مصر (١) .

والفرنسيون لم يقف جهدهم العلمى فى مصر بعد خروجهم فهاهم قد ظلوا نحو ربع قرن يصفون كشوفهم ويحاولون جاهدين انجاز ذلك المشروع الذى ظل حلما يراود خيالهم واعنى به مشروع توصيل البحر الاحمر والبحر المتوسط بقناة ملاحية تربط بينهما .

والحملة الفرنسية كانت أيضا محاولة حديثة لاستعمار البلاد التى أطلق عليها حديثا اسم (البلاد المتخلفة) وهى صورة فريدة من صور الاستعمار يرى فيها كرستوف هيرولد انها كانت محاولة جدية لبونابرت أراد أن يحقق بها الاندماج بين الغرب العلمانى والشرق الاسلامى على قدم المساواة (٢) .

وقد خرج مع الحملة الفرنسية من مصر عدد من السوريين والاقباط عاشوا فى مصر بمرتبات ضئيلة بينما خرج معها أيضا عدد من المماليك انخطروا فى الجندية يتألف منهم (سلاح المماليك) .

وأما مئات الفرنسيين الذين آثاروا البقاء فى مصر اما هربا من الجيش او رغبة فى الحياة الجديدة فى مصر فهؤلاء ساعدوا محمد على فى تدريب المجندين من الزنوج والنوبيين ليصبحوا حرسه الخاص ، بينما صار الصيدلى روابيه

---

(١) حسين مؤنس : الشرق الاسلامى فى العصر الحديث ص٨٠ — ص ٨٢

(٢) بونابرت فى مصر ... ص ٥٣١

الذى أعطى المخدر لمرضى حملة بونابرت على الشام فقد اصبح طبيبا خاصا لمحمد على (١) .

ومن الواضح أن الحملة الفرنسية على مصر فتحت حقبة من الصراع الاستعمارى بين فرنسا وانجلترا حول مصر كان له اثره فى بقية انحـــاء الشرق العـــربى .

فالحملة الفرنسية اذا كانت قد هدفت الى مساعدة تبو صاحب آخر ملوك المسلمين الثائرين ضد انجلترا فى الهند ، فان الضربة القاصمة التى أصيب بها فى معركة النيل افقدتها هذه الفرصة ، ولكنها وجهت نشاط انجلترا المتزايد فى منطقة الشرق وقامت أسس هذا النشاط على القواعة الاتية : —

١ — أصبحت أسس السيادة البريطانية حتى سنة ١٨٧٨ أى حتى مؤتمر برلين تقوم على اساس المحافظة على التكامل السايسى للدولة العثمانية .

٢ — بعد ان كانت العلاقات بين انجلترا والدولة العثمانية تقوم على أسس تجارية بحتة فان العلاقات السياسية أصبحت هى المسيطرة ، وبعد أن كان السفير البريطانى فى القسطنطينية تعينه شركة الليفانت أصبحت تعينه وزارة الخارجية البريطانية .

٣ — فتحت الحملة الباب أمام انجلترا لتبسط نفوذها فى أجزاء متفرقة من الشرق الأدنى فاحتلت جزيرة بريم فى مدخل البحر الأحمر ، ثم احتلت عدن ، وبدأت توطد العلاقة والصداقة مع العراق وسلطنة عمان (٢) .

٤ — وقفت انجلترا أمام استقلال مصر فى عهد محمد على ، وامام كل مشروعاته التوسعية وهى المسئولة عن فشل حملاته الى سورية ، وهى

---

(١) المرجع السابق ص ٥٣٠ — ص ٥٣٥ .

(٢) د. محمد أنيس : الشرق العربى فى التاريخ الحديث والمعاصر. ص ١٠١ — ١٠٢

التى أجبرته على الانسحاب من سورية والحجاز ونجد واليمن وسواحل الخليج العربى وتقلص امبراطوريته .

٥ — كان التدخل الاجنبى فى شئون مصر ، والتنافس سببا فى تدفق رؤوس الأموال الاجنبية فى شكل شركات راسمالية كبرى فى مقدمتها شركة قناة السويس ، وفى شكل قروض أدت الى تدخل مباشر فى شئون الادارة المصرية انتهى بالاحتلال البريطانى لمصر (١) .

وقد كان الرأى العام المصرى قبل الحملة الفرنسية يتمثل فى طبقة العلماء الذين كانوا تعبيرا عن الضيق الذى عاناه المصريون طوال قرون فى ظل الحكم التركى ، فلما جاء الفرنسيون الى مصر زاد هذا الوعى نموا ، وافاق المصريون من سياستهم ليروا محتلا غاصبا فوقفوا فى وجهه وكانوا من العوامل القوية التى أقضت مضاجع الفرنسيين فى مصر ، ونستطيع أن نقول بثقة أن هذه الحملة خلقت من بين المصريين فئة أيقنت انه اذا لم يكن لاهل البلد صوت فى بلادهم فلن تتخلص هذه البلاد من الظلم والطغيان الذى عاشت فيه فترة طويلة ، ولعبت هذه النخبة التى انضجتها الحملة الفرنسية دورا بارزا فى تولية محمد على حكم مصر . خاصة وأن بونابرت أسند بعض المناصب الكبيرة التى كان يتولاها ترك الى مصريين .

وهناك من يرى أن سياسة بونابرت المالية وحاجته المستمرة الى المال لتنفيذ المشروعات الواسعة التى عزم على القيام بها حركت فى نفوس المصريين كوامن الحقد وحرمت الفرنسيين من تعاون المصريين معهم ، ثم أن الفرنسيين لم يحاولوا بتاتا أن يتعرفوا على المصريين ، أو يتغلغلوا فى أوساطهم ليتعرفوا ويقفوا على حقيقة شعورهم ، وما كان يجول فى أذهانهم ، خاصة وأن الفرنسيين لم يأتوا معهم بجالية متقفة كبيرة ، وانما لم يعرف المصريون من الفرنسيين غير الجنود فحسب ثم أن هؤلاء الجنود ، الذين خاضوا غمار

---

(١) المرجع السابق ص ١١٢ — ١١٣

المعارك ، لم يكادوا يعودون من معاركهم ، حتى انتهزوا فرصة الاحتفال بالأعياد والمواسم ، الى جانب أعيادهم الفرنسية حتى أخذوا ينطلقون وسط ضجيجها وصخبها بتشاجرون مع العامة والدهماء ويتقاتلون معهم ، وذلك لعلهم يخففون من حدة مايقاسون ، ولعلهم يجدون منفذا لعواطفهم المكبوتة(١)

---

(١) عبد الله جاك منو ص ٥٤٧ — ص ٥٥٥

الفصل الثالث

الحالة فى مصر بعد جلاء الحملة

وقيام حكم محمد على

ما كاد الفرنسيون يجلون عن مصر حتى أصبحت البلاد مسرحا لصراع عنيف بين الترك والمماليك على السلطة فيها .

١ — فالترك كانوا يرون انهم اصحاب السلطة الشرعية ويريدون استعادة نفوذهم وحكمهم الذى كان لهم قبل مجىء الحملة الفرنسية .

٢ — والمماليك يريدون الوصول الى النفوذ والسلطة ايضا فهم يريدون كذلك السلطة والسلطان فابراهيم بك ، وعثمان بك الطمبورجى وريث مراد لاينسون ماكان لهم من نفوذ وسلطان قبل مجىء الحملة ومن ثم فهم يعملون لاستعادة هذا النفوذ ، ولكنهم انقسموا حول أنفسهم ، ففريق منهم يشايع فرنسا ويرى انها الدولة التى يستطيع الوصول الى السلطان بمساعدتها وهم خلفاء مراد وعلى رأسهم الطمبورجى بك وفريق آخر كان يرى الاستعانة بانجلترا وعلى رأسهم محمد بك الألفى ، وفريق كان يحالف الترك وكان ذلك أثناء الحملة وعلى رأسهم ابراهيم بك .

٣ — وفى وسط هذا الصراع لم يكن يخفى على انجلترا أهمية موقع مصر لمواصلاتها الى الشرق ، ولذلك فقد ظلت السياسة البريطانيا تعمل على زيادة النفوذ الانجليزى فى مصر والحيلولة دون قيام اى دولة حديثة قوية فيها سواء أكانت هذه الدولة وطنية أم خارجية وذلك حتى لاتهدد مواصلاتها ومصالحها فى الشرق .

٤ — وفرنسا وهى وان كانت قد خرجت من مصر فانها لم تنسها وظلت

تنظر اليها وتحاول استعادة نفوذها ونحقق لها نفوذ ادبى كبير بعد وصول محمد على الى الحكم .

٥ ـ ومع ذلك ومع وجود هذه القوى الأربع كان الشعب المصرى قد ازداد وعيه ونمت روح الاستقلال لديه وأراد أن يكون له دور واضح فى حكم وطنه، فقد كان العلماء يمثلون صرخة الشعب ضد الظلم والطغيان قبل مجىء بونابرت وفى عهد الحملة نما هذا الوعى ونضج ، وأصبح العلماء وكبار التجار يمثلون الشعب المصرى ويتكلمون باسمه ويدافعون عن مصالحه وأرادوا أن يكون لهم دورهم .

٦ ـ وفى وسط هذا الصراع كانت قوة سادسة مترقبة هى محمد على فقد كان هذا الضابط أحد جنود الترك الذين جاءوا لطرد الحملة الفرنسية من مصر وكان يمتاز بالشجاعة وبعد النظر فادرك أن هذه القوى المتصارعة لن تستطيع أن تحقق مآربها بدون الاستعانة بالشعب المصرى ورأى انقسام المماليك ، ورأى أن الترك قد ضعفت قوتهم ، وجنودهم فى مصر من عناصر رديئة تنهب القرى وتعتدى على الأرواح والشعب المصرى لن يعط ثقته الا لمن عمل لمصلحة مصر ومن عمل على الاستعانة بهذه القوة النامية والظهور بمظهر الحامى لها والمدافع عنها ونجح فى خطته ووصل الى الحكم فى مصر بمعونتها .

وكان الترك بعد طرد الاجانب الفرنسيين قد بقوا فى البلاد بقيادة الصدر الاعظم يوسف باشا فى القاهرة يسيطرون على شئون البلاد ، وكان قائد العمارة البحرية العثمانية فى أبو قير هو حسين قبطان باشا ، وسعى الصدر الاعظم فى تولية خسروا باشا واليا على مصر . وادرك الترك خطر المماليك على نفوذهم فعملوا على الايقاع بهم والتخلص منهم .

فاتفق الصدر الاعظم مع حسين قبطان على دعوة الطمبورجى لزيارة أبو قير وابهامه بأن حسين قبطان سيتفاهم معه على تسلميه السلطة فى مصر حسب فرمان سلطانى وصل اليه كما يدعو الصدر الاعظم ابراهيم بك وأتباعه الى القاهرة لنفس الغرض وتردد المماليك ثم اجابوا هذه الدعوة أخيرا . وبعد أن اتصلوا بالقائد البريطانى ، وأبدوا مخاوفهم من هذه الدعوة ،

اخذ هذا القائد يطمئنهم فهو لم يكن يظن ان الترك يمكن أن يغرروا بهم بهذه الطريقة .

وفى ابو قير قابلهم حسين قبطان بالترحاب ثم دعاهم لزيارة القائد الانجليزى فى البحر ، فلما ركبوا القوارب وابتعدوا عن الشاطىء لحق بهم قارب آخر يطلب القبطان لتسليمه بعض الرسائل الهـامة فانصرف ولما ابتعد قاربه هاجم البحارة والجند بكوات المماليك واوقعوا بالكثير منهم وعلى راسهم الطمبورجى بك وجرح عثمان بك البرديسى ، وفى القاهرة نفذت فيهم مؤامرة مثلها فى نفس الوقت وقتل بعضهم وأودع البعض الاخر سجن القلعة، ولما وصل هذا الخبر الى القائد الانجليزى هتشنسن غضب وطلب فك أسر المعتقلين حالا وتسليم جثث القتلى وخضع الترك للامر بعد أن كادت الحرب تقع بين الفريقين وبذلك كسب الانجليز مودة المماليك فى حين وقعت الفرقة وسوء الظن بين المماليك والترك . وأخذ المماليك ينظمون أنفسهم للدفاع فانتقلوا الى الوجه القبلى فى الوقت الذى حضر فيه خسروا باشا من أبو قير الى القاهرة وتسلم زمام الامور بنفسه ورحل الصدر الأعظم ومعه جزء من الجيش العثمانى الى سورية فى أواخر يناير سنة ١٨٠٢م

أما الانجليز فقد ظلوا فى مصر يرفضون الخروج منها بعد أن حدث الصلح بين تركيا وفرنسا فاشتد تمسك الانجليز ببقائهم فى مصر ، ثم تم توقيع صلح امبان فى مارس سنة ١٨٠٢م بين انجلترا وفرنسا وفيه تعهدت انجلترا بالجلاء عن مصر ولكنها مع ذلك تلكأت حتى مارس سنة ١٨٠٣ ، ثم خرجت أمام الحاح بونابرت المتكرر . وأما المماليك فقد انقسموا — شأنهم دائما — الى فريقين ، فبينما اتفق الالفى مع الانجليز على أن يساعدهم الانجليز فى الوصول الى حكم مصر — ويصبح للانجليز حكم الاسكندرية والسواحل ويتمتعون فى مصر بالنفوذ ويصبح (١) المماليك صنيعة لهم واخذ هؤلاء ينتشرون فى الوجه البحرى وخاصة مديرية البحيرة نرى أن عثمان بك البرديسى خليفة الطمبورجى يرسل الى نابليون يستنجده ويرجوه مساعدته فى اعادة المماليك الى سلطانهم الأول على أن يكون للفرنسيين الامتيازات التى يرغبون

---

(١) مذكرات نقولا الترك : ص ١٢٥ ، من ص ١١٦ — ص ١٢٠

مبها ولكنه كان مشغولا عنهم بشئون أوربا ، وهؤلاء المماليك كانوا منتشرين في الوجه القبلي وخاصة في جهات الفيوم وبني سويف والمنيا واسيوط (١) .

تولية محمد على حكم مصر

عهدت ادارة البلاد الى خسرو باشا بعد رحيل الفرنسيين ، وقبض على زمام الامور في أواخر رمضان ١٢١٦هـ — أوائل فبراير ١٨٠٢م — وكان احد مماليك قبطان باشا ، وهو رجل جركسي الاصل كريم السجايا هش ، ولكنه كان شديد الصلف والكبرياء مع عشيرته ، قصير النظر في السياسة ، قليل الخبرة بأحوال الناس ، وكانت تؤيده حامية من ١٧ الف جندي موزعه في البلاد ، وكان يثق فيهم وخاصة الألبان لما امتازوا به من حب المغامرة رغم رداءة سلاحهم واختلال نظامهم ، وكان يثق في جماعات النوبيين والسودانيين الذين اشتروا من النخاسين ودربوا وسلحوا بقيادة ١٥٠ من الفرنسيين .

وكان في الجانب الآخر . اعني جبهة المعارضة من المماليك نحو ٣٥٠٠ جندي ، ونحوهم من عرب العبابدة ، ونحو ٢٥٠٠ من عرب أولاد علي ، ولكنهم كان الشقاق مستحكما بينهم ولذا فقد ضعفت جبهتهم وروحهم المعنوية (٢) .

ولم يكد خسرو يستقر في الحكم ، حتى بدأ يدبر الدسائس للتفريق بين أحزاب المماليك وينصب لهم الشراك ، وكان عثمان بك حسين من اغناهم واسماهم منزلة ، عاش بعيدا عن الحياة الحزبية ، وعرضت عليه جملة اقتراحات غادر على أثرها ومعه اتباعه الصعيد للحياة في القاهرة .

ارسل خسرو جيشا لمقابلة المماليك في الوجه القبلي ، ولكنهم ازاء هذا الخطر وحدوا صفوفهم وهزموا الترك ، ثم زحفوا على الوجه البحري واتصلوا

(١) ادوارد جوان : مصر في القرن التاسع عشر . نقله الى العربية محمد مسعود . الطبعة الثانية القاهرة سنة ١٩٣١ ص ٢٠٧ ، ص ٢٠٨

(٢) المرجع السابق ص ٢٣٢ — ص ٢٣٣

بالبريطانيين فى الاسكندرية ، وهزموا قوات الترك مرة ثانية فى دمنهور فى ٢٠ من نوفمبر سنة ١٨٠٢ ، وعندما جلى البريطانيون عن البلاد ومعهم الألفى ، وأصبحت الاسكندرية فى قبضة الترك ، ولم تعد ملجأ للمماليك ، عادوا الى الوجه القبلى ، واخذوا يهاجمون قوات خسرو ويلقون الرعب فى قلبه ، فجرد ضدهم حملة بقيادة احمد طاهر باشا ومحمد على ، ودخلت قوات طاهر القاهرة بينما بقيت قوات محمد على خارجها ، وكانت هذه مسمارا فى نعش خسرو لأن محمد على انتهز هذه الفرصة للتخلص من خسرو وأوعز الى الجند بطلب رواتبهم ، وصادف هذا هوى فى نفوسهم ، ولما لم يستطع خسرو تلبية مطالبهم ، ثارت الجند ضده ، ودعاه سوء تقديره الى اطلاق مدافع القلعة عليهم ، ولم يقبل توسط طاهر فى الأمر ، واستطاع الجند الاستيلاء على القلعة بقيادة طاهر وفر خسرو الى دمياط ، ثم جمع طاهر العلماء والأعيان واتفقوا على تولية طاهر السلطة حتى يصدر الامر السلطانى وذلك فى مايو سنة ١٨٠٣م (١) .

ولاية طاهر باشـــا :

بدأ طاهر حكمه بمطاردة خسرو لمنعه من العودة ، وانفذ اليه جيشا من الألبانيين بقيادة ابن أخيه حسن بك وتعقبه هذا الجيش حتى فارسكور .

وأصدر طاهر منشورا يعيد به الطمأنينة الى النفوس ، وأعطى المسيو روزتى عهدا بالتزام الوالى باحترام الافرنج والمسيحيين واليهود منهم من رعايا تركيا مثل المسلمين .

ولما كانت الخزانة خاوية بدأ يفرض الضرائب الفادحة على التجار وعلى الأهالى ، وبدأ رجاله يستبدون فى جمعها .

ثم علم ان المماليك أرسلوا رسالة الى خسروا ، ففكر فى استمالتهم الى جانبه ، ودعاهم الى الحضور للمعيشة فى القاهرة ، وفعلا قدموا نحو الجيزة .

---

(١) المرجع الســـابق ص٢٣٤ — ص٢٤٨

تم سرعان ماوقع طاهر فى نفس الحفرة ، فقد طالبه الجند بمتأخراتهم ، وفى ٢٥ مايو سنة ١٨٠٣ تقدم منه الضابطان اسماعيل اغا وموسى أغا بمطالب الجند ، ولم يسمع لهما طاهر ، واشتد اللجاج وهددهما ، فقتلاه ، ووقعت معركة عنيفة بين الالبانيين وغيرهم من الجند العثمانيين ، وأحرق قصر الوالى وتحرجت الأمور ، وبادر رؤساء الجند الى تولية احمد باشا وكان فى طريقه الى ينبع لتسليم قيادة الحامية التركية هناك . فقبل المنصب (١) .

احمد باشـــــا :

بدأ احمد باشا يحاول استمالة محمد على الى جانبه ، وقد تولى الجند الأرنؤود بعد موت طاهر ، وكان محمد على أثناء القتال بين الوالى والمماليك لايتحرك للمساعدة ويلتزم الحياد بين الجند والوالى ، فقد كان يرى فى هذا القتال تفاهة الأغراض التى يقوم من أجلها ، فالوالى يعمل لاخضاع المماليك ليجعل مصر عزبة للسلطان العثمانى ، والمماليك يريدون استعادة وضعهم ليجعلوا من البلاد مصدرا لثرواتهم ومن أهل البلاد مطية لشهواتهم العدوانية، وانما انتظر محمد على الفرصة المناسبة ، فهو لايساعد على تقوية حزب ضد آخر ، وانما يعمل ليضعف كل فريق الفريق الآخر ويكون له هو فى النهاية ، وبمساعدة الشعب المصرى الحكم .

ولذلك فانه بعد تولية أحمد باشا قائد الانكشارية حكم البلاد ، قام محمد على فقصد معسكر المماليك وأخذ يفاوضهم فى الأمر ، وكتب ابراهيم بك بوحى منه برسالة الى احمد باشا يطلب منه مغادرة مصر حالا وتسليمه قتلة طاهر باشا ، فقبل احمد باشا التنازل عن الحكم مشترطا تمكينه من الرحيل الى بلاد العرب ، ثم عاد فعدل عن هذا التنازل والتجأ مع شرزمة من الجند الى القلعة التى كان الفرنسيون قد أقاموها فى مسجد الظاهر بيبرس ، ولكنه وجد أنه أضعف من أن يقاوم ، وسيق أخيرا مع قتلة طاهر

---

(١) المرجع السابق ص ٢٤٨ ــ ص ٢٥٠

(٢) المرجع السابق ص ٢٥٠ ــ ص ٢٥٢ ونقولا الترك ص ١٣٠ ــ ص ١٣١ .

حتى رمى عنقهم . وأذاع محمد على وابراهيم بك عفوا عاما ، وخلصت الامور للالبانيين الذين دخلوا القاهرة ، وللمماليك الذين صعدوا الى القلعة

ودعا محمد على البرديسى وابراهيم بك فدخلا مع مماليكهما الى القاهرة بعد أن اتفق محمد على ، وتسلم البرديسى الحكم فى ٦ صفر سنة ١٢١٨هـ يونية سنة ١٨٠٣م وطرد الانكشارية وقائدهم احمد باشا ، واصبح الأمر بيد المماليك ، ولكنهم لم يكونوا يعلمون الا من خلال رأى محمد على وباشارة منه ، وأخذ البرديسى يتقرب من العلماء والأعيان وقبض على خسرو وسجنه فى القلعة ، وفتح محمد على مخازن الغلال ووزعا الصدقات على الناس ، فى ذلك الوقت كان السلطان العثمانى قد عين على باشا الجزائرى واليا على مصر ، ونزل هذا الوالى الجديد الى الاسكندرية فى ٨ يولية (١) . ولم يكد البرديسى يعلم بهذا حتى جرد جيشا من عشرة آلاف ، خرج به الى الرحمانية فى أول ربيع الثانى سنة ١٢١٨هـ بينما كان على الجزائرى ينتظر المدد من السلطان ، وفى رشيد حاصرها المماليك واجبروا قوات على باشا على التسليم بينما بقى على باشا نفسه محاصرا مع قلة من جنده فى الاسكندرية .

اخذ على باشا يفكر فى الامر ، ووجد انه من الأفضل التفاهم مع المماليك فأرسل لهم (٢) ثم سار ومعه عدد من جنده ، وفطن المماليك لغرضه الحقيقى ، فترصدوه فى الطريق ثم أجبروه على التراجع ، وقبض عليه جند البرديسى (٣)

وفى ذلك الوقت اخذ المماليك يعملون على عقد الصلح مع الباب العالى ، حتى يطمئنوا من ناحيته ، وحتى يطلق يدهم فى شئون مصر ، وحينذاك لم يخف هذا على محمد على فعقد النيه على التخلص منهم . وبدأ ينتظر الفرصة المناســـــبة .

ولما عاد الألفى فى ١٢ فبراير سنة ١٨٠٤ على سفينة حربية بريطانية ، وكان الانجليز يأملون فى نجاحه فى السيطرة على شئون مصر ، ويتمكنوا هم

---

(١) كريم ثابت : محمد علا .. القاهرة ؟
(٢) نقولا الترك ص ١٤١ — ص ١٤٢ .
(٣) كريم ثابت ص ٢٤ .

بتعاونه معهم من بسط نفوذهم على سواحلها ، ويقول شفيق غربال أن الألفى هو الذى كان يوهم أنصاره أيضا أن البريطانيين يؤيدونه وذلك ليقوى من عزائمهم ، وأن الحقيقة هى أن بريطانيا كانت متضايقة من زيارته وتود أن لاتغضب تركيا ولاتمس مصالحها وحقوقها فى مصر (١) . أقول لما عاد الالفى قطع عليه مماليك البرديسى الطريق ، ولم ينج من جيوش الألفى الا بصعوبة ، واحتمى فى ضيافة أحد مشايخ العرب فى الشرقية . بينما سار اتباعه بقيادة الألفى الصغير الى الوجه القبلى ليتمكنوا من تجميع قوتهم من جديد (٢) .

وظل البرديسى يحاول القضاء على على باشا بالحيلة ، وفى نفس الوقت يكسب رضا السلطان ، فحرر مع رفاقه من بكوات المماليك رسالة الى السلطان العثمانى يتهمون فيها على باشا بأنه أشاع الفساد فى الولاية وأحيا الفتن بين الأمراء والجند ، وانه أمر الجند بنهب المدينة ثلاثة أيام ، وأنه سلب الرعية اموالها ، وأنه جمع الجند ليدخل بهم القاهرة وحينما طلبه منه المماليك دخولها بدون جند مثلما يفعل غيره من الولاة رفض واصر على الرفض ، وان هذه الفتن تسبب فى تعطيل الحج وقيام المحمل ، واشهدوا على رسالتهم هذه الأئمة والقضاة والقابجى باشا

وفى نفس الوقت ، وفى ٢٥ شوال سنة ١٢١٨ اظهروا فرمانا قالوا انه جاءهم من السلطان فيه رضى عنهم وتأييد لهم ، وطلب ابراهيم بك من الترك ومن الجند الأرنؤود أن يلبسوا ثياب المماليك ويفرقوا انفسهم بين السناجق والكشاف ، اذ الجميع قد اصبحوا يدا واحدة ، بل انه طلب منهم — كما يقول — نقولا الترك — التنازل عن مرتباتهم فالمماليك لاطاقة لهم بدفع هذه الرواتب ، والجند يستطيعون أن يعيشوا مثلما يعيش السناجق والكشاف .

حدث هذا فى الوقت الذى كان يعيث فيه الجند الألبان والارنؤود والانكشارية فسادا أرغم الناس على التزام بيوتهم خوفا على حياتهم (٣) .

---

(١) Ghorbal. The Beginning of the Egyptian Question and the Rise of Mohamed Ali. PP. 216-211.

(٢) نقولا الترك ص ١٧٩ .

(٣) نقولا الترك : ص ١٧٢ — ص ١٧٣ .

وكان للالبان مرتبات متأخرة تبلغ ثمانية أشهر ، فأخذوا يصخبون مطالبين بحقوقهم ، وتهددوا البرديسى بالثورة ، فأخذ يتودد اليهم . وفرض الضرائب على أهل القاهرة ليسد أفواههم . ولكن الجند تحفزوا للثورة (١) .

ولمح محمد على هذا التصدع فى صفوف المماليك ، وهذه الثورة المتحفزة من الجند ، فاستغل الفرصة وعمد الى توسيع شقة الخلاف بين المماليك ، وتظاهر بتأييد البرديسى ضد الألفى .

وكان مسيو ماتيودى لسبس قنصل فرنسا قد فطن الى مطامح محمد على فسعى الى التقرب اليه ، وفى ٥ مارس سنة ١٨٠٤ كتب الى تاليران أنه قد اجتمع بمحمد على وسأله عن مصير الأمور فى مصر وعما ينتويه ، فأخبره أن الجند ينتظرون مرتباتهم ، وأنه فى الوقت الذى يقبضون فيه جزء منها سيقدمون على مفاجأة . وأخبره أيضا انه لايمكن الاعتماد على المماليك ، فهم قد ارتكبوا خيانات ضد أخيهم وزميلهم وصديقهم الألفى (٢) .

نعود الى المماليك فنجدهم قد فرضوا الضرائب ، وفرضوا على قناصل الدول فى ٢٨ شوال مائة كيس لأجل خروج المحمل فاحتج القناصل وعدوا ذلك افتئاتا على حقوقهم وامتهانا لكرامتهم فأخذوا يحثون رعاياهم على الهجرة الى الاسكندرية ، وامتعض سكان القاهرة من شدة الضرائب وثارت ثائرتهم وعقدوا النية على وقاية أنفسهم من قهر الأرنؤود وعسفهم وظلم المماليك (٣) .

وفى نفس الوقت كان الألفى فى مختبئه ، والألفى الصغير فى الجيزة ، واتفق البرديسى وابراهيم بك على اغتيال محمد الألفى ، ومفاجأة الألفى الصغير فى معسكره فى الجيزة ، وذلك خوفا من مساعدة البريطانيين له ،

---

(١) كلوت بك : لمحة عامة الى مصر . ترجمة محمد مسعود . الجزء الأول . القاهرة ص ٩٦

(٢) كريم ثابت : ص ٢٦

(٣) جوان : ص ٢٦٧

وفعلا اتصلوا بمحمد على وأخبروه بعزمهم ، وجهزوا جيشا تحت قيادة حسين بك الزانطى ، وشعر الألفى الصغير بهذا ففر الى الخارج (١) .

وعبثا حاول البرديسى التفاهم مع الجند بدفع جزء من مرتباتهم ، وبدأ يظهر تضامن الجند مع الشعب ضد فرض المغارم .

وفطن محمد على أن هذه خير فرصة ، فغدا الى الأزهر حيث كانت الثورة مختمرة فيه ، ووعد الناس بكلمات طيبة ، وكفل لهم العدول عن طلب الغرامة وتعهد بذلك ثم التقى بالبرديسى وابراهيم بك وفاتحهم فى هذا الأمر ، وبذل جهده لاقناعهم ، والاعتماد على وسيلة اخرى فى جمع المال فلم يلتفتا اليه . ثم احسوا بالمكيدة .

وفى أوائل ذى الحجة سنة ١٢١٨هـ — ١٢ مارس سنة ١٨٠٤ ذهب وفد من الألبان الى البرديسى وهو يحتمى ببطارية فى أحد الحصون ، واشتبكوا مع جنده فى قتال ، ولكن البرديسى تمكن من النجاة والفرار .

وفى نفس الوقت كان فريق آخر من الالبان يحاصر دار ابراهيم بك ، ولكنه فى الصباح خرج فى رهط من أنصاره الى الرميلة تحت وابل من الرصاص

أما حسين بك الزانطى الذى كان يعسكر فى المقياس ، فقد أقلع فى جنده ليدرك البرديسى الفار .

وبذلك أضحى الجند الأرنؤود أصحاب الحل والعقد (٢) .

ولم يركن محمد على الى هذا النصر ، **أولا** لأنه أدرك أن المماليك لابد مجتمعون للتحالف ضده **وثانيا** : لأن جنده ضعيف قليل العدد لايتمكن من مقاومة المماليك والجند الاخرين ، **وثالثا** : لأن السلطان العثمانى كان ينظر اليه على أنه شريك للمماليك فى اضعاف الدولة فى مصر . فقام وعقد اجتماعا مع العلماء والأعيان ورؤساء الجند استقر فيه الرأى على اختيار خورشيد

---

(١) نقولا الترك ص ١٧٧ — ص ١٧٩

(٢) نقولا الترك . ص ١٨٥ — ص ١٨٧

باشا حاكم الاسكندرية واليا على مصر ، وذلك بعد أن قصد الى القلعة وأخرج خسرو ونادى به واليا ولكن اقرباء طاهر باشا وانصاره أغروا الالبان بخلعه ، فخلع فى ١٥ مارس وذهب الى الآستانة .

ولاية خورشيد باشا :

تولى خورشيد حكم مصر فى آخر مارس سنة ١٨٠٤ فى وقت عمت فيه الفوضى ، وانتهز المماليك الفرصة للوثوب على القاهرة ، وترقب محمد على الفرصة المناسبة ، وصدر له فرمان الولاية (١) وكان خورشيد هو الوالى الرابع فى اقل من عام واحد .

اما امراء المماليك فقد حشدوا جموعهم تحت أسوار القاهرة ، واغرقوا المراكب المشحونة بالأغذية حتى تتفشى المجاعة بين الاهالى ، واقتدى بهم العربان فى العبث والفساد واعتقادا منهم أن يد الانتقام لن تصل اليهم . وفسد الجند الترك كذلك واستحلوا الحرمات . وامست الحاجة ماسة الى وال قوى ، وكان خورشيد رجلا ورعا ، ولكنه كان يعوزه قوة الرأى وبعد النظر (٢) .

وادرك خورشيد ان محمد على هو المنافس الحقيقى له ، وأنه يجب التخلص منه ، فاستصدر **فرمانا من السلطان باستدعائه مع جنده الألبان ،** وفهم محمد على المكيدة وتظاهر بالخضوع ، وأخذ يستعد للسفر ، ولكن العلماء لم يتركوه يرحل وأخفق خورشيد فى مسعاه فدبر أمرا آخر ، وارسله الى الصعيد لمقابلة المماليك ، واخذ يدبر له المكائد أثناء غيابه وارسل الى الآستانة يطلب جيشا لمساعدته على تحقيق غرضه ، فأرسلوا له فرقة الدلاة وكانت هذه الفرقة فى حالة من الجوع والعرى جعلتها — ولمجرد أن رات مصر وخيراتها — تنهب البلاد وتسلب الأملاك ، وتزهق الأرواح ، وكان خورشيد قد شيد قبره بنفسه ، لأنه جلب بذلك سخط الشعب المصرى وزعمائه ، وعجل بعودة محمد على من الصعيد ليدخل القاهرة منتصرا بعد أن

(١) نص الفرمان . ص ٢٠٥ فى نقولا الترك .
(٢) جوان . ص ٢٧١

اصطنع زعماء الجندى بالمال والهدايا ، فى نفس الوقت الذى أمر جنده فيه بالابتعاد عن أعمال السلب والنهب ، ولكن السلطان العثمانى لم يكن يرضى بذلك ، فأصدر فرمانا بتولية محمد على ولاية جدة .

وكان محمد على قد اقتصر على جموع المماليك بقيادة البرديسى وابراهيم بك فى منية السيرج فى ١٤ ربيع الثانى سنة ١٢١٨ وبعد أن دمر المماليك الذين نصبوا خيامهم بقيادة عثمان بك حسن وبشتك بك (الألفى الصغير) خلف جبل الجيوشى فى ٣ من ربيع الثانى وادى هذا الانتصار المتتالى الى رحيل المماليك فى ٢٣ من ربيع الثانى سنة ١٢١٨ الى الوجه القبلى فقام خورشيد باشا وعين حسن بك الأرنؤودى سنجقا للصعيد .

ولحاجته الى المال فرض خورشـيد على كل من مصطفى أغا الوكيل ، وعلى كاشف الصابونجى من كبار التجار ١٥٠ كيسا ، وعلى النصارى ٤ آلاف كيس خفضت بعد الاستعطاف الى ١٤٤٠ كيسا كمافرض على الاقاليم البحرية ٦ آلاف أردب من الحنطة لارسالها للحجاز لمواجهة القحط الذى حدث فيه . كما فرض المغارم على فئات الشعب المختلفة ، وفرض ١٥٠ كيسا على نصارى الشام الواردين الى القاهرة و ٢٠٠٠ كيس على الشيوخ (١) .

ولذا فلم يكد السلطان العثمانى يصدر فرمانا بتولية محمد على جده ، حتى اجتمع الأهالى وشيوخهم وقرروا عزل خورشيد لانه عجز عن حفظ الامن . وشعر خورشيد بالخطر ، فقد قام محمد على وزحف بجنده يطالب برواتبهم المتأخرة ، وقام خورشيد بنقل مدافعه الى القلعة ، واعتقل الشيخ الشرقاوى والشيخ الفيومى ليكونا رهينة ضمانا لمسلك الشعب . خاصة عندما رأى أن الشعب أخذ يلح على محمد على فى ضرورة البقاء وعدم مغادرة مصر الى جده .

وبدلا من أن يقوم خورشيد بخطب ود محمد على ليظل محتميا بسيفه، عمل على التخلص منه .

---

(١) نقولا الترك . ص ٢١٣ — ص ٢١٧ ، وجوان ص ٢٧٢

وكان محمد على من ناحيته قد وجد أن نفور الشعب من خورشيد قد نما بسرعة نموا كبيرا ، فقرر الا يترك الفرصة تضيع ، وطلب من خورشيد ليس فقط مرتبات الجند ، بل أن يقدم له حسابا عن الاموال التى دخلت خزانة الولاية . وأن يعهد كذلك الى كتخدا بك ، وصالح أغا قائد حامية القلعة بقيادة القوات التى ستسافر الى الصعيد لمقاتلة المماليك ، فهو ينوى البقاء بالقاهرة وذلك لأنه اصابه القلق على حالة البلاد .

وكان محمد على قد أخذ يتمتع بنفوذ عظيم بين الجند وبين الأهالى ، هؤلاء الذين احبوه بسبب بعده وبعد جنده عن أعمال السلب والنهب . وساد الاعتقاد بين الناس أن محمد على هو الرجل الذى يستطيع انقاذ الموقف لو انه تولى الحكم (١) .

فقد ضاقت بهم الحال ، واشتد الكرب ، اذ عندما رأى المماليك أن مصر آلت الى خورشيد باشا ، وأن الدولة العثمانية قد شكرته لطردهم ، وأن الالفى مازال منفصلا عنهم . فانهم اتفقوا على تقسيم أنفسهم الى فريقين . فريق يبقى بالشرق ، وآخر يبقى بالغرب واتفقوا على حصار القاهرة ومنع المؤن عنها ، كما حرصوا على دفع الجند الى الدخول معهم فى معارك لعلهم ينتصرون ويحوزون السلطة ، وبدأوا ينفذون ذلك حتى ضاق الأهالى ذرعا ، وكانت الجند من ناحيتها تخشى محاربتهم (٢) ، خاصة وأنه ذاع بين الجند والناس أن مماليك الألفى قد جاءوا من الوجه القبلى مع مماليك عثمان بك حسن (٣) .

ازاء هذا الموقف المتأزم ، ذهب العلماء الى محمد على وطلبوا منه أن يكون واليا عليهم بشروطهم ، فأظهر أولا الامتناع ، ثم عاد فقبل ، ولكن خورشيد باشا لم يقبل العزل وقال انه لايعزل بأمر الفلاحين ، وانما يجب أن يكون عزله بأمر السلطان فهو والى من قبل السلطان وكان معنى ذلك

---

(١) كريم ثابت ص ٣٠ — ص ٣٥
(٢) نقولا الترك ص ٢٠٦
(٣) نقولا الترك ص ٢١٣

قيام صراع عنيف بينه وبين الشعب المصرى الذى يناصر محمدا عليا ، وحمل العلماء قرار العزل الى خورشيد فأبى ، فحاصر الشعب ومن انضم اليه من فرق الجند التى تؤيد محمد على خورشيد باشا فى القلعة ، واستمر الحصار حتى يولية سنة ١٨٠٥ ، وأخيرا وصل فرمان من السلطان فى ٩ يولية بتولية محمد على حكم مصر ازاء اصرار العلماء ، وحيث رضى بذلك العلماء والرعية، وعزل خورشيد باشا ورحل عن البلاد ، وتولى محمد على حكم مصر فى ١٣ يولية سنة ١٨٠٥ بعد أن عاهد الشعب المصرى وعلماءه على الا يفرض ضريبة جديدة ، ولايصدر أمرا من الأمور ، ولايتصرف فى شىء ، الا بعد أخذ رأى الزعماء والعلماء الذين أصبحوا مستشاربه فى حكم البلاد (١).

وبدأت مصر منذ ذلك الوقت فترة هامة من تاريخها الحديث .

(١) الجبرتى . جزء ٣ ص ٦٥ — ص ٧٦.

الفصل الرابع

بنـــاء الدولة الحديثة فى مصر

اولا : توطيد حكم محمد على فى مصر

لم يكد محمد على يتولى الحكم فى مصر فى ٢٠ ربيع أول سنة ١٢٢٠هـ الموافق ١٣ مايو سنة ١٨٠٥ بمساعدة الشعب المصرى ومعونته وتزكية زعمائه حتى فوجىء بالقلاقل تثور فى وجهه .

١ ــ فالمماليك لم يستقر لهم قرار وهم بالطبع لن يسلموا السلطة لمحمد على بسهولة ولازالوا يطمعون فى استعادة نفوذهم ومركزهم السابق ويرون انهم احق بالحكم منه وأنه دخيل على البلاد .

٢ ــ كما ان السلطان العثمانى لم يوافق على تولية محمد على الا مجبرا ، وهو بذلك لن يخضع للشعب المصرى ومن ثم فلابد أن يتحين الفرصة المناســــبة ليطيح به .

٣ ــ وانجلترا لاتزال ترنوا ببصرها نحو مصر ، وتهدف على الاقل الى اعطاء السلطة للمماليك حتى يكونوا طوع أمرها .

٤ ــ وجند محمد على كانوا من الدلاة والأرنؤود والالبانيين ، وكانت عناصر مشهورة بحب السلب والنهب ، ولذلك فقد كان محمد على فى حاجة الى جنـــد جديد .

٥ ــ ولكى يتغلب محمد على على هذه الصعوبات كان فى حاجة الى جيش حديث منظم ، وهذا الجيش لابد له من مال لدفع رواتبه ولشراء الأسلحة والمعدات ، ولما كانت الخزينة خاوية وزعماء الشعب له بالمرصاد ولن

يرضوا بفرض ضرائب جديدة ، وهو بالطبع يريد أن يحكم وليس تحت وصاية احد حتى ولو كان الشعب المصرى الذى أولاه ثقته وساعده فى الوصـــول الى الحكم . وعلى هذا أصبح تدبير المال نفسه احدى المشكلات التى واجهته .

١ ــ محمد على والسلطان العثمانى :

أما السلطان العثمانى وهو الذى وافق على تولية محمد على فقد أصبح ينتظر الفرصة المناسبة ليطرده من حكم مصر . وتولية والى آخر مكانه يصدر بتوليته فرمان من السلطان وليس بارادة الشعب المصرى ، فهذا الشعب لم يقم له السلطان أى اهتمام أو وزن منذ أن فتح السلطان سليم الأول مصر سنة ١٥١٧م ، وعلى هذا فقد بدأ السلطان يعمل على قلقلة نفوذ محمد على وتحين الفرصة المناسبة لعزله ، فأرسل السلطان العثمانى عمارة بحرية فى ١٧ يولية سنة ١٨٠٥ أى بعد استلام محمد على السلطة بنحو شهرين فقط، وكانت تتكون من ٢٥٠٠ جندى بقيادة القبطان عبد الله رامز وذلك ليراقب الحالة فى مصر حتى تتخذ تركيا فى ضوء الأحداث ما تراه موافقا لمصلحتها وخول القبطان عبد الله رامز حق عزل محمد على أو تثبيته فى الحكم حسب الظروف .

وانتهزها المماليك فرصة فاتصلوا بهذه العمارة وأرسل الألفى يعرض على رامز رغبة زملائه فى الانحياز الى صفه ليزحفوا معا الى القاهرة فينتزعونها من محمد على ، وكان الانجليز يؤيدون مطالب الألفى فأخذوا يوضحون لرامز والسلطان أن المماليك فقط هم القادرون على اعادة الأمن والنظام الى البلاد ، وأنه طالما بقى محمد على فى حكم مصر فان ذلك سيجر الى الفتنة بينه وبين المماليك ووصل الأمر الى حد التهديد بتجريد حملة لتأييد نفوذ المماليك .

أما محمد على فانه بدأ يتحرك بسرعة وأخذ يحاول اقناع عبد الله رامز بأنه مؤيد من قبل زعماء الشعب ، وأنه هو الكفيل بانتشـــال البلاد من براثن الفوضى .

ووقف عمر مكرم والشعب المصرى مع محمد على يؤيدونه فى حين حاول المماليك استمالته الى صفهم .

واسرع المماليك فى ١٦ اغسطس سنة ١٨٠٥ يوم الاحتفال بوفاء النيل الى التآمر سرا مع بعض رؤساء الجند ليسهلوا لهم دخول القاهرة للقضاء على محمد على ، وعلم محمد على بذلك واخذ يدبر لهم المكائد للايقاع بهم ورد كيدهم فاتفق مع رجاله المخلصين فى التظاهر باتفاقهم مع المماليك ، ولما دخل عثمان بك حسن واحمد بك كاشف الى القاهرة من باب الفتوح على راس جماعة من المماليك وقصدوا الى عمر مكرم رفض مقابلتهم ، فاتجهوا الى الشيخ عبد الله الشرقاوى فوافاهم عمر مكرم وصرحوا لهم بألا ينتظروا عونه فانقلبوا خائبين ، وبينما هم يتقدمون نحو الدرب الاحمر فاجأهم الجند بالرصاص فقتلوا منهم نحو الخمسين واسروا منهم نحو الثمانين قتلهم محمد على ، وانتهز هذه الفرصة واستولى على الجيزة فى سبتمبر وقضى على المماليك ، وعلى اعوان خورشيد أيضا ، وكان نجاحه هذا سببا فى أن يقتنع قبطان باشا بأنه أحق من المماليك فى الحكم فرحل عن البلاد فى أكتوبر سنة ١٨٠٥ ومعه خورشيد باشا المخلوع (١) .

٢ — تدبير الأموال :

وجد محمد على انه للحصول على المال اللازم لدفع رواتب الجند لابد من فرضه ضريبة جديدة فأخذ يقنع العلماء وزعماء الشعب بذلك ، وكان حتى ذلك الحين يرجع اليهم ولم يكن قد عزم على التخلص منهم بعد ، فان المشاكل التى كانت تواجهه كانت تستدعى منه أن يرجىء التخلص من زعماء الشعب الى وقت لاحق . ولما كان زعماء الشعب بدورهم لازالوا على حسن ظنهم بمحمد على ويرون الاخطار التى تتهدد البلاد خاصة وأن محمد على قد وعدهم بأنه سوف لايكرر فرض هذه الضريبة ، فانهم اقتنعوا بكلامه ، واستولى محمد على على ثلث فائض الالتزام ، ولكنه عندما حاول الحصول على اربعين الف ريال من ١٣ من كبار رشيد جاء هؤلاء التجار يشتكون الى

(١) كريم ثابت . ص ٣٩ — ص ٤١

الشيوخ والعلماء فتشاوروا مع محمد على واتفقوا معه على تخفيضها الى النصف (١) ، ثم عاد محمد على فطلب فى مايو سنة ١٨٠٦م قرضا من الملتزمين والتجار فتضايقوا وضاق الناس بذلك وتدخل عمر مكرم لتخفيف القرض واقسم محمد على مرة أخرى أمام كل الشيوخ على الا يعود الى فرض الضرائب . وكان هذا الموقف عاملا على ازدياد مركز عمر مكرم فى نفوس الناس وزيادة نفوذه لدى محمد على حتى أن المماليك أخذوا يوسطونه بينهم وبين محمد على ليصفوا لهم فيقطعهم جهة يقيمون بها ويستغلونها ولكن محمد على لم يكن فى الحقيقة يطمئن اليهم (٢) .

٣ ـ انجلترا تحرض السلطان على محمد على

وفى ذلك الوقت كان المماليك أصحاب النفوذ والحكم فى الصعيد ، فالألفى كان فى الفيوم وسليمان فى أسيوط ، وعثمان بك حسن فى اسنا ، وابراهيم بك الكبير فى أسيوط هو وعثمان بك البرديسى ، وحينذاك راى محمد على ان الأمر لايصفوا له بدون القضاء عليهم فجرد عليهم جيشا قويا يقوده حسن باشا الأرنؤودى وانتصر على الالفى وجعله ينسحب الى الرقه ثم الى البحيرة بينما انسحب حسن باشا الى بنى سويف ، ولكن ابراهيم البرديسى تقدم الى محاصرة المنيا فأسرع حسن باشا الى انجادهما بقيادة عابدين بك وبينما الامور تجرى هكذا بين محمد على والمماليك حدث أن انجلترا ـ وكانت قد احرزت النصر على فرنسا فى موقعة الطرف الاغر تجاه شواطىء اسبانيا وصارت صاحبة السلطان البحرى المطلق فى البحر المتوسط وبدأت تفكر فى بسط نفوذها من جديد فى مصر وبواسطة المماليك وتمكن ممثلها فى الآستانة من اقناع السلطان بعزل محمد على بحجة انه لن يخضع للسلطان ولن يدفع له الجزية ، وحاولت اقناعه باسناد الامر فى مصر للمماليك وهم سيدفعون له ١٥٠٠ كيس (٧٥٠٠ جنيه) تضمنها انجلترا ، وتضمن أيضا تعهدهم بالطاعة والولاء للسلطان وسيكسب السلطان من ذلك تقدما فى المعاملات التجارية بين انجلترا وتركيا ، وما على السلطان الا أن يوفد والى

---

(١) الجبرتى : جزء ٣ ص ٧٨ ، ص ٩١ ، ص ٩٢
(٢) المرجع السابق ص ١٢٣ ــ ص ١٢٥

تركى الى مصر ويترك للمماليك ما كان لهم من نفوذ قبل الحملة الفرنسية ، وكانت انجلترا تأمل أن يكون هؤلاء المماليك حلفاء لها ومنفذين لسيادتها فى مصر .

وكان السلطان العثمانى الذى لايزال على موقفه من محمد على ولم ينس انه صنيعة الشعب المصرى وأصبح واليا رغم انفه ، يود أن يعزله فصادف العرض البريطانى هوى فى نفسه ، فأصدر فعلا فرمانا بعزل محمد على ونقله الى ولاية سالونيك ، وعين موسى باشا واليا على مصر مكانه ، وكان موسى باشا هو الوالى الذى اقترحته انجلترا على السلطان فقد اتفقت معه على أن يسمح للمماليك بشراء الرقيق حتى يزداد نفوذهم ويستحق بذلك الانجليز ماكانوا يصبون اليه .

وجاءت الى مصر حملة بقيادة صالح باشا . وابتهج لها الالفى ، وكانت هده العمارة التى وصلت فى أول يولية سنة ١٨٠٦ تتكون من أربع بوارج وذرقاطتين وسفينتين وعلى ظهرها ثلاثة آلاف من الجنود ، وعند وصولها اسرع اليها الألفى والتقى بصالح باشا فى حوش عيسى .

أما صالح باشا فقد أرسل الى محمد على ينبئه بأوامر السلطان ويأمره بالذهاب الى سالونيك وتظاهر محمد على بالطاعة بينما تأهب سرا للمقاومة يشجعه معارضة الجند لرحيله فهم لم يقبضوا مرتباتهم وكان لهم عشرون الف كيس خافوا اذا رحل محمد على أن تضيع عليهم . وكانت تلك فرصة اتخذها محمد على ذريعة واتجه الى عمر مكرم يستنجده وافضى اليـــه بتفاصيل المؤامرة ، فقام عمر مكرم والعلماء فكتبوا التماسا للسلطان يعترضون فيه على عزل محمد على ويحتجون على تولية موسى وعلى رجوع السلطان فى قراره السابق وعلى اعطاء السلطة للمماليك لأنهم لايثقون فيهم ولا يستطيعون تحمل ضرائبهم .

أما المماليك فقـــد قاموا يحاصرون دمنهور ، ويطلبون من الأهالى تسليم المدينة ، ولكن الأهالى رفضوا وقاوموا وطلبوا النجدة من عمر مكرم .

وأما صالح الذى كان قد أرسل الى محمد على يطلب منه تنفيذ أوامر

السلطان والتزام الطاعة فانه أرسل كذلك الى عمر مكرم والى الشيخ السادات بنفس المعنى فلم يتلق منهم جوابا صريحا حيث أنهم تذرعوا بعصيان الجند ، وأن ذلك سيؤدى الى تعرض البلاد للخطر ، ولكن صالح باشا لم يقبل اعتذارهم. فعادوا اليه فى اغسطس يخبرونه انهم لايقبلون غير محمد على واليا .

وأخذ محمد على يستعد للمقاومة وجهز جنده وصادف هذا هوى فى نفوسهم كما رأينا ، وعاهدوه على الاخلاص والطاعة ، كما أخذ يحصن الطوابى ، وأنفذ حسن باشا الى الرحمانية بعد أن استدعاه من الصعيد ولكن قوات الألفى هزمت جنود محمد على فى النخيلة فى ٢١ أغسطس سنة ١٨٠٦ واستولى الألفى على الرحمانية وعاود حصار دمنهور فى حين انسحب جند محمد على الى منوف بعد أن فقدوا نحو ستمائة جندى بين قتيل واسير ، أما دمنهور فقاتلت ببسالة وأمدها عمر مكرم بالذخيرة والميرة .

وكان محمد على الذى يفهم الترك جيدا قد اتصل بحاشية صالح باشا بالهدايا والرشوة ليجذبهم الى صفه ، وفعلا نجح فى خطته ، وبدأ المماليك فى ذلك الوقت ينقسمون على أنفسهم فالبرديسى كان يحقد على الألفى ، وكان من أنصار الفرنسيين بينما كان الألفى من أنصار الانجليز كما علمنا ، وتبين لصالح باشا انه من العبث الاعتماد على المماليك فالألفى لم يستطع تأدية مبلغ الـ ١٥٠٠ كيس المتفق عليها وابراهيم بك لم يعاونه لا هو ولا البرديسى ولا عثمان بك حسن .

ولما كان السلطان قد أرسل لصالح باشا يترك له حرية التصرف فى ضوء مايراه ، فان صالح باشا اتفق مع محمد على على البقاء واليا على مصر بشرط دفع مبلغ (٤٠٠٠ كيس) وأن يكون ابنه ابراهيم رهينة لدى السلطان حتى يتم دفع هذا المبلغ ، ووصل فرمان التولية (حيث رضى بذلك العلماء والعامة وأشراف الناس حكم محمد على) (١) ورجع صالح باشا الى الآستانة فى ١٨ أكتوبر سنة ١٨٠٦ ومعه ابراهيم بعد أن ترك وكيله ليتعجل محمد على فى دفع المبلغ وفى أول نوفمبر دفعها محمد على كاملة ووصل فرمان من

---

(١) الجبرتى جزء ٣ ص ١٢٥ — ص ١٣٧

السلطان ، الأول يقره فى الحكم ، والثانى يأمره بتسفير المحمل وارسال القمح المطلوب الى جده (١) .

٤ ـــ محمد على والمماليك :

نعود فنجد أن البرديسى قد توفى فى نوفمبر سنة ١٨٠٦ ومات بعده الألفى بشهرين ، بينما احتشدت بقية قوات المماليك فى المنيا فما كان من محمد على الا أن فاجأهم بجيش من ثلاثة آلاف من الفرسان وساروا فى النيل ولكن هذه القوات لم تكد تصل الى بنى سويف حتى أرسل محمد على الى المماليك يعرض عليهم الصلح ، وهو فى الحقيقة لم يكن يريد هذا الصلح فهو لم يصف لهم وانما كان يخدعهم ، وذلك أنه كان فى الوقت نفسه يتصل بالعربان الموالين لهم يغريهم بالأموال فساعدوه وأرشدوه الى معسكراتهم فانقض عليهم على غرة وأوقع بهم واستولى على كل مدافعهم ومهماتهم وتعقب الفارين منهم الى الصحراء واحتل اسيوط واتخذ معسكره فيها ، وهنا وصلته الانباء التى اضطرب لها بشدة فقد كانت حملة فريزر على مصر (٢) .

٥ ـــ التخلص من حملة فريزر سنة ١٨٠٧م

خرجت الحملة الفرنسية من مصر كما رأينا وبعد قليل حدث الصلح بين فرنسا وتركيا فى الوقت الذى وقع الجفاء بين انجلترا وتركيا وكان ذلك داعيا لان تفكر انجلترا فى الانتقام من تركيا واتفقت مع روسيا على ذلك ورأت انها يمكنها أن تقوم بحملة على مصر أملا فى احتلال بعض أجزائها لتتمكن من الاتصال بالمماليك فتفرض حكمهم على مصر وتصبح هى نافذة الكلمة فيها ، ووضعت خطتها الى أساس أن يقوم فى الوقت نفسه جزء من الاسطول الانجليزى بتهديد بوغاز الدردنيل ، وفعلا أرسل الاسطول الانجليزى بقيادة الامير ديكوورث Dick Worth الى هذا البوغاز ،

---

(١) كريم ثابت ص ٤٣ ـــ ص ٤٦

(٢) المرجع السابق ص ٤١ ـــ ص ٤٣

وارسلت حملة الى مصر بقيادة الجنرال فريزر ولم تكن انجلترا تعلم أن الألفى قد مات .

وصلت أول طلائع الحملة الانجليزية فى شــكل سفينة واحدة فى أول مارس سنة ١٨٠٧م تلتها سفينة اخرى فى ١٤ مارس تحمل رسائل الى المماليك وتعود بعد يومين ومعها بارجة كبيرة وعدد آخر من السفن الى مياه الاسكندرية ، وقامت هذه الحملة بالاتصال سرا بأمين اغا حاكم الاسكندرية يفاوضونه سرا على نسليم المدينة اليهم ، وفى اليوم التالى وصلت ٢٥ سفينة اخرى ونزل الانجليز الى الشاطىء فى منطقة العجمى ، وبعد مفاوضة صورية سلم أمين اغا وحامية المدينة المكونة من ٣٠٠ جندى بدون مقاومة .

وكانت الحملة الانجليزية مكونة من ستة آلاف جندى وتتألف من فرقتين الاولى يقودها الجنرال ستيورات Stewart والثانية يقودها الجنرال ويكوب Wecop وكان معنى ذلك أن الانجليز يعتمدون على قوات المماليك فى مصر ويظنون انهم سوف لايجدون مقاومة حقيقية من المصريين .

وبمجرد أن علم المصريون بذلك هبوا للمقاومة ، أما محمد على فقد عمد الى الدهاء فى كسر شوكة المماليك والتخلص منهم للانجليز ، فاتفق مع المماليك على أن يترك لهم الصعيد حسب رغبتهم يحكمونه ويدفعون له الخراج ويعاونوه فى مقاومة الانجليز ، وكان يهدف من هذا أن يتصالح معهم حتى تأتى الفرصة المناسبة ، وأما المماليك فقد خشوا من اتهامهم بالخيانة لو انهم رغبوا عن الصلح مع محمد على فى الوقت الذى يهاجم فيه الانجليز مصر، والالفى كان قد مات ، وهم بدورهم لم يكونوا صادقين فى اخلاصهم وانما كانوا يضمرون التربص لمحمد على ، فان انتصر على الانجليز فهم معه وعلى خلفهم وان انتصروا هم عليه فانهم حينئذ يستطيعون الانضمام للانجليز . وهكذا كان محمد على وكان المماليك .

أ ــ فى رشــيد :

كان القنصل الانجليزى بتروتشى Petrucci قد قام باعداد تقرير حسب طلب فريزر شرح فيه حالة مصر وقوتها الحربية ، ولذلك نراه يستهين

بها فيرسل قوة صغيرة من الفين من الجنود بقيادة الجنرال ويكوب الى رشيد للاستيلاء عليها وليتخذها قاعدة حربية يزود منها جيشه ، وتحرك ويكوب فى ٢١ مارس الى رشيد وكان يحكمها رجل شجاع ثاقب الرأى مخلص فى وطنيته هو على بك السلانكلى وكان يقود حاميه من ٧٠٠ جندى ولكن الأهالى تطوعوا فى حماس للاشتراك فى الدفاع والمقاومة فوضع السلانكى خطته على اساس ابعاد المراكب الى البر الشرقى من المدينة وذلك ليمنع ارتداد الجند والاهالى اذا ماحدثتهم أنفسهم بالتسليم . ولم يكن الأهالى خائرى العزيمة بل صحت عزيمتهم على المقاومة فاتفقوا على الاعتصام بمنازلهم والتظاهر بالتسليم حتى اذا ماجاء ويكوب ورأى المدينة خاوية والشوارع خالية من الجند ظن أن الجنود هربوا منها فاطمأن الجند الانجليز والقوا سلاحهم ، وعلى حين غفلة أمطرهم الاهالى والجند بوابل من الرصاص من خلف النوافذ ومن اسطح المنازل . ثم حدث ما توقعوه فقد دب الرعب فى قلوب الانجليز وارتد من نجا منهم فى حالة يأس وفشل الى الاسكندرية بعد أن فقدوا ١٧٠ قتيلا ، ٢٥٠ جريحا ، ١٢٠ أسيرا .

وكانت التجربة التى مرت بالبلاد من قبل أثناء الصراع بين خورشيد باشا والشعب المصرى قد أظهرت أن الجند والولاة يتصفون بأعمال السلب والنهب ولايتورعون عن فعل شىء مكروه ولذلك فقد رفض أهالى رشيد أن يشترك معهم هؤلاء الجنود من الولاه ، وآثروا الاعتماد على أنفسهم ، وعلى حين أصيب المماليك بخيبة أمل شديدة أضعفت آمالهم فى نجاح الانجليز فان المصريين امتلأت قلوبهم بالحماسة والفخر .

وارسل على بك رؤوس القتلى والأسرى الى القاهرة اعلانا للنصر وحفزا للهمم وبثا للثقة فى نفس الجند والشعب .

(ب) فى القــــاهرة :

بدأ محمد على وبدأ الأهالى يسرعون فى حفر الخنادق واقامة الاستحكامات والاستعداد للقتال وتزعم عمر مكرم هذا العمل ، وكان حفر الخنادق يتم فى المنطقة بين باب الحديد وبولاق لمنع الانجليز من التقدم ودخول القاهرة من

هذه المنطقة ، وفى النيل اغرقوا المراكب أيضا بين جزيرة بولاق والشاطىء ، ونصبوا المدافع بين شبرا وامبابة وبولاق وجمع الأهالى نحو ٩٠٠ كيس ٠

اما جند محمد على فقد بدأوا يتقدمون نحو رشيد فى أربعة آلاف من المشـــاه و ١٥٠٠ من الفرسان ٠

وكان الانجليز بعد هزيمتهم السابقة فى رشيد قد أعدوا حملة أخرى بقيادة الجنرال ستيورات وضربوا الحصار حولها محاولين أن يمحوا اثر هذه الهزيمة ، ووضعوا مدافعهم حول اكام أبى مندور وأخذوا فى اطلاقها على المدينة فتهدمت الكثير من دورها وقتل الكثير من أهلها ، فأرسل نقيب الاشراف فيها حسن كريت يستنجد بعمر مكرم فاستجاب له العديد من المتطوعين وتطوع الأهالى فى حمل السلاح وجاء الناس من القاهرة بينما كان كتخدا بك نائب محمد على يعارض هذا ويطلب مده بالسلاح فقط ٠

(جـ) فى الحماد :

والى الحماد وصل استيورات على راس أربعة آلاف مقاتل مجهزين بالمدافع والاسلحة فى طريقه الى رشيد واستولى عليها وطوقها من الجنوب لمنع وصول المدد اليها والى رشيد واخذ منذ السابع من ابريل فى محاصرة رشيد واطلاق المدافع عليها ، وانتظر نجدة من المماليك ولكن ممن تأتيه النجدة . لقد مات الألفى ٠٠٠

وأخذ اهالى الحماد يناوشون الانجليز فأرسل اليها فريزر نجدة بقيادة ماكدونالد Macdonald الذى استولى على المكان الذى يحتله المصريون فى تلال أبى مندور فى ١٦ أبريل ولكن سرعان ماوصل المدد فانسحب منها ونزل المدد بقيادة طبوزاوغلى فى البر الشرقى أمام الحماد ونزل حسين باشا فى البر الغربى ، وفى ٢٠ أبريل هاجم حسن باشا الموقع الانجليزى فقتل بعضهم واسر البعض الآخر ثم وصل عدد آخر من الانجليز بقيادة ماك لويد Mac leod ولكنهم سرعان مالمسوا تفوق المصريين ، ويئســوا من وصول المدد من المماليك ففكروا فى الانسحاب ورفع الحصار عن رشيد والحماد والعودة الى الاسكندرية ولكن مددا جديدا وصل اليهم من بنى جلدتهم بأسرع

طبوزاوغلى بالانضمام الى حسن باشا وانقض على الانجليز واستولوا على الحماد وتعقبوا قوات ماك لويد اثناء انسحابها وقضوا على القوات الاخرى وقتلوا من الانجليز ٤١٦ جنديا واسروا ٤٠٠ فأدرك استيورات مايتهدده من خطر ، وماحل بجيشه من هزائم فانسحب الى الاسكندرية .

اما المصريون فقد طافوا بـ ٤٨٠ أسيرا فى شوارع القاهرة وكان من بينهم الميجور مور Moor والميجور وجلسند Wegelsend بالاضافة الى ٤٥٠ من رؤوس القتلى واسقط فى يد فريزر ورأى انه من العبث مواصلة القتال فاقتنع بالاسكندرية واخذ فى تحصينها وارسل الى المماليك مرة اخرى يذكرهم بوعود الألفى ويطلب منهم المساعدة ولكنهم كانوا اعجز من أن يساعدونه فقد تفرقت كلمتهم ومات حليفهم الألفى .

وفى الاسكندرية قطع فريزر سد أبى قير ليحيط الاسكندرية بالمياه ، وارسل الى محمد على يطلب الصلح على أن يجلوا عن الاسكندرية وحدث هذا فى الوقت الذى كان محمد على يجهز نفسه للزحف عليها .

اما الذى دعا الانجليز الى اتخاذ هذا الموقف والتراجع فقد كان بسببه تغير الحالة فى أوربا وتحولها لغير صالحها ، واندلاع الصراع عنيفا بينهما وبين نابليون وقد كان قد دانت له معظم أوربا فى ذلك الوقت وعقد الصداقة مع قيصر الروسيا الذى كان منذ وقت قريب حليفا لانجلترا ، ثم حلول الهزيمة بقواتهم فى رشيد والحماد ، وتفرق كلمة المماليك وموت الالفى . ورأت انه من الأفضل لها الانسحاب وارجاء تحقيق أملها فى مصر الى فرصة أخرى .

وابرم الاتفاق بينهم وبين محمد على فى ١٤ سبتمبر سنة ١٨٠٧ على أن يصحبوا معهم اسراهم وجرحاهم ، وتم جلاؤهم فى ١٩ منه ، وضمت الاسكندرية الى محمد على بفرمان سلطانى بعد أن كانت تتبع مباشرة السلطان وحاكمها يعين من قبله مباشرة (١) .

---

(١) الجبرتى : جزء ٣ ص ١٧٣ — ص ٢٢٠
جوان : ص ٣٥٢ — ص ٣٦٧

٦ ـ تمرد الجنـد :

رأينا فيما سبق أن الجند الذين صحبوا محمد على ، والذين بقوا فى مصر بعد رحيل خورشيد خاصة فرقة الدلاة كانوا من نوع ردىء ، فالدلاة تعنى عناصر مجنونة والأرنؤود ليسوا خيرا والجميع ظالمون عاثوا فسادا فى البلاد ونهبوا وسلبوا وتمردوا ، فاذا عرفنا أن محمد على لم يعطهم مرتباتهم لقلة المال لديه أدركنا ما سيؤول اليه الامر . فقد اعتاد هؤلاء الجند السلب والفساد ، وتجمهروا فى ٢٩ اكتوبر سنة ١٨٠٧ بل وهاجموا محمد على فى قصره بالازبكية واطلقوا النار على أبواب القصر والنوافذ حتى فزع الناس ، وكان ذلك داعيا لان يدرك محمد على أنه لابد من التخلص منهم ، فانتقل اولا سرا الى القلعة لانها كانت اكثر تحصيناولما استمرت هذه الفتنة اسبوعا تدخل عمر مكرم والعلماء وبحثوا الامر بين محمد على والجند واتفقوا على أن يقبض الجند جزءا من مرتباتهم قدروه بألفى كيس وبالطبع جمعها محمد على من التجار والملاك واصحاب الحرف ، الا أن محمد على لم يأمن جانبهم بعد فقام بنفى رجب اغا أحد رؤساء الجند الأرنؤود فهو كان اشدهم نزوعا الى العصـــيان (١) .

كان ذلك الموقف سببا فى أن يفكر محمد على فى التخلص منهم فهم جند غير نظامية متمردة لم ينظروا الى محمد على بعين الاحترام كوالى لمصر بل عدوه رجلا منهم ، وكانت الحروب التى خاضها محمد على فى بلاد العرب وفى السودان فرصة تخلص فيها من جزء كبير منهم وبدأ يؤســـس جيشـــه الحديث .

٧ ـ القضاء على الزعامة الشـــعبية :

لم يكن محمد على ـ وهو الرجل الذى حاز حكم مصر بالحيلة ـ ليرضى ان يكون تحت مراقبة زعماء الشعب المصرى ، حتى وان كان هؤلاء الزعماء والعلماء هم الذين ساعدوه على تولى الحكم والتغلب على المحن التى واجهته ، وهو الان تخلص من هذه المحن ولم يعد بحاجة الى هؤلاء الزعماء

---

(١) الجبرتى : ص ٢٢٠ ـ ص ٢٢٦ .

ويريد أن تكون له الكلمة المطلقة فى حكم البلاد ، وهو الرجل الذى يريد ان ينشىء فى مصر دولة عصرية ، ولا يهمه أن يكون تدخل زعماء الشعب وعلمائه شرعيا وعادلا فهو لايريد الا السلطان المطلق ، وهناك حقيقة يجب أن ندركها وهى أن زعماء الشعب المصرى انفسهم هم الذين هدموا أنفسهم بأنفسهم بعد ان دب الحسد والتنافس والمطامع الشخصية فى نفوسهم وبعد ان نقموا على عمر مكرم ما اصبح يتمتع به من منزلة فى نفوس الناس .

وكانت البداية عندما اراد محمد على فرض ضريبة الميرى سنة ١٨٠٩ على الاراضى الموقوفة وعلى أراضى الوسية التى كانت ملكا خاصا للملتزمين ، كما بحث موضوع أطيان الرزق (الموقوفة للفقراء) والاوقاف ، وقرر تحصيل نصف الفائض من الالتزام ، وحدث هذا فى الوقت الذى تعرضت فيه البلاد لضائقة اقتصادية بسبب نقص مياه النيل فى اغسطس سنة ١٨٠٨ ، وبعد أن تعهد محمد على للزعماء بعدم فرض ضرائب بدون موافقتهم .

حينذاك تبرم الملاك ونظار الاوقاف والمستحقون والملتزمون وذهبوا لمقابلة العلماء ليوسطونهم فى الامر وعقد العلماء مؤتمرا فى ٢٠ يونية سنة ١٨٠٩ وتداولوا الراى واستقروا على ضرورة الاعتراض على هذه الاعمال وتقدموا بعريضة احتجاج الى محمد على ، وعلم محمد على بذلك وضاق به ، وضاق بهذه السلطة والتدخل الذى يأخذ بخناقه وارسل سكرتيرة الخاص ديوان افندى ليتعرف أولا على نيات العلماء والشيوخ فوجد منهم أولا اتحادا فى الراى والكلمة واصرارا على موقفهم وعدم مقابلة محمد على والاكتفاء بعرض شكايتهم عليه .

حينذاك ادرك محمد على انه لابد من القضاء عليهم وتفتيت كلمتهم ، فأخذ يدبر المكائد لفصم عرى هذا الاتحاد ، ولكى يفتت الكلمة تداول مع الشيخين المهدى والدواخلى وناظر المهمات محمد افندى طبل ، واتفق على أن يذهب الشيخان ليبرئا محمد على مما نسب اليه ، وسرعان ما فطن عمر مكرم الى هذه المكيدة فالزم الشيخين الحجة ، وبرهن لهما بما تحت يديه من أوراق على صحة مانسب الى محمد على .

ولكن محمد على وقد ادرك أن عمر مكرم رجل لاتلين له قناة بدأ يخشاه

وبدأ يعمل فى الوقت نفسه للتخلص منه فبدأ أولا يقرب اليه أصحاب المظاهر وطلاّب المصالح والمنافع من الشيوخ وخاصة عندما هدد عمر مكرم بالكتابة الى السلطان واثارة الشعب على محمد على بل وعزله ان اقتضى الامر . وهو الذى أصر على رايه وعلى عدم مقابلة محمد على واستشاط محمد على غضبا فى الوقت الذى اكتشف فيه مايحمله هذان الشيخان من حسد لعمر مكرم ، فكلفهما وللمرة الثالثة الاتصال به وكان هدفه من ذلك ادخال الرهبة فى قلوب الشيوخ وحتى يذعن عمر مكرم لامر محمد على او يسجلا عليه العصيان، وتكررت المحاولات ولكن عمر مكرم اقسم لهما انه لايطلع لمحمد على القلعة ، ولايرى وجهه حتى يبطل ما أحدثه .

وجد العلماء انه لابد من مفاوضة محمد على فى أمر ابطال هذه الضرائب فوافق ولكن بشرط أن يأخذ ربع فائض الالتزام ولكن عمر مكرم أصر على ضرورة ابطال الضرائب كلها . فجرب محمد على مع عمر مكرم أسلوبا آخر وحاول اغراءه بالمال وارسل اليه وكيله يعرض عليه ٥ جنيهات يوميا ، ١٥٠٠ جنيه فورا فلم يقبل اذ لم يكن بالرجل الذى يغريه المال بعكس غيره ، وهو لم يقف هذا الموقف الا ايمانا برسالته وحرصا على مصلحة وطنه والامانة التى حملها اياه الشعب وهى أن يكون المتحدث باسمه والمدافع عنه وعن حقوقه أمام الطغيان والاستبداد .

وبدلا من تراجع محمد على ، وبدلا من ترابط العلماء واتحاد كلمتهم ، بدأت رسل السوء تعمل على توسيع شقة الخلاف بين محمد على وعمر مكرم ، وأخذ محمد على يحيط الشيخ بجواسيسه ولما فكر محمد على فى أن يرسل الى السلطان تقريرا بأنه صرف أربعة الاف كيس فى أوجه مختلفة من الاصلاحات وأرسل التقرير الى عمر مكرم لتوقيعه رفض بل واظهر الشك فى محتويات التقرير ، واشتد حنق محمد على فنزل فى ٩ اغسطس الى منزل ابنه ابراهيم وارسل الى القاضى والعلماء والى عمر مكرم ليحتكم الجميع بينهما فادرك عمر مكرم المؤامرة اذ لن يحكم هؤلاء له حتى ولو كان محقا فى موقفه . وطبعا اعتذر عن الحضور بمرضه فما كان من محمد على الا أن أمر بحضور هؤلاء بعزل عمر مكرم عن نقابة الاشراف ونفيه عن القاهرة فتشفع

له العلماء على أن يسافر الى مسقط راسه أسيوط فرفض محمد على وأمر أن يكون النفى اما الى دمياط أو الى الاسكندرية ورحب عمر مكرم بالعزل والنفى ولكنه رجا ان يكون خروجه الى طرابلس أو الى الطور فرفض محمد على ، وخرج عمر مكرم الى دمياط تاركا للشيخ احمد المحروقى ادارة املاكه ورعاية اهل بيته ، وعاش فى دمياط تحت المراقبة الى أن تشفع له قاضى قضاة مصر صديق افندى ، فاذن له محمد على بالانتقال الى طنطا بعد أن قضى فى دمياط أربع سنوات ، وقضى فى طنطا سبع سنوات حتى ديسمبر سنة ١٨١٨ ثم طلب الاذن بالحج فأذن له محمد على وكان فى قمة سلطانه ولم يخش عمر مكرم ، بل وسمح له بالعودة الى القاهرة حتى يحين أوان الحـــج .

وفى القاهرة تبين لمحمد على ان حب الناس له لم ينقص بل ازداد فقد قابلوه بترحاب وأسرع اليه الشعراء يرحبون به ، حتى اذا فرض محمد على ضراب جديدة على المنازل فى القاهرة بعد ان كان قد فرضها على المدن الاخرى قامت الفتنة والهياج سنة ١٨٢٢ ووقعت المصادمات بين الأهالى والموظفين الذين أوكل اليهم محمد على تقدير هذه الضريبة ، فظن محمد على ان عمر مكرم وراء هذه الفتنة فنفاه مرة أخرى الى طنطا وارسل اليه يطلب السفر حالا فتلقى هذه المحنة بصبر تم توفى فى نفس السنة (١) .

٨ ــ مذبحة القلعة والقضاء على المماليك :

هكذا لم يبق أمام محمد على بعد عمر مكرم سوى بقايا المماليك ، فوجد محمد على انه لابد من القضاء عليهم تماما ليصبح مطلق اليد فى شئون مصر ويستطيع تنفيذ مايريد من مشروعات ويحصل على المال من الموارد المختلفة دون معارضـــة من أحد .

وكان المماليك قد اتفقوا مع محمد على كما رأينا على أن يحكموا الصعيد

---

(١) الرافعى : مصر المجاهدة فى العصر الجديث . الحلقة الاولى ص ٢١٦ ــص ٢٢٥

على أن يؤول اليهم خراج الفيوم وثلاثين قرية فى البهنسا وعشرة قرى في الجيزة بشرط أن يؤدوا اليه ماعليها من ضرائب الميرى ويعطونه خراج مايبقى من الصعيد ، وأعطى أيضا محمد على لشاهين بك الالفى خليفة محمد الالفى قصرا فى الجيزة فى ديسمبر سنة ١٨٠٧ فحذا حذوه الكثير من بكوات المماليك ، وهكذا استقر الامر فى الصعيد .

ولكن كان هناك رجال من كبارهم مثل ابراهيم بك وعثمان بك حسن وكانا من زعماء المماليك دون منافس وظلا يشكان فى محمد على ويضمران له الكراهية ويريان انه لن يسلم لهما بسهولة فقد علمتهما التجربة انه لن يصفوا لهما ولن يرضى ببقاء المماليك ليشاركونه السلطة ، ومحمد على بدوره كان يعلم ما بنفسهما .

والآن وقد تخلص محمد على من الحملة الانجليزية فقد بدأ يتجه الى التخلص منهم ، فأخذ يوقع بينهم وخاصة بين هذين الزعيمين فأخذ يخلع عليهما ويجتذبهما الى صفه وكان كثير من المماليك الاخرين يفضلون قبول الامر الواقع ولكن بما أنهم لم يؤدوا ما عليهم من مال الميرى فقد أخذ محمد على يتهددهم مما جعل شاهين بك يتوسط بينهم على أن يؤدى المماليك ثلث ماعليهم وقد قدر بـ ١٠٧ آلاف أردب ومع ذلك فلم يؤدوه فجرد عليهم حملة فى سبتمبر ١٨٠٩ فانسحبوا الى الجبال القريبة من جرجا واسيوط فطلبوا الصلح فاشترط عليهم مغادرة الصعيد والقدوم الى القاهرة والاقامة فيها وقبلوا بعد ثلاثة شهور قضوا فيها مصالحهم ساروا الى القاهرة وعسكر ابراهيم بك فى الجيزة ولكنه امتعض من المقابلة التى قوبل بها اذ لم تطلق المدافع لتحيته فانسل من الجيزة عائدا الى الصعيد بعد أن اقتنع شاهين بك بنقض الصلح وتبعهما كثير من المماليك (١) .

وهكذا تجدد النزاع وجرد عليهم محمد على جيشا هزمهم فى البهنسا واللاهون واستولى على الفيوم فانسحبوا الى أسوان بينما عاد شاهين بك يطلب العفو فعفا عنه محمد على واقطعه دارا جميلة فى الازبكية ولكنه كان يدبر فى نفسه أمرا .

---

(١) الجبرتى جزء ٣ ص ٢٤٣ — ص ٢٧٤

عاش المماليك فى القاهرة فى رغد وأخلدوا الى الترف والهدوء . أما محمد على فقد انتهز فرصة تقليد ابنه طوسون قيادة الحملة الموجهة الى بلاد العرب سنة ١٨١١ فأقام مهرجانا عظيما لتقليده ودعا أمراء المماليك مع بقية الكشاف والامراء لحضور هذا المهرجان واستقبلهم بترحاب فى قاعة الاستقبال ، واعتذر من حضر من المماليك عن تخلف بقية زملائهم فى الصعيد فتظاهر محمد على بقبول الاعتذار ، ولما بدأ موكب الحفل سار فى مقدمة الطابور فرسان الدلاة ثم مشاتهم يليهم فرسان المماليك ثم بقية الجند من الأرنؤود ، ولم يكد الموكب يخرج من باب الغرب حتى استمر الباب مفتوحا ليخرج الفوج الأول من الجنود وكذلك رئيس الشرطة والمحافظ والوجاقلية ثم أغلق الباب فجأة قبل أن يخرج أى من المماليك فلما رأوا الباب قد أغلق تضامت صفوفهم واستعدوا للقتال ، ولكن الجند الذين كانوا قد تسوروا القلعة واسوارها أمطروهم بوابل من الرصاص فلم يستطيعوا الدفاع عن أنفسهم اذ لم يكونوا يحملون سوى السيوف ، وماهى الا ساعات حتى انتهت المجزرة عن مقتل ٤٧٠ منهم ولم ينجح سوى أمين بك الذى قفز بفرسه واستطاع النجاة بينما قتل الفرس وسار فى الصحراء حتى وصل سورية .

وفى شوارع القاهرة أخذ الجنود ينهبون البيوت ويفتشون نساء المماليك حتى بلغ عدد البيوت التى نهبوها خمسمائة منزل واستمر هذا النهب يومين حتى نزل محمد على الى المدينة لوضع حدا لهذا النهب .

وفى الاقاليم صدرت أوامر محمد على بقتل المماليك . أما ابراهيم فحين بلغه نبأ الفاجعة سار مع بقية المماليك الى النوبة ودنقلة بينما فر نحو ستين مملوكا الى سورية (١) .

هذا وقد كثر الحديث حول هذه المذبحة فمنهم من يلتمس العذر لمحمد على ومنهم من يعيب عليه ذلك .

ترى ما رايك عزيزى القارى ؟؟ وما حكم التاريخ ؟؟
الى هنا وانفرد محمد على بالسلطة ..

---

(١) الجبرتى : جزء ٣ ص ٣١٩ — ص ٣٢٢

ثانيا : بناء القوة الحربية فى مصر

(١) الجيش

كانت القوة العسكرية فى مصر فى بداية القرن الثامن عشر تتكون من عدد من الفرق هى سبع متفرقة — جراكسة — جونللويان — تفنكشيان — عزبان — انكشارية (تنكجرية) وجاويشان وكان عدد أوجاق متفرقة نحو الفين من الخياله وكانت تؤلف حرس الوالى وفرقة عزبان ويتراوح عددها بين ثلاثة آلاف بينما كانت الانكشارية تضم نحو ستة آلاف تقريبا ، وكان يضاف الى هذا الفرق قوة أخرى من الاعراب يبلغ عددها نحو عشرين الفا ، ولكن هذه القوة لم تكن نظامية وشكلت خطرا يهدد الامن وحياة السكان ، واستعان بها المماليك (فرقة الاعراب) اثناء الحملة الفرنسية على مصر ثم سرعان ما اصاب هذه الفرق الضعف بسبب الحرب والقتال وما يستدعيه ذلك من مداومة التدريب والتسليح والتمشى مع النظم الحديثة فى الحروب وتطورها وكذلك بسبب انصراف الناس عن الجندية بل وبيع هؤلاء الأجناد رواتبهم وتزاوجهم مع المصريات وانشغالهم أحيانا بأعمال تجارية (١) .

وعندما جاءت الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٧٩٨ كانت قوة المماليك وهى التى تؤلف العنصر المحارب فى ذلك الوقت لاتزيد عن ٨٥٠٠ رجل من بكوات المماليك الكشافين والمعتوقين والمماليك العبيد ، وكان هؤلاء اما انصار لابراهيم بك وكان يمتلك ٦٠٠ منهم واما انصار لمراد بك وكان يمتلك ٤٠٠ منهم ، وكان الباقى مقسما بين ١٨ بيتا يضم كل بيت منهم ما يتراوح بين ٥٠ ، ٢٠٠ مملوك بالاضافة الى عدد آخر من المماليك المستقلين لاتعرف تبعيتهم لاحد .

ولم يكن المماليك يعرفون نظام المشاه لان هذا النظام كان محتقرا عندهم ، ولما استقر الامر لمحمد على فى مصر سنة ١٨٠٥ لم يكن لمصر فى ذلك الوقت جيش مؤلف من أبنائها وانما كان الجيش الذى اعتمد عليه محمد على فى ذلك

---

(١) عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الاثار فى التراجم والاخبار جزء اول . دار الفارس ببيروت ص١ — ص٦٥ .

الوقت يتكون من عناصر من الترك والالبانيين والدلاة والسوريين والمغاربة والانكشارية ، وكان هؤلاء الجند لايمتون بصلة لاهل البلاد ولايشعرون بشعورهم ولايؤلفون معهم وحدة فى العواطف والاغراض ، وهم مع ذلك عرفوا بالشهامة فى القتال ولكنهم لم يكونوا يألفون شيئا ولم يشبوا على نظام ثابت بل كانت حياتهم مشبعة بالفوضى والاثرة واشتهروا بالسطو وارتكاب الرذائل ، فأدرك محمد على أن هذه العناصر لن تفيده بل قد تكون خطرا عليه ، وهو الرجل الذى يعمل لتكوين دولة مستقلة فى مصر ، دولة حديثة قوية ، وهو لابد سيلاقى الصعوبات والعداء فى سبيل ذلك فرأى التخلص من تلك الطغمة الفاسدة لكى يكون له جيش حديث . ولكن كيف السبيل الى ذلك ومصر تزدحم بهؤلاء الجنود بالاضافة الى الحامية العثمانية وعددها نحو عشرة الاف من المشاة ونسعة آلاف من الفرسان و ١٢٠٠ من رجال المدفعية .

ومصر بدون جيش لن تستطيع أن تقف على قدميها فى وسط الصراع والاطماع الخارجية ، فانجلترا تقف لمصر بالمرصاد ، وتركيا لن تسمح لمحمد على بالخروج على طاعتها ، والاستقلال بشئون مصر ، وروسيا والنمسا لن تخرج من هذا الصراع صفر اليدين ، وفرنسا لن تترك انجلترا تنفرد بمصر . ومحمد على لن يستطيع أن يحقق آماله بهذا الجيش الذى يرفض النظام الحديث والتدريب الحديث ، والذى لم يتعود الطاعة وهى قوام الجيوش الحديثـــة .

اذن فماذا يفعل محمد على ؟ ايكتفى بهذا الجيش وخطره أشد من منفعته؟؟ أم يقضى عليه ويكون جيشا حديثا ؟

ولكن من اين له برجال هذا الجيش وقد رأى أن مصر بدون جيش وطنى، وانما هى تعتمد على العناصر الاجنبية منذ مئات السنين .

بدأ محمد على يفكر . وهداه تفكيره الى الاستعانة بالخبرة الفرنسية ، فقد سرحت القوات الفرنسية التى كانت تقاتل مع بونابرت فى فرنسا بعد هزيمته فى وترلو ، وهذه العناصر قد اكتسبت خبرة فى الحروب الحديثة المعاصرة ، ويمكن لمحمد على أن يفتح السودان ويحصل منه على الجند اللازم

لجيشه ، كما يمكن له الاستعانة بعناصر تركية ومملوكية شابه تكون نواة الضباط الذين يحتاج اليهم . ولم يطل محمد على التفكير فجرب أولا تدريب هذه العناصر الموجودة لديه على النظم الحديثة ولكنهم ثاروا وتمردوا عليه ونجا من ثورتهم هذه بفضل عابدين بك الذى أخبره بمؤامرة الجند ضده (١) .

ولما خبر محمد على الجند الفرنسى اطمأن اليه ، فقد صحب ابنه ابراهيم ضابط فرنسى يدعى فيسيير Vaissiére فى أثناء حملته على الحجاز لمحاربة الوهابيين ، واثبت هذا الضابط من الكفاءة والاخلاص ما أدخل الاطمئنان والثقة الى نفس محمد على ، ثم أن ضابطا آخر هو انتلم سيف Anthelme Save جاء الى محمد على بتوصية فاقبل محمد على على التجربة الجديدة بعزيمة قوية (٢) .

وكان أول ما فعله محمد على هو توزيع قواته المتمردة على الثغور فى شمال الدلتا ليبعدهم عن القاهرة حتى لايكونوا مصدر قلق له ، كما قضى على جزء منهم مع حروبه فى بلاد المغرب وفى السودان .

وكانت الخطوة التالية هى أن عندما فتح السودان سنة ١٨٢٠ جلب منه نحو ثلاثين الف سودانى حاول ان يكون منهم جيشا ولكن المرض انتشر بينهم حتى كاد أن يقضى عليهم جميعا وفشل فى هذه التجربة .

وكان من الطبيعى أن يفكر محمد على فى الامر . فوجد ان افضل فرصة هو أن يجرب أهل البلاد ويعتمد عليهم فأخذ يستدعى التعليمجية من أوربا وسرعان ماوصل اليه الفوج الاول وعلى رأسه الرجل الذى اعتمد عليه واقترنت شهرته بانشاء نواة الجيش الحديث هو الكولونيل الذى أخلص فى عمله ونجح نجاحا باهرا ووصل الى أرقى مناصب الجيش وحاز ثقة محمد على واسلم وتسمى سليمان (٣) .

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر جزء ٣ القاهرة سنة ١٩٢٩ ص ٣٦٣ — ٣٦٧

(٢) كرابيتيس : ابراهيم باشا . ترجمة محمد بدران القاهرة ؛ ص٢٧

(٣) جورجى زيدان : تراجم مشاهير الشرق فى القرن التاسع عشر . جزء أول طبعة ٣ القاهرة سنة ١٩٢٢ ص ١٤٤ — ص ١٤٨

وبدأ سليمان التجربة مع اربعمائة من مماليك محمد على وكذلك عدد آخر من مماليك كبار المصريين وابناء محمد على نفسه وعلى راسهم ابنه ابراهيم وبلغ عدد هؤلاء الف شخص تكونت منهم نواة الجيش بعد أن تخرج هؤلاء ضباطا له ، ورأى محمد على بثاقب نظره أن يكون المعسكر الأول لهذا الجيش فى اسوان بعيدا عن القاهرة وما فيها من لهو وعبث حيث اقام لهم أربع من الثكنات الفسيحة .

ومع ذلك فلم تكن التجربة سهلة خيالية من الصعاب فان الضباط الذين صحبوا ابراهيم الى بلاد العرب عارضوا هذه التجربة فضرب لهم ابراهيم مثلا رائعا فى الطاعة والنظام ، فقد انخرط فى التجربة جنديا عاديا واستجاب لرغبة سيف فى أن يطيعه طاعة عمياء تثبيتا للضبط والربط فى الجيش ، كما أن المصريين لم يكونوا مستعدين للطاعة والامتثال للاوامر من معلمين اجانب ، ولم يتعودوا على الجندية منذ قرون عديدة ، ولم يرق لهم السمت والنظام اثناء المناورات ، حتى أنهم دبروا المؤامرات لاغتيال سيف ولكنهم فشلوا واثبت لهم سيف من الرباطة والجأش ما اخجلهم وجعلهم يحبونه بعد قليل ، ويصبحوا مثالا للطاعة والنظام .

وكان ابراهيم باشا خير عون لسيف بطاعته ومساهمته الفعالة فى دراسة الأسلحة والحركات العسكرية الحديثة (١) .

هذا وقد نقلت هذه التجربة بعد ذلك الى أماكن أخرى من أسوان الى اسنا الى أخميم ثم اخيرا الى بنى عدى قرب منفلوط ، وتم تدريب هؤلاء الضباط فى نهايةشهر ديسمبر سنة ١٨٢٢ فأصبحوا مع مطلع عام ١٨٢٣ رؤساء لست أورط عسكرية من الجند المصريين (٢) .

وبعد أن رأى المصريين حسن الرعاية والعناية فى المأكل والملبس ، ورأى اهل القرى أن من جند عاد وقد لبس بدلة انيقة نظيفة يعتز بها

---

(١) كلوت بك ص٣١٨ ــ ص٣١٩ الجزء الثانى .

(٢) عبد الرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر جزء ٣ القاهرة سنة ١٩٢٩ ص ٣٦٧ ــ ص٣٦٨ .

وعاد وقد ألم بثقافة جعلتــه يتيه عــلى غيره من بنى جلدته ، بـدأ الناس رويدا رويدا تخف معارضتهم للجندية ومقاومتهم للتجنيد وتهربهم من الجنــدية ، واســـتطاع محمد على أن يدرب مع نهــاية عـــام ١٨٢٣ ست آلايات يشــتمل كل الاى على خمس أورط وتتألف الاورطة من ٨٠٠ جندى وبذلك أصبح عدد الجيــش فى هــذا العــام ٢٤ ألف جندى بدأ محمد على يوزعه على المراكز الحربية فى سنار وكردفان والحجاز وبلاد اليونان ثم بدأ فى تجنيد القوة الثانية فى بنى عدى من ثلاثة آلايات من المشــــاة (١) .

وبدأت كفاءة الجندى المصرى تظهر بوضوح وأبدى من الكفاءة والبسالة والتفوق ما جعله يعلو على غيره من العناصر التى اشتركت معه فى الحروب، وزاد هذا لما أخذ محمد على ينعم على المتفوقين ويشجعهم ويكافئهم .

واخيرا وجد محمد على انه من الافضل أن يقيم معسكر التجنيد قرب القاهرة فاختار أولا أثر النبى بالجيزة ثم نقله الى القبة لتعرض المكان الاول لمياه الفيضان ثم نقله الى الخانكة وأبى زعبل ليكون بعيدا عن الملاهى وسمى هذا المعسكر (جهاد اباد) وتخرجت الدفعة الثانية فى أغسطس سنة ١٨٢٥ وتم تدريب القوة الثالثة فى نهاية عام ١٨٢٥ ، من ثلاثة آلايات أيضا وكانت تلك الجيوش سببا فى علو شأن محمد على عندما أثبتت كفاءة فى حرب المورة سنة ١٨٢٧ مما أثار حنق وحقد الدول على هذه القوة النامية وخاصة انجلترا ، فهذه الدولة حرصت منذ الحملة الفرنسية على الا تقوم فى مصر دولة قوية ولذلك نراها قد تآمرت ضد الجيش المصرى فى حرب المورة فأجبرت محمد على على ســحبه ، ثم تآمرت ضد أسطوله فاشتركت مع فرنسا ودمرته فى نوارين سنة ١٨٢٧ ، ولكن وبرغم ذلك فان الجيش جعل لمصر صوتا مسموعا ومنزلة بعد أن خاض حربا بنجاح واكتسب فيها المران على فنون القتــال الحديثة المعاصرة (٢) .

المدارس العســــكرية :

الى هنا ولم يكن الامر كافيا ، فان الجيش الحديث يحتاج الى قيادة

---

(١) كلوت بك ص٣١٣ — ص٣١٤ الجزء الثانى

(٢) عبد الرحمن زكى : الجيش المصرى فى عهد محمد على باشا . الطبعة الاولى القــاهرة ١٩٣٩ ص٣٨ — ص٤٠

واعية ، ويحتاج الى أسلحة حديثة ، ويحتاج الى جهاز فني فيه الطبيب وفيه الكاتب وفيه الامام وفيه المهندس المخطط للقتال ، كما انه يحتاج الى غذاء وملبس والى ثكنات صحية ، ثم الى خبرات متطورة وفق نظم القتال (١)

وكان محمد على رجلا ذكيا يؤمن ان الخبرة المستوردة والعتاد المستورد لافائدة منه فى كل الاحوال . واذن فلابد من أن يعتمد على نفسه ، وبدلا من أنيكون تحت رحمة الدول يمكنه أن يوفر ذلك فى مصر بأيدى مصرية ، فأنشأ ديوان الجهادية ليدير شئون الجند وشئون تعليمهم واضبط حركاتهم وبناء الثكنات لهم والمستشفيات لعلاجهم ، وليعيد لهم المهمات التى يحتاجون اليها والاغذية التى يتناولونها وليشرف على تصنيع الاسلحة اللازمة لهم وأصبح هذا الديوان — لاهميته — يتلقى الاوامر من محمد على رأسا وذلك ليتولى تنفيذها فورا ، وأسند رئاسة هذا الديوان الى رجل كفؤ هو محمد بك لازغلو ، ووجد سيف من هذا الرجل ومن هذا الديوان التعاون فهو رجل كان على جانب كبير من الكفاءة والجدارة وقوة الشخصية .

وكان جيش محمد على يتلقى أصول تدريبه وتسليحه على أحدث النظم الفرنسية فقد كان الاشراف عليه وتدريبه مسندا الى رجال وفنيين وخبراء فرنسيين ولذلك نراهم أيضا يطبقون القوانين واللوائح الفرنسية تطبيقا دقيقا محكما ، ونجد محمد على يسند الى من يقوم بترجمة القانون العسكرى الفرنسى الى اللغة التركية للعمل بمقتضاه ، وحتى البعثات كانت ترسل الى فرنسا .

اخذت البعثات الفرنسية تتوالى الى محمد على البعثة تلو الأخرى فهذه بعثة من ست ضباط سنة ١٨٢٤ وثانية من سبع ضباط سنة ١٨٢٥ وثالثة سنة ١٨٢٩ من ست آخرين ووضع محمد على أمامهم كافة التسهيلات ومنحهم المرتبات العالية ووفر لهم سبل المعيشة الميسرة وترك لهم حرية التدين . ومع البعثة الاولى جاءت خمسمائة بندقية هدية من ملك فرنسا .

---

(١) الطهطاوى : مناهج الالباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية : القاهرة سنة ١٩٠٤ دراسة وتحقيق محمد عمارة ص٣٤٨

وقام الجنرال بوييه Beer Boyer بتاسيس مدرسة اركان الحرب ، واعد مشروعا لتنظيم سلاح المدفعية وسلاح المهندسين ، ثم تخلى عن منصبه لجشعه ومعه تسعه من الضباط فى ١٤ اغسطس سنة ١٨٢٦ وعادوا الى فرنسا .

المدارس :

وكان لابد من فتح مدارس لتعليم الفنون العسكرية فاستدعى محمد على عددا من المدرسين والاطباء والصيادلة والمدربين استعان بهم فى فتح العديد من المدارس — العسكرية وللاشراف على المستشفيات ، وتم هذا العمل تحت اشراف ديوان المدارس الذى اسندت رئاسته الى مختار بك وبدأت المدرسة الحربية فى أسوان فى ٢٥ يناير سنة ١٨٢٢م ، ثم مدرسة فرشوط العسكرية فى ٢٦ فبراير سنة ١٨٢٢ وثالثة فى قصر العينى وكانت مدرسة أعدادية اختير لها اكثر من ٥٠٠ من ابناء الترك والمصريين ليتعلموا فيها اللغات والرسم والحساب والهندسة وبعد ذلك دخلوا مدرسة اركان الحرب ومدرسة المهندسين وكانت تسمى مدرسة الجهادية ، واشرف كلوت بك على انشاء مدرسة الطب ، وكانت مدرستا التجهيز والطب تتبعان مدرسة الجهادية واقام ايضا محمد على مجلسا صحيا من مشاهير الاطباء برئاسة كلوت بك ، كما انشـأ مدرسة الطب البيطرى سنة ١٨٣٧ على يد م . هامون ثم انشئت مدرسة المشاه فى سنة ١٨٣٢ التى نقلت الى دمياط كما أنشئت فى جرجا سنة ١٨٣٢ مدرسة البيادة تلقى فيها التلاميد مبادىء مهاجمة الحصون والدفاع عنها ودرسوا الطبوغرافيا (الجغرافيا العسكرية) ونظريات وحركات البيادة ونظم البوليس والحاميات والبلوكات ، كما درس تلاميذتها اللغات والحساب وكذلك مدرسة السوارى فى قصر مراد بك لتعليم الفنون العسكرية والموسيقى وفنون الفروسية ، وفى طرة سنة ١٨٣١ أنشئت مدرسة المدفعية على يد الكلونيل دون أنطونيو تلقى فيها التلاميذ اللغات والرياضة والرسم ومبادىء علم المدفعية والحق بها مستشفى خاص عسكرى وساعدت هذه المدرسة على تقدم سلاح المدفعية فى الجيش وكان يلحق بها مدرسة المهندسين العسكريين الذين يشرفون على اعمال هندسة النزع والالغام والكبارى والطرق والاستحكامات .

وكان محمد على قد استعان سنة ١٨٢١ بعثمان نور الدين أحد أعضاء البعثة المصرية الى فرنسا فى انشاء مدرسة أركان الحرب فى الخانكة واسندت ادارتها الى المهندس الفرنسى بلانا Planat سنة ١٨٢٥ لدراسة علوم المدفعية والاستحكامات والمساحة والاستكشاف والرياضة واللغة الفرنسية وعلوم الاستراتيجية والطبيعة والكيمياء والجغرافيا والتاريخ العسكرى وكذلك اهتم محمد على بمدرسة الموسيقى فى الخانكة (١) .

واصبح هذا الجيش الضخم يحتاج الى سلاح والى ملابس فاقام محمد على المصانع لامداد الجيش بالسلاح وآلات القتال والملابس والطرابيش ، واقام له معامل البارود فى جزيرة الروضة وبدأت هذه المعامل تتعدد تحت اشراف المسيو مارتل وكانت تسمى (كهراجالات) واقيمت فى القاهرة والبدرشين والاشمونيين والفيوم وأهناسيا والطرانة (٢) .

البعـوث :

ارسل محمد على البعوث الى فرنسا للاطلاع والتدريب ونقل العلوم والثقافة العسكرية الحديثة ، وخرجت أول بعثة سنة ١٨١٣ للتخصص فى الشئون العسكرية وكان من رجالها مصطفى مختار بك ناظر المعارف ومحمد مظهر ناظر مدرسة المدفعية بطرة واحمد يكن مصطفى القللى رائد صناعة الذخيرة فى مصر ، وفى البعثة الثانية سنة ١٨١٨ نبغ عثمان نور الدين الذى اصبح رئيس العمارة البحرية سنة ١٨٢٨ وفى البعثة الثالثة سنة ١٨٢٦ كان الهدف هو الصبغة الصناعية العلمية وتخصص بعض طلبتها فى الادارة البحرية ، وفى البعثة الرابعة سنة ١٨٤٤ ذهب ٧٠ طالبا فيهم بعض ابنائه وأحفاده ، وبلغ من عمق هذه العلاقات بين مصر وفرنسا أن اقامت فرنسا من اجلهم المدرسة المصرية الحربية فى باريس تحت رئاسة وزير الحربية الفرنسية وعين لها الاميرال بوانسو Poincot ناظرا ، وكانت للتخصص فى العلوم الحربية ونبغ من تلاميذها احمد حلمى والخديو اسماعيل والامراء حسن ومحمد

---

(١) احمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى عهد محمد على . القاهرة ١٩٣٨ ص٣٨٦ — ٤٢٠

(٢) كريم ثابت : محمد على ص ١١١ — ص ١١٣

عبد الحليم وعلى ابراهيم باشا الذى يرجع اليه الفضل فى نهضة التعليم فى عهد اسماعيل باشا وعلى مبارك ، ومحمد شريف الوزير المعروف (١) .

ميزانية الجيش :

ولما كان محمد على يعرف مكانة الجيش فى الدولة الحديثة وان سعادة الوطن وقوته وعزته فى سعادة الجيش وقوته فلم يبخل على الجيش بالاموال الطائلة لانه كان يعلم انه سيبلغ بجيشه القوى المركز الذى خلق له ، وفى اقل من ربع قرن اعد جيشا قويا منظما جيد التعليم والتدريب حسن التسليح تخشى الدول بأسه وتضعف تركيا أمامه ، ووجد فى ابنه ابراهيم قائدا كفؤا ورأسا مفكرا .

ونظرة الى ميزانية مصر سنة ١٨٣٢ نجد أن ايراداتها كانت ٦٢٫٧٧٨٫٧٥٠ فرنكا ، وبلغت جملة المصروفات ٥٠٫٠٠٠٫٠٠٠ منها ١٥ مليون فرنك للجيش ، وواحد ونصف مليون فرنك للاسطول اى انه كان يصرف على القوة الحربية اكثر من نصف المصروفات و $\frac{5}{12}$ من جملة ايرادات البلاد (٢) .

الاهتمام بالحصون :

وبقدر ما أعد محمد على جيشه ليكون قوة هجومية بقدر ما اهتم بتحصين البلاد وبخطة الدفاع عنها ، فقد اقام فى قلعة الجبل (بدأ تأسيسها صلاح الدين) فأعاد اليها الحياة ودب فيها النشاط وأصلح أسوارها وابراجها وأبوابها ، وشيد فيها قصر الجوهرة وبنى بها الثكنات للجند ومصانع للذخيرة والاسلحة ، وعلى جبل المقطم اقام قلعة حصينة شيد بها صهريجا لخزن المياه العذبة على النمط التركى وكان هذا الحصن مربعا ضيق النطاق يستند

---

(١) عمر طوسون : البعثات العلمية فى عهد محمد على ثم فى عهدى عباس وسعيد . الاسكندرية ١٩٣٤ — ص١٠ — ص٢٠٤ ، كلوت بك. ص٥١٠ ص ٥١٥ .

(٢) كلوت بك . جزء ٢ ص ٥٢٢

الى سور من الحجر فى وسطه برج محصن بالمدافع ، كما حصن الاسكندرية وشيد بها الطوابى والقلاع واستفاد بخبرة جاليس بك وهو مهندس عسكرى فرنسى ، وبلغ عدد القلاع التى أقامها فى الاسكندرية ١٦ طابية عليها ٣٣٠ مدفعا ، ٥١ هاونا سنة ١٨٤٠ زاد عددها سنة ١٨٥٥ الى ٢٤ طابية بالاضافة الى قلعة برج الظافر عليها ٦١٧ مدفعا و ٦٩ هاونا .

ولما تولى ابراهيم الحكم بعد أبيه أخذ فى استكمال هذه الاستحكامات والقلاع والحصون فى أبى قير والعجمى ومقابر اليهود ، وأمر باستكشاف ساحل مصر الشمالى من الاسكندرية الى العريش وأقام طريقا عسكريا من طابية القبارى الى باب العرب (١) .

عـــدد الجيش :

وفى سنة ١٨٢٨ بلغ عدد الجيش المصرى ٤١٤٤ من رجال المدفعية ، ١٣٠٠ من رجال الهندسة العسكرية ، ١١٠ر٥٣٠ من المشاه يشرف عليهم هيئة طبية من ٦ أطباء ، ويخدمهم خمسة من الكتبة ، ويؤمهم للصلاة امام .

وكان هذا الجيش موزعا بين المورة والسودان والقاهره والحجاز .

تم زاد عدد الجيش سنة ١٨٣٢ الى ٢٦٨ر٨٨٩ جنديا من مختلف الاسلحة وفى سنة ١٨٣٧ نقص عدده الى ٩٦ر٩٩ جنديا من المشاه ، ١١ر٦٠٠ من رجال المدفعية ، ١١ر٦٨٤ من الفرسان ، ٢ر٩٤٢ من المهندسين ، ثم زاد مرة أخرى سنة ١٨٣٩ الى ٢٣٥ر٨٨٠ من الجند كان منهم ٤٢ر٦٧٨ من الجند غير النظامية (الباشى بوزوق) (٢) .

(٢) الاســـطول

بدأ محمد على يفكر جديا فى انشاء الاسطول منذ تجريده بلاد العرب

---

(١) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار جزء ٢ القاهرة ص ٢٥٨ .

(٢) لمحة عامة الى مصر جزء ٢ ص ٥٥٢

للقضاء على الثورة الوهابية ، فقد كان نقل الجنود يحتاج الى سفن تنقلهم الى جدة وينبع ، ولم يكن عنده من السفن مايحقق هذه المطالب ، فبدأ يطلب من السلطان الاخشاب وبدأ يأمر بجمع الخشب من أنحاء مصر وتم صنع خمس عشرة سفينة كبيرة تم صنعها من خشب شجر التوت والنبق والخشب المستورد من لبنان بأمر السلطان ، وكانت هذه السفن تصنع أجزاءا فى بولاق وتحمل على ظهور الابل الى السويس حيث تنزل الى البحر فتركب وتصبح السفينة جاهزة لنقل الركاب ، وهكذا بدأت أول ترسانة لصناعة السفن حيث اجتمع العديد من النجارين والنشارين والحدادين (١) .

وكان هذا الاسطول عبارة عن أربع سفن من النوع الكبير المعروف باسم (الابريق) ، واحدى عشرة سفينة من النوع المعروف باسم (الشونة) ، واشرف محمد على بنفسه على صنعه ثم بدأ بعدها يشترى السفن الاوربية وبوصى بانشاء سفن لحسابه فى الموانى الاوربية مثل مرسيليا وليفورن وتريستا وجهزها بالمدافع وعهد بقيادتها الى قباطنة السفن التجارية فى الاسكندرية والى قباطنة من الترك وجلب لها الفلاحين المتطوعين (٢) ، واستدعى لها الضباط الفرنسيين والايطاليين ليشرفوا عليها وايضا ليعلموا البحارة المصريين وليعدوهم لهذا العمل .

وكانت هناك فى الاسكندرية ترسانة قديمة لصناعة السفن أراد محمد على احياءها فعهد الى رجل من أهل الاسكندرية يدعى شاكر للاشراف عليها ، وكان يعاونه مهندس بارع فى صناعة السفن هو الحاج عمر جعله محمد على رئيسا لهذه الترسانة واستعان بخبرة القبطان الفرنسى مسيو بيسو Besson وكان قد حضر الى مصر سنة ١٨٢١ وعرض خدماته على محمد على وجعله ملاحظا لهذه الصناعة ومشرفا على السفن التى طلب محمد على صناعتها فى موانى أوربا ، وسرعان مانال هذا الرجل ثقة محمد على .

واذا كان محمد على قد جعل للجيش ديوانا خاصا وادارة خاصة فانه أيضا جعل للاسطول ادارة خاصة اسند رئاستها للاميرال محرم بك

---

(١) عجائب الاثار فى التراجم والاخبار .. الجزء الثالث ص ٢٧٨ .

(٢) تقويم النيل .. جزء ٣ ص٣٢٣ ، ص٣٢٩ ، ٣٣١ ، ٣٣٣ ، ٣٣٦

بجانب عمله كمحافظ للاسكندرية ولكن هذا الاسطول لم يسلم كما رأينا من خبث السياسة البريطانية اذ تآمرت عليه فى نوارين ، ولذا فلم يجد محمد على بدا من انشاء اسطول جديد ، وتم له هذا العمل بفضل مهندس فرنسى آخر هو دى سريزى كان صاحب مصانع لصناعة السفن فى طولون ، وعهد اليه محمد على بانشاء دار صناعة بحرية فى الاسكندرية على مساحة ستين فدانا على مواجهة البحر ويبلغ طولها نصف ميل وجعل بها حوضا لصناعة السفن يصنع أكبر الاحجام واصبح الحاج عمر مساعدا له (١) .

وكعادته حرص على أن تكون هذه الصناعة وطنية حتى يستغنى عن الخارج وأن تتم بسرعة ، وفعلا وضع دى سريزى Cerisy مشروعه وشيد دار الصناعة البحرية وسرعان ماأصبحت الاسكندرية تضارع طولون ، وكلف دى سريزى بتدريب المصريين على هذه الصناعة ليحلوا محل الاجانب بمجرد اتقان هذه الصناعة (٢) .

وفى ٣ يناير سنة ١٨٣١ نزلت الى البحر أول سفينة مصرية من هذه الترسانة وبعد قليل بدأ المصريون يحلون محل الخبراء الأجانب ، ثم جاء موجيل بك ليؤسس مدرسة للملاحة ، وبالادارة القومية والمثابرة على العمل تم فى أربع سنوات بناء أسطول من ٣٠ قطعة بكل منها مائة مدفع وسبع قطع بكل منها ستون مدفعا وثلاث بواخر . وأصبح يعمل على هذا الاسطول ثمانية عشر الف بحار منهم ٨٠٠ ضابط ، وكان يعمل فى هذه الترسانة ثمانية الاف عامل . وبدأ محمد على أيضا يدرب البحارة المصريين على الخدمة فى هذا الاسطول والقتال فى معسكرات تدريب أنشأها لهم الى الشرق من رأس التين ، وفى مستشفى خاصى فى جزيرة رأس التين ، وآخر فى الترسانة كان يعالج هؤلاء الجنود ويعد الضباط الأطباء اللازمين لهم .

ولم يقف محمد على سواء فى اسطوله أو فى جيشه عند الخبرة الفرنسية فقط بل استعان كذلك بالخبرة الانجليزية ، فأوفد البعوث الى فرنسا والى

---

(١) الوقائع المصرية العدد ٤٦ فى ٢٤ صفر سنة ١٢٤٥ والعدد ٤٧ صفر سنة ١٢٤٥ .

(٢) تقويم النيل جزء ٣ — ص ٤٣٢ .

انجلترا لتتدرب على الفنون الحربية فوق ظهر السفن الحربية ، فالمعروف أن البحرية الانجليزية كانت أكثر تقدما من البحرية الفرنسية ، وعلى العكس كان الاثر الفرنسى على الجيش هو الغالب (١) .

وقام المهندس مظهر باشا بانشاء فنار الاسكندرية فى راس التين لارشاد السفن وكان هذا عملا عظيما أداه محمد على لمصر استطاع به أن يؤسس امبراطورية حديثة .

وكانت الترسانة التى أقامها محمد على فى الاسكندرية تضم خمس عشرة قسما كل قسم منها عبارة عن (ورشة) تعد جزءا من الصناعة اللازمة للسفينة وتجهيزها (٢) .

وقد جلب الاخشاب اللازمة لصناعة السفن من مصر اذ كلف العمال بقطع اشجار عديدة من النبق والتوت وحصل ايضا من الآستانة على اذن بجلب الخشب من غابات الاناضول وأشرف على هذه العملية الحاج حسن بك كبير نجارى الترسانة ورجل يدعى أحمد كان من عمالها (٣) .

الصـــعوبات التى واجهت محمد على :

كانت بيوت الصناعة الاوربية تريد أن تحتكر صناعة السفن وايراداتها ولذلك ساءها أقدام محمد على على تصنيع السفن فى مصر فأخذت تدس لمسيو دى سريزى وتذيع اشاعات السوء بأن مشروع محمد على قد فشل وذلك لتثبيط عزيمة العمال والفنيين الذين أسند اليهم محمد على تدريب العمال المصريين ورياسة الاقسام الصناعية وحضهم كذلك على الثـــورة والعصيان وفعلا حدثت بعض الاضطرابات ولكن اليأس لم يدخل الى قلب محمد على ومهندسه دى سريزى فاستمر العمل بهمة ونشاط وقابل هذه

---

(١) تقويم النيل جزء ٣ ص٤٢١ ، ٤٣١ ، ٤٨٤

(٢) اسماعيل سرهنك (باشا) : حقائق الاخبار عن دول البحار جزء/٢ ص ٢٤٢

(٣) تقويم النيل جزء ٢ طبعة أولى ص ٤٨٧ ـــ ٤٩٠ .

الدسائس بارادة قوية وأخذ دى سريزى يمنع السرقات ويعاقب المقصرين واهتم بتعليم المصريين هذه الصناعة فاستطاع بعد قليل الاستغناء عن عدد كبير من العمال المتيرين للشغب .

والمؤامرة الثانية كانت تغالى التجار الاوربيين فى أثمان المهمات والادوات التى كان يجلبها محمد على من الخارج .

أما الصعوبة الثالثة فهى رداءة الخشب الذى كان يجلب من الاناضول وايطاليا لانه كان غير مستوف شروط الجودة والمتانة فكان العطب يسرى سريعا الى السفن مما استوجب انشاء مجلس يناط به صيانة هذه السفن (١)

ســـــفن الاسطول :

استطاع محمد على أن يكون اسطولا من بارجتين كبيرتين ذات ثلاثة أسطح تحمل كلا منهما مائة مدفع وأربع بوارج كبيرة ذات مائة مدفع وبارجة ذات ٨٦ مدفعا وخمس سفن تحمل الواحدة مابين ٤ ، ٢٤ مدفعا وبارجتين ضخمتين هما حلب ودمشق .

أما السفن التى قام بترميمها فكانت سبع فرقاطات تم صنعها فى موانى أوربا والاسكندرية وكذلك ١٤ سفينة وأربع سفن من نوع النقالات وغنم فى حربه مع السلطان فرقاطة وسفينة من نوع الابريق وأخرى من نـــوع (القوطر)وباخرة تسمى (النيل) (٢) .

وفى أواخر أيام محمد على استخدم البخار فى تسيير السفن فأمر محمد علي بصناعة سفن بخارية منها (وابور النيل) واسيوط ورشيد وجيلان .

كما أنشأ محمد على أيضا عددا من سفن النقل جعل لها ادارة خاصة

---

(١) الرافعى : تاريخ الحركة القومية ص٤١٠ — ص٤١١

(٢) تقويم النيل جزء ٣, ص٣٦٥.

تولى رئاستها محمد قراقيش وبعده محمد راشد بك ثم أوزون أحمد قبودان (١) .

الاهتمام بالعلوم البحرية

أنشأ محمد على مدرسة بحرية بثغر الاسكندرية لتخريج الضباط كما ترجم العلوم البحرية وأنشأ مكتبة تحوى الكثير من العلوم البحرية ، ونبغ من هذه المدرسة كثير من الضباط البحريين الذين رفعوا علم مصر عاليا فوق ظهر البحار ، كما أرسل البعثات البحرية الى فرنسا وانجلترا وقام كثير منهم بترجمة الكثير من القوانين واللوائح والنظامات البحرية المستعملة فى سفن وأساطيل فرنسا وانجلترا ونشرت هذه الكتب بين ضباط البحرية (٢).

ومن أجل هذه الصناعة اهتم محمد على بتوسيع ميناء الاسكندرية وتعميقه وجعله صالحا لدخول السفن التجارية الاوربية فأدى ذلك الى نشاط حركة التجارة فيها ، كما أنشأ بها حوضا لترميم السفن أشرف عليه موجيل بك سنة ١٨٤٤ كما مد سكة حديد تصل مستودعات البضائع والغلال بالرصيف لتسهيل نقلها الى السفن . وظهر فى عهد محمد على كثير من رجال البحرية المشهورين امثال الامير اسماعيل بك ومحرم بك وعثمان نور الدين باشا .

ثالثا : نظام الحكم

لعل أقل ما يوصف به عهد محمد على ، أنه عهد قام على الاستقرار وخلص مصر من تلك الفوضى التى ضربت أطنابها فى البلاد سنوات عديدة تلك الفوضى التى خلقت هذه الطبقة الواعية من العلماء وزعماء الشعب والتى وقفت درعا لمصر تحميها من تحكم الولاة العثمانيين وظلمهم لاهل البلاد كما قاومت البكوات المماليك وطغيانهم بقدر ما قاومت الفرنسيين ، ولعبت دورا رئيسيا لاينكره أحد فى تولية محمد على حكم مصر ، الا انه بدلا

---

(١) الوقائع . العدد ١٨٢ فى ربيع الاول ١٢٤٦هـ والعدد ١٩٤ فى ١١ ربيع الثانى ١٢٤٦هـ .

(٢) تقويم النيل . جزء ٣ ص٤٨٥ — ص٤٨٧

من ان يجعل محمد على هذه الطبقة عونه فى حكم البلاد رايناه يعمل للتخلص منها ، وينكر عليها حقها فى تمثيل الشعب المصرى تمثيلا حقيقيا فى حكومته الجديدة ، فبدأ يدبر لها المكائد تارة ويصانعها تارة أخرى حتى قضى عليها ولما ثبت له زعيمها الأكبر عمر مكرم نفاه خارج القاهرة ثم انفرد بالحكم ، انفرد ليحكم هذه الدولة الحديثة التى انشأها فى مصر حكما استبداديا مستعينا بقوته الحربية التى أنشأها فى البلاد وبجهاز استشارى أنشأه لم يكن له من السلطة الا اسمها فقط وجهاز بيروقراطى ادارى ساعد على استتباب الامن والنظام فى البلاد ، ففى القلعة انشأ محمد على الديوان العالى كان يرأسه بنفسه أو يراسه نائبه وكان هذا الديوان يجتمع بانتظام لينظر فى العرائض التى تقدم له ويدرس الشئون الحكومية المهمة قبل بدء تنفيذها ، وبرئاسة ابنه ابراهيم اقام (الديوان الخاص) أو كما يسمى أحيانا المجلس المخصوص سنة ١٨٤٧ وذلك للنظر فى شئون البلاد الكبرى ولاصدار القوانين والتعليمات لمصالح الحكومة . أما (مجلس الشورى) الذى كان قد أقامه سنة ١٨٢٩ فقد كان يجتمع مرة واحدة فى السنة ، وكان مجلسا مسلوب السلطة لم يظهر له أثر فى توجيه ادارة البلاد ومع أنه كان يمثل الشعب بصفة ما حيث تألف من ١٦٥ عضوا ولكنهم كانوا معينين وليسوا منتخبين منهم ٣٣ من كبار الموظفين والعلماء و ٢٤ من مأمورى الاقاليم و ٩٩ من كبار أعيان البلاد ثم أنه لم يدم طويلا ولم يظهر له أثر فى ادارة البلاد ولم ينعقد فى عهد عباس أو سـعيد .

ورأى محمد على أن خير وسيلة لتحسين الادارة هى توزيع الاعمال الادارية على نظارات (وزارات) مختلفة اختار لكل منها رجلا كفؤا كان يعينه المجلس المخصوص ولكن هؤلاء كانوا غالبا اما من الترك أو من الاجانب ، وجعل للاشراف على أعمال الادارة فى مصر مجلس خاص يستشيره فى الشئون الهامة وجعل لكل ادارة فى الحكومة ديوان خاص فهناك ديوان الجهادية وديوان المدارس وديوان البحرية وديوان الايرادات وديوان الامور الخارجية وديوان الفابريقات وكانت كلها فروع للديوان العالى ولكل منها مجلس فنى يتكون من الاخصائيين ويراس هذه المجالس ويشرف عليها (مجلس شورى الامة) الذى كان يجتمع فيه كل رؤساء الادارات المختلفة .

وكان محمد على قد قام بمسح الاراضى فى سنة ١٨١٣ وقسم البلاد الى سبع مديريات ، أربع فى الوجه البحرى وثلاث فى الوجه القبلى ويشرف على كل منها مدير هذه المديريات تقسم على عدد من المراكز يراسها مأمورو المراكز وكانت مهمتهم مراقبة الزراعة وجمع الأموال والمحصولات وأنفار الترعة والاشراف على عدد من القرى والاقسام حيث كان كل مركز يقسم الى عدد من الاقسام يشرف على كل قسم (ناظر) وكان كل قسم يضم عددا من القرى يحكمها العمدة وشيخ البلد ويساعدهما الخولى لمسح الاراضى الزراعية والصراف لجمع الميرى والشاهد (المأذون) وحلاق الصحة للاشراف على الشئون الصحية . أما المدير فكان يتلقى الأوامر من محمد على فينفذها ويراقب تنفيذها فى مديريته كما كان يراقب أعمال الرى .

أما القاهرة والاسكندرية ودمياط ورشيد والسويس فقد جعلت مدنا مستقلة وسميت محافظة يحكم كل منها المحافظ يساعده ضابط (مدير الامن) واذا كان هذا النظام الذى أجراه محمد على لم يبلغ حد الكمال وقام على الاستبداد فانه بما عرف عن محمد على من حزم أدى الى تقدم البلاد والارتقاء بالجهاز الادارى (١) .

رابعا : تدعيم اقتصاديات البلاد

عندما وصل محمد على الى الحكم فى مصر وجد أن مصر البلد الزراعى من قديم الازل قد انحطت فيها الزراعة واقفرت فيها مساحات واسعة وهبط المزروع من أرضها الى ٣٫٦٨٥٫٦١٣ فدانا وقل عدد سكانها حتى وصل الى ٣٫٤٣٠٫٠٠٠ نسمة واهمل الرى وقلت العناية بذلك النهر العظيم شريان الحياة فى مصر طوال العصور فبدأ على الفور يعمل لاصلاح هذا المورد الطبيعى للانتاج فى مصر وأعنى به الرى .

أ ــ الرى :

كان أول ما عمد اليه محمد على هو اصلاح نظام الرى الذى اهمل

---

(١) الرافعى : تاريخ الحركة القومية . جزء ٣ ص ٥٧٠ ــ ص ٦٠٠

فى القرون السابقة بشكل واسع وحول مساحات الزراعة فى الوجه البحرى الى الرى الدائم وبدأ يغير نظام الرى الحوضى فى الوجه القبلى الى الرى الدائم ، وكان ذلك يستدعى منه تطهير الترع حتى يتسع مجراها لتحمل كميات كبيرة من المياه ولكن هذا العمل قصر دون الرجاء فعمد الى النيل نفسه ليرفع من مناسيب مياهه وكانت تلك المجموعة الكبيرة من الترع والقناطر حتى اننا لنستطيع أن نقول أن ما نرى الان من ترع وفروع للنيل فى مصر أو قناطر أو جسور كان من عمل محمد على أو من تفكيره على الاقل . وكان أعظم هذه المجموعة هو بناء القناطر الخيرية عند تفرع النيل عند راس الدلتا ليضمن للوجه البحرى كله الرى الدائم . وكانت بداية لتلك السلسلة من الترع والرياحات التى تحمل المياه الى الأراضى الواسعة فى الدلتا . وبدأ بناء تلك القناطر سنة ١٨٣٣ بمعرفة مسيو لينان تم توقف بعد قليل ليستانف من جديد سنة ١٨٤٢ عندما بداه مسيو موجيل Mogel ومات محمد على قبل أن يتم المشروع وأدرك خلفاؤه اهمية هذه القناطر فأكملوها واقام بها سعيد باشا القلعة السعيدية ثم تمت تقويتها سنة ١٨٨٧ فى عهد الخديو توفيق وتبين بعد ذلك وجود بعض الخلل بها فأقيمت الى الشمال منها وعلى بعد أمتار قايلة القناطر الخيرية التى افتتحت سنة ١٩٣٩ وعرفت القناطر القديمة باسم قناطر محمد على .

وفى الوجه القبلى حفر محمد على ترعة الابراهيمية التى تمتد من جنوب أسيوط وحتى الجيزة ويخرج منها عند ديروط بحر يوسف ليروى منطقة الفيوم ، وكذلك يعزى لمحمد على ذلك المشروع العظيم وهو ترعة المحمودية التى ساعدت على تقدم الاسكندرية فى الثروة والعمران وفى اصلاح مساحات واسعة من الاراضى الزراعية ، ولكنه اذا كان هذا المشروع قد أفاد كثيرا ويعتبر من الاعمال العظيمة الا أن محمد على استخدم « السخرة » فى حفر هذه الترعة التى انتهى العمل فيها سنة ١٨١٩ بعد أن هلك فى حفرها ١٢ الف عامل فى عشرة شهور بسبب قلة الزاد والمؤونة وبلغ عدد العمال الذين استخدمهم محمد على فى حفرها ٣١٣ الف عامل من الفلاحين اخذوا من مديريات الوجه البحرى والجيزة (١) . كذلك تمت فى عهده ترع الخطاطبة

---

(١) عجائب الاثار فى التراجم والاخبار جزء ٣ طبعة بيروت ص ٥٦٠ — ص ٥٦١

والمنصورية والشرقاوية والنعناعية والباجورية والوادى والباسوسية في الوجه البحرى وفى الوجه القبلى ، ترع البرانقة والفشن والمرعشلى والرمادى وكانت هناك ترعة تسمى ترعة الفرعونية تصل بين فرعى دمياط ورشيد فتحمل المياه من الاول الى الثانى فتلحق الضرر بالاراضى شرقى فرع دمياط وبخاصة شمالى المنصورة واشتكى السكان من ذلك فأمر محمد على بسد هذه الترعة بجسر من الحجارة وأمر بحفر عدة ترع لتمد أراضى البحيرة بالمياه ليعوض خسارتها فى المياه بعد سد ترعة الفرعونية . ووجد محمد على انه يمكن الاستفادة من بحيرة أبى قير فأمر بسد الفتحة التى تصلها بالبحر وبدأت تجفف البحيرة تدريجيا وتحولت الى أراضى زراعية .

وكانت نتيجة ذلك كله أن زادت المساحة المنزرعة فى مصر فاصبحت بنسبة فدان لكل شخص واحد ثم عادت ونقصت سنة ١٨٨١ فأصبحت فدان واحد لكل ثلاثة اشخاص بعد ما زاد عدد السكان بينما لم يمكن زيادة المساحة المنزرعة بنفس النسبة .

ب ــ الزراعة :

التفت محمد على الى الارض الزراعية وانتاجها واخذ ينظم فرض الضرائب عليها وطرق جبايتها فاعتبر نفسه مالكا لكل الاراضى الزراعية فى مصر باعتباره نائبا للسلطان خليفة المسلمين وبدأ يوزعها على السكان فأعطى كل فلاح مابين ٣ الى ٥ افدنة وترك لمشايخ القرى ٤٪ من مجموع أراضى القرى ثمنا لقيامهم بضيافة عمال الحكومة ومادام الفلاح يدفع ماعليه من الضرائب فله حق التمتع بزراعة الارض وانتاجها وأمد محمد على الفلاح بالآلات والمواشى ومياه الرى وحدد عن طريق مأمورو المراكز المساحة الواجبه زراعتها لكل محصول الا انه احتكر انتاج الارض فأجبر الفلاح على توريد انتاج ارضه بالكامل لمحمد على فيقدر ثمنه ويأخذ جزءا من الثمن نظير ضريبة الخراج ويعطيه الباقى ، وكان محمد على يقدر الثمن حسب مشيئته وبعدها كان الفلاح يشترى مايحتاجه من خزائن الدولة بالسعر الذى يحدده محمد على أيضا .

ولما كان محمد على فى حاجة الى ادخال صناعات حديثة وهذه الصناعات

تحتاج الى المواد الخام فانه عندما وجد أن القطن كان يزرع بمصر منذ زمن بعيد من نوع غير جيد وبكمية لاتكفى الحاجة فانه عنى بادخال الانواع الجديدة من القطن وتوسع فى زراعته وكان المسيو جوميل الذى استقدمه محمد على من فرنسا سنة ١٨٢١ ليستعين به فى تنظيم مصانع الغزل والنسيج فى مصر قد عثر على قطن من نوع جيد فى حدائق محو بك بمحض الصدفة فأعجبه وعرضه على محمد على وأشار بالتوسع فى زراعته فأدرك ببعد نظره مايعود على البلاد من ذلك فعمل على تنشيط زراعته وتشجيع الفلاحين على ذلك فاشترى منهم المحصول بثمن مرتفع وبعد سنوات قلائل انتشرت زراعة القطن وخاصة بعد ما استورد نوعا آخر من امريكا وأصبح القطن المصرى يحتل منزلة رفيعة وتهافتت على طلبه مصانع الغزل فى فرنسا وإنجلترا وزاد انتاجه فبعد أن كان محصوله (سنة ١٨٢١) ٩٤٤ قنطارا وصل بعد ست سنوات ٢٠٠ر٣٤ قنطارا ثم وثب وثبة سريعة سنة ١٨٦٦ أثناء الحرب الأهلية الامريكية عنـــدما قلت زراعته فى أمريكا واصبح القطن المصرى وحتى اليوم الدعامة الاولى للزراعة فى مصر بعد أن كان القصب والقمح يحتلان المرتبة الأولى . واستمرت التجارب لادخال الانواع الجيدة وتحسينها وخاصة بعد ما أدخلت الجمعية الزراعية الملكية القطن طويل التيلة وبجانب زراعة القطن ادخلت محصولات أخرى مثل النيلة (الاصباغ) والدخان والكتان لانتاج خيوط التيل كما شجع محمد على زراعة التوت لتربية دودة القز من أجل خيوط الحرير (١) .

جـ ـ الضرائب :

ابطل محمد على نظام الالتزام فى جمع الضرائب وكان هذا النظام معمولا به فى مصر منذ عصر المماليك ويقوم على اساس أن يتكفل من يريد من اكابر البلد بتحصيل الخراج للحكومة فى بلدة معينة أو عدة بلاد بالمزايدة أو بالاتفاق فيدفع للخزينة مال سنة واحدة مقدما ويعطى وثيقة الالتزام فيصبح له بعدها حق التصرف فى القرية لانه كان يحل محل الحكومة فى السيادة فى دائرة

---

(١) كريم ثابت : محمد على . ص٢٥٧ ــ ص٢٦٢ ، من ص ٢٧٣ ــ ص ٢٧٥ .

التزامه وأصبح يتصرف فى جباية الاموال كيف يشاء ويعطى نظير ذلك قطعة ارض عرفت باسم (الوسية) يزرعها الفلاحون وبعد أن كان يعطى الالتزام فى بداية الامر لمدة محدودة صار بعد ذلك يعطى طوال الحياة ثم أصبح يورث وزاد عدد الملتزمين حتى بلغ ستة آلاف ملتزم ، ولما جاء محمد على الغى هذا النظام واعطى الملتزمين راتبا معينا ولما قام الملتزمون فى الصعيد بثورة ضد محمد على ضم أراضى الوسية التى يملكونها الى الدولة أما أراضى الوسية بالوجه البحرى فقد تركها لاصحابها ، واحترم أراضى الاوقاف ولكنه عزل ما عليها من نظار وعلماء وعين نفسه ناظرا عليها وتعهد بتنفيذ الشعائر التى تتطلبها هذه الاوقاف وعين للشيوخ راتبا سنويا ولم يتعرض للعقار الموقوف والحدائق . واخذ محمد على ضريبة الخراج (الميرى) على الارض من كل فلاح ما عدا (الابعاديات) وهى الاراضى الواسعة التى منحها للضباط وكبار رجال الدولة واختلف تقدير هذه الضرائب على حسب جودة الارض وقد تراوحت بين ٢٤ ، ٤١ ، ٦٠ قرشا للفلاح على الفدان ولما الغى نظام الالتزام اتبع النظام التضامنى فى جمع الضرائب ومعناه أن يلتزم سكان القرية الواحدة بدفع الضريبة عن قريتهم متضامنين فيدفع القادر عن غير القادر كما كانت ضريبة الرؤوس وهى التى سميت (فرضة الرؤوس) وتراوحت بين ١٥ ، ٥٠٠ قرش عن كل شخص بلغ سن الثانية عشرة سنويا كما جبى عوائد المكوس على التجارة وعلى السفن وعلى الذبح ومع أن محمد على لم يكن يشترى من الفلاح كل محاصيله واقتصر على شراء القطن والارز والصمغ والنيلة والافيون والسكر وترك للفلاح باقى المحاصيل يبيعها ويتصرف فيها كما يشاء فان الفلاح باع هذه المحاصيل لمحمد على بثمن رخيص واشترى بثمن مرتفع وعانى فى سبيل ذلك من الفقر والجوع بينما امتلأت خزائن محمد على بالمال والسلع ، ولكن عندما جاء سعيد باشا الى الحكم سنة ١٨٥٤ أصدر سنة ١٨٥٨ (قانون الاصـــلاح الزراعى) حيث وزع بمقتضاه الاراضى على الفلاحين يقومون بزراعتها ويتصرفون فيها وفى غلاتها حسبما يشتهون وعمل على تقييد هذه الملكية فى سجلات خاصة لاثبات الملكية فأدى هذا الى انعاش الزراعة بشكل واسع كما أمر سعيد بتعديل مواعيد جمع الضرائب وجعلها تتناسب مع زمن نضج المحاصيل وحدد قيمتها والغى النظام التضامنى فى جمع الضرائب لما فيه من ظلم وغبن وتنازل عن جميع المتأخرات على الفلاحين والغى بقايا الاحتكار فأصبح الفلاح يزرع مايشاء

ويبيع محصوله كيف شاء على أن يدفع المال المبرى مقدما ، وواصل اكمال مشروعات الرى التى بدأها محمد على فكان هذا العصر هو عصر الفلاح الذهبى (١) .

د ـ الصناعة :

ومشروعات محمد على الزراعية هذه تتضاءل أمام مشروع خطير اقترحه عليه ممثل السويد المسيو (بكتى) فقد ذكر هذا الرجل لمحمد على ان أعظم مظهر للاستقلال الحقيقى هو الاستقلال الاقتصادى فكما أن مصر غنية بمحصولاتها الزراعية فيجب كذلك أن تنتج مصانعها مايحتاج اليه جيوشها واسطولها وما تحتاج اليه أسواقه وأملاكه من المصنوعات وحتى لايكون تحت رحمة دول أوربية وكان القطن المصرى وما ادخله عليه محمد على من تحسينات له دافعا على العناية بالغزل والنسيج وكذلك كانت زراعة شجر التوت وتربية دودة القز وزراعة النيلة لانتاج مواد الصباغة وزراعة الكتان لانتاج خيوط النيل مشجعا له على التوسع فى صناعة الغزل والنسج واذا كان محمد على لم يجد فى الشعب المصرى عمالا فنيين لاهمال الصناعة الحديثة عدة قرون فانه استورد الخبرة من الخارج واستورد الطاقة من الفحم واستورد الحديد ووجد فى مصر أيدى عاملة رخيصة ولكن كان ذلك على حساب الزراعة واعانه نظام الاحتكار الذى اتبعه على توفير المال اللازم لتنفيذ مشروعاته الصناعية وامتلأت بولاق والخرنفش والمحلة الكبرى وقليوب بالمغازل والمعامل والمصانع المختلفة فأصبح لديه ١٤٥١ دولابا للغزل و ١٢١٥ نولا وعددا كبيرا من المصانع يعمل فيها عشرون الف صانع فى الغزل والنسج والخراطة والحدادة والسباكة والنجارة وعصر الزيوت وانتجت مصانعه من الأقمشة البفتة والشيت والشاش والجوخ والطرابيش كما انتجت الأسلحة والبنادق وقطع الآلات الصغيرة وصناعات الصلب وكانت هذه المصنوعات تكفى جيشه ثم يوزع ماتبقى منه فى الاسواق الخارجية . ومن الطبيعى نظرا للمنافسة الخارجية لجودة المصنوعات الاوربية ورخصها ان كانت هذه المصانع وهذه المشروعات تكلف محمد على الكثير فكان غرمها

---

(١) المرجع لسابق . ص ٢٧٠ ــ ص ٢٧٣

اكثر من غنمها . وكان محمد على يعلم ذلك ولكنه رغب فى النهوض بالصناعة الوطنية والاستقلال بالبلاد اقتصاديا عن أوربا تشبها بانجلترا وفرنسا . ومع توفر المال فانه لم يستطع الاستمرار فى هذه التجربة وفشل فى النهاية لضخامة هذا المشروع ولاعتماده على الوقود المستورد ولان البلاد كانت تحتاج لكل يد عاملة فى الزراعة ولان جيشه وأسطوله وهما قوام آماله وأمانيه قضت عليهما فى النهاية المؤامرات الانجليزية التى وقفت تساند الدولة العثمانية فى الحد من أطماع محمد على ومع ذلك فلا نستطع أن ننكر فضل هذا المشروع فى نمو ونشأة صناعة السكر والصابون والزجاج والنسج (١) .

هـ ـ التعـــدين :

ولم يكن التعدين ليغرب عن بال محمد على وهو الذى أراد أن يستغل البلد لانه كان يحتاج الى كل قرش لتنفيذ مشروعاته وتغطية حروبه الواسعة فأخذ يشجع المنقبين من مختلف الجنسيات على اعادة اكتشاف الأماكن الصحراوية فعثر (برتون) (ولنكسون) على محاجر الحجر الســـماقى الامبراطورى ووجد (كايو) الزمرد واكتشف (بروشتى) مناجم الرصاص القديمة ثم اسدل الستار على هذه المناجم بعد وفاته وضاعت معالمها حتى بدأ البحث عنها من جديد سنة ١٨٩٧م (٢) .

و ـ التجـــارة :

واذا كان محمد على قد عنى بالانتاج الزراعى واحتكره كما رأينا ، واذا كان قد أقام مشروعات صناعية على نفقة الحكومة فقد اصبح لديه انتاج زراعى وانتاج صناعى استطاع أن يصدر الى الخارج فوجد أنه لابد من أن يستفيد بموقع مصر الجغرافى ويفتح طريق التجارة بين الشرق والغرب

---

(١) عمر طوسون . الصنائع والمدارس الحربية فى عهد محمد على باشا . ص ٣ ـ ص ٢١ ، كلوت بك جزء ٢ ؛ ص٤٤٣ ـ ص٤٦٤

(٢) ثروة مصر المعدنية . بقلم د . ف . هيوم فى : حضــــارة مصر الحديثة . نشر الجامعة الامريكية بالقاهرة سنة ١٩٣٣ . ص ٢٥ ـ ص ٤٠

عبر مصر وكانت التجارة قد كسدت فى مصر بشكل واضح بعد أن تحول طريق التجارة بين الشرق والغرب الى رأس الرجاء فأراد محمد على أن يعيد هذا الطريق الى سابق أهميته لانه انتظر من ورائه ربحا عظيما للخزانة ووجد أنه لابد أولا من نشر الأمن واستتباب النظام وتسهيل المواصلات للتجار والمسافرين فضرب بشدة على اللصوص وكبح جماح عربان الصحراء الشرقية ثم أنشأ طريق النقل بين السويس والقاهرة على ظهور الابل وشيد الاستراحات على طول الطريق لراحة المسافرين ، وساعدت ترعة المحمودية على فتح الطريق بين الاسكندرية والقاهرة وأصبحت المتاجر تنقل عبر مصر من الاسكندرية الى القاهرة بطريق النيل الى السويس على ظهور الابل ، وأنشئ محطات للبريد والرسائل البرقية بين الاسكندرية والقاهرة تسهيلا للتجار وجاء توماس واجهورن Thomas Waghorn الذى كان فى خدمة شركة الهند الشرقية البريطانية وعرض على محمد على اعادة الطريق البرى بين قنا والقصير ورحب محمد على بالفكرة وافتتح هذا الطريق سنة ١٨٤٥ وبدأت أهميته تزداد بالتدريج حتى أنشأ محمد على مصلحة خاصة للعناية به ، وكان من الضرورى أن يلتفت محمد على الى ميناء الاسكندرية حتى يستقبل هذا النشاط التجارى وحتى تتناسب أهميته مع أهمية الطريق الجديد وحتى يجلب اليه الاجانب (١) وعهد بهذه المهمة الى موجيل بك ونمت المدينة وخاصة بعد أن أنشأ دى سريزى بها صناعة السفن ، كما استفاد محمد على من كفاءه بوغوص بك يوسف فى ادارة شئون التجارة الخارجية وانشاء الوكالات التجارية فى الاسكندرية والسويس ولكى يجذب الانظار الى هذه الطرق الجديدة عقد معاهدة مع انجلترا تعهد فيها بنقل البريد مقابل مبلغ خاص تدفعه وكسبت مصر بذلك كثيرا من حصيلة مصروفات النقل والمعيشة وضرائب المكوس ورواتب المصريين الذين خدموا فى هذه الطرق ، ولان التجارة لاتقوم الا على شيئين اساسيين وهما اسطول لنقل التجارة وحمايتها وأسواق لتصريف المنتجات فقد عمل محمد على على الوصول لهذين الغرضين فبدأ ببناء الاسطول كما رأينا وأصبحت مصر بذلك محطة تجارية لها أسطولها العظيم (٢) .

---

(١) كلوت بك . جزء ٢ ص ٤٩٢ — ص ٥٠٤

(٢) جورجى زيدان : المرجع المذكور . ص١٨٧ — ص١٨٨ (بوغوص بك)

خامسا : العناية بالعلوم والثقافة :

كان محمد على يريد أن يعد لاسطوله وجيشه عددا من الفنيين والاخصائيين ، فاذا كان قد استعان بالاجانب فى هذا المجال فانه كان لابد من الاستعانة بأهل البلاد وخلق طبقة متقفة تقدم للجيش والاسطول مايحتاجه من خدمات من معلمين ومنهدسين وضباط وكتبة وأطباء فأنشأ كما رأينا المدارس الفنية العالية فى مختلف النواحى العسكرية وكان هناك عدد من الذين تعلموا فى الازهر أصبحوا نواة لهذه النخبة التى تعلمت فى هذه المدارس وأكملت ثقافتها فى أوربا وأظهرت نبوغا وتفوقا واضحا وبرهن محمد على بذلك على بعد نظره فى أن التعليم العالى والاقتباس من الثقافة الحديثة هو خير ما تنهض به الامم ولم يكن خريجو الازهر يكفون حاجة البلاد وحاجة محمد على فأنشأ خمسين مدرسة ابتدائية على نمط مدارس الليسيه بفرنسا ومدرستين تجهيزبتين أحداهما فى القاهرة والثانية فى الاسكندرية الا أن محمد على وجد معارضة شديدة من الاهالى على التعليم فحبب التلاميذ لهذه المدارس وقد لهم الطعام والكساء والمسكن الا انه عاملهم معاملة الجنود حتى أن ادارة المدارس كانت تتبع ديوان الجهادية ولذلك فعندما قل اهتمامه بالجيش بعد سنة ١٨٤١ قل اهتمامه بالمدارس (١) .

وكانت أول مدرسة انشأها محمد على فى مصر هى مدرسة المهندسخانة (الهندسة) سـنة ١٨١٦ فى القلعة وجلب لها الآلات والأدوات من انجلترا ، وجعل التعليم بها مجانيا بل واعطى التلاميذ رواتب شهرية وكان بعض مدرسيها من الافرنج ، ثم أقام مثيلا لها فى بولاق سنة ١٨٣٤ ، وفى سنة ١٨٢٧ أنشأ كلوت بك مدرسة الطب فى أبى زعبل واختير لها فى أول الامر مائة طالب من الازهر واساتذة من الاوربيين وخاصة الفرنسيين وبذل كلوت بك جهدا للنهوض بها وحتى يتم التعليم باللغة العربية اختير لها مترجمون يجيدون الفرنسية والعربية والحق بها معهد لتعليم اللغة الفرنسية وحديقة للنباتات التى تستخرج منها العقاقير والنباتات النادرة ، كما الحق

---

(١) كلوت بك : جزء ٢ ص ٥١٦ ـــ ص ٥١٩ .

بها مدرسة للصيدلة ثم مدرسة للقابلات والولادة واختير لمدرسة الولادة طائفة من السودانيات والحبشيات (١) .

وفى سنة ١٨٣٦ أنشئت مدرسة الالسن بالازبكية وتولى نظارتها رفاعة رافع الطهطاوى ، وفى سنة ١٨٣٤ أنشئت مدرسة المعادن فى مصر القديمة ، ومدرسة المحاسبة سنة ١٨٣٧ فى السيدة زينب ثم مدرسة الفنون والصنائع سنة ١٨٣٩ ومدرسة الصيدلة بالقلعة سنة ١٨٢٩ ومدرسة الزراعة بنبروه سنة ١٨٣٦ ومدرسة للطب البيطرى برشيد ثم نقلت الى أبى زعبل ومدرستان تجهيزيتان فى أبى زعبل والاسكندرية (٢) .

وبلغ عدد المدارس الابتدائية التى انشأها محمد على نحو ٥٣ مدرسة الغى معظمها فى أواخر عهد محمد على .

وبلغ جملة عدد تلاميذ المدارس ٩٠٠٠ تلميذ .

معنى هذا أن محمد على بدأ السلم التعليمى من أعلا من رأس الهرم فأنشئت المدارس العليا أولا ثم المدارس التجهيزية وبعد ذلك المدارس الابتدائية بصفة عامة اذ كان الموجه الأول لمحمد على فى الاهتمام بالنهضة التعليمية هو حاجة الجيش الى فئات مختلفة من الفنيين من مهندسين وأطباء وضباط وكتبه ... الخ .

أما البعثات وخاصة الى فرنسا فكانت من أعظم انجازات محمد على ففى سنة ١٨٢٦ كانت أول بعثاته الى الخارج وبلغ أعضاؤها ٤٤ طالبا وفى سنة ١٨٣٣ كانت بعثته الثانية التى ضمت ١١٤ طالبا وعاونت هذه البعثات محمد على كثيرا فى مشروعاته العظيمة ونقلت الثقافة الاوربية والخبرة الحديثة الى مصر وكانت هذه البعثات تتم تحت اشراف المسيو جومار أحد علماء حملة بونابرت على مصر وهذه البعثات ضمت رجالا مثل رفاعة الطهطاوى

---

(١) عمر طوسون : الصنائع والمدارس الحربية فى عهد محمد على باشا الاسكندرية سنة ١٩٣٢ ص٢٧ — ص٣٠ .

(٢) المرجع السابق ص٣٠ — ص٣٢ .

زعيم النهضة الادبية فى القرن ١٩ وعلى مبارك أبا التعليم فى عصر الخديو توفيق ومحمد مظهر وعلماء فى الطب والجراحة ورجالا اكفاء فى الجيش والبحرية نخص بالذكر منهم الاميرال حسن الاسكندرانى ومصطفى مختار وعلماء فى الطبيعيات والكيمياء وعلماء فى الفنون الجميلة (١) .

ولكن هذه المدارس كانت فى حاجة الى الكتب والبلاد كانت تخلو من المطابع فاسند محمد على الى احد الخبراء وهو مسابكى الاشراف على تاسيس المطبعة الاميرية ببولاق فى نوفمبر سنة ١٨٢١ وأوفده الى روما وميلانو للتخصص فى فن الطباعة ولم يبخل عليها محمد على بكل ماتحتاجه فطبعت آلاف الكتب فى مختلف العلوم والفنون والآدب ، وأسند الى عدد من علماء الازهر مهمة تصحيح هذه المطبوعات حتى جاءت صحيحة خالية من الاخطاء واصبحت هذه المطبعة من اكبر دعائم النهضة العلمية فى مصر ولاتزال الى اليوم تؤدى رسالتها كاكبر دار للطبع والنشر فى مصر (٢)

. وقامت البعثات التى اوفدها محمد على بنقل الكثير من العلوم والمعارف الى اللغة العربية فنشطت حركة الترجمة ثم حركة التاليف وبدات العلوم والمعارف الحديثة تنتشر بين الطبقات وخاصة حين لقيت التشجيع من محمد على الذى كان يكافىء مؤلفيها بسخاء وطبع المؤلفات على نفقة الحكومة واخذ يوزعها على المدارس والدواوين .

وقامت مطبعة بولاق كذلك بانشاء مطابع أخرى صغيرة تابعة لها هى مطبعة مدرسة المدفعية بطرة وأخرى فى أبى زعبل وثالثة فى مدرسة الفرسان بالجيزة .

وأصدر محمد على الوقائع المصرية كجريدة رسمية فى ٢٥ جمادى الاولى ١٢٤٤هـ — ٣ من ديسمبر سنة ١٨٢٨ باللغة العربية وباللغة التركية وكانت تطبع فى مطبعة بولاق وتنشر اخبار الحكومة ودواوينها ومصالحها وبعض الانباء الخارجية وكانت أول جريدة مصرية فى تاريخها الحديث وبعد قليل

---

(١) عزت عبد الكريم : المرجع المذكور ص ٤٢٨ — ص ٤٥٣

(٢) عزت عبد الكريم ، ص ٦٦٣ — ص ٦٦٤

صدرت باللغة العربية فقط وهى لاتزال تصدر الى اليوم كجريده رسمية للحكومة (١) .

خاتمة :

وهنا يخطر ببالنا سؤال ... اذا كان محمد على قد أصبح الزارع الوحيد والصانع الوحيد والتاجر الوحيد ومن أجل جيشه ومن أجل أسطوله اهتم بالزراعة واهتم بالصناعة واهتم بالتجارة فماذا كسبت مصر ؟

لاشك أن محمد على حين كون الجيش وحين بنى الاسطول كان يهدف الى اقامة دولة مستقلة فى مصر له ولابنائه من بعده . ومن تم كان اهتمامه العظيم بالرى والصناعة وبالتجارة كان من أجل هذا الهدف ولم يكن حين بدأ هذه المشروعات يقدر لنفسه ولحكمه مثل المصير الذى آل اليه وانما كان يحدوه الامل فى دولة عربية مستقلة يكون الحكم فيها وراثيا له ولعقبه من بعده ، وكان محمد على تركيا نعصب لكل ما هو تركى ولذلك فقد نال الترك مدة حكمه اكثر مما نال المصريون ولكن سياسة محمد على فى توطيد نظام الحكم والادارة والعناية بتدعيم الاقتصاد وشئون العلم والثقافة مهما كان هدفه منها فقد خلق فى مصر دولة حديثة قوية عاد اليها الامن واستطاعت أن تخمد ثورة الوهابيين ونفتح السودان وتخمد ثورة المورة وتخيف السلطان العثمانى فعلا شأنها بين الدول واكتسبت اسما ومركزا بعد أن كانت احدى الولايات العثمانية التى يتخاطف الحكم فيها شرذمة من المماليك لم يفكروا فى مستقبل البلاد بقدر مافكروا فى مصلحتهم الشخصية ناهيك بهذه النخبة من الرجال الذين كانوا مخلصين لبلدهم أدوا اليها الخدمات التى لاتزال ماثلة امام أعيننا مثل رفاعة الطهطاوى وعلى مبارك ، ومصر التى عزلت عن العالم الحديث ومدنيته وحضارته طوال القرون ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، بدأت تفتح عينيها على الفكر الاوربى الحديث فتقتبس منه بقدر مايسرت لها ظروفها. ولو أن انجلترا لم تقف لمحمد على وتلك القوة النامية بالمرصاد ، ولو أن محمد على اتبع شيئا من الديمقراطية فى حكمه وتخلى عن اتباع السخرية فى تنفيذ بعض مشروعاته وتخلى عن تعصبه للترك لكان له منزلة أكبر وأعظم ومع ذلك فهو يعتبر بحق بانى مصر الحديثة .

---

(١) جورجى زيدان : تراجم مشاهير الشرق فى القرن التاسع عشر (رفاعة الطهطاوى) ص ٢٢ — ص ٢٦ جزء ٢

سادسا : الاحوال الاجتماعية :

بلغ عدد سكان مصر فى أواخر القرن ١٨ ثلاثة ملايين نسمة ، ثم نقص الى ٢½ مليون تقريبا سنة ١٨٢٣ ، وهذا النقص حدث فى أثناء الحملة الفرنسية على مصر وفى عقبها ، وذلك بسبب كثرة الثورات والفتن والحروب ثم عاد السكان فتزايدوا وبلغوا سنة ١٨٤٥ ٤٠ ٤٤٠ر٤٧٦ر٤ نسمة .

وكان السكان ينقسمون فى عهد محمد على الى طبقتين . طبقة الحكام ، وطبقة المحكومين ، فمحمد على اعتمد فى حكمه على خليط من الاجناس ، على الترك والمماليك والشراكسة ، والالبان والأرمن واليهود وبعض من الشوام والقبط (١) بالاضافة الى بعض الأوربيين (٢) وأعطاهم الوظائف الهامة ووازن بينهم وجعلهم الصفوة الفعالة فى حكم مصر ، وجعل منهم طبقة موالية له ولحكمه ، ولم يعط المصريين اكثر من الوظائف الروتينية الصغرى ، ثم أصبحت لمحمد على السيطرة على الأراضى الزراعية بحق الارث فأعطى منها هذه الجماعات ، وظلت سيطرته على الممتلكات لاتفرق بين ممتلكات الدولة وممتلكات الخاصة (٣) واستأثر منها أفراد اسرته والاتباع بالاملاك الكبيرة .

وكانت فئة كبار الموظفين العثمانيين تأتى بعد أسرته وحاشيتها ، اذ أنه بعد تصفية فئة المماليك سنتى ١٨١١ ، ١٨١٢ وزع عليهم مائة الف فدان ، ثم تلاحقت انعاماتهعليهم وكانت تتراوح بين مائة فدان وثلاثة آلاف فدان للموظف الواحد ، كما منح ضباط الجيش مساحات تراوحت بين مائة فدان وخمسمائة فدان وفقا لرتبهم العسكرية .

ثم صارت الوظيفة فى الحكومة وسيلة من وسائل توسيع الملكية لان الموظف كان يدخل كمشترى من مزادات الحكومة العلنية (٤) .

---

(١) محمد شكرى : بناء دولة محمد على . ص٢٢
(٢) أنيس صايغ : الفكرة العربية فى مصر . بيروت ١٩٥٩ ص١٧
(٣) ذوقان قرقوط : تطور الفكرة العربية فى مصر ١٨٠٥ — ١٩٣٦ بيروت ١٩٥٣ ص ١١٧
(٤) د. رؤوف عباس : ص٥٠ ، ص٥٥/٥٧

وبسرعة نشطت الملكيات الكبيرة من هؤلاء الموظفين ، وتكونت منهم فئة الذوات وظهرت شخصيات لعبت دورا كبيرا فى حياة مصر كرياض باشا ومحمد شريف باشا وسلطان باشا .

كذلك صار موارنة الشام والقبط الذين كانوا قد وفدوا من الشام فى أيام المماليك وزاد عددهم حتى بلغ نحو ٤٠٠ أسرة (١) العنصر الغالب فى مناصب المالية والخارجية لأنهم كانوا يحذقون اللغات الأجنبية (٢) وخبراء تربية دودة القز ، ثم وكلاء لبيوت تجارية أوربية بعد تداعى نظام الاحتكار ، وزاد نشاطهم ، وتراكمت فى أيديهم رؤوس الأموال ، ثم رأوا استثمار أموالهم فى الزراعة ، واقتنوا الملكيات الكبيرة ، وأدى ذلك الى المطامع والتطلعات ، فقد طمع الامير لطف الله بن حبيب باشا لطف الله فى ملك سوريا ، وحدث أقباط الصعيد أنفسهم بالاستقلال ، وكان منهم سليم شديد بك الذى امتلك ٣٣ الف فدان ، وسار حبيب باشا لطف الله سيرة الملوك والامراء ، وشغل بعض القبط الوظائف القنصلية لبعض الدول الاجنبية واستفادوا من الامتيازات كاندراوس بشارة الذى عمل قنصلا لايطاليا وبلجيكا وامتلك عشرة آلاف فدان ، وويصا بقطر الذى عمل قنصلا لامريكا وهولندا وامتلك ٢٨ الف فدان ومصنعا للسكر ومعظم أسهم شركة سكك حديد الفيوم (٣) .

كذلك سمح محمد على للاوربيين بالتملك فى مصر منذ أوائل حكمه ، فقد أنعم على كبار من استعان بهم فى مختلف المجالات بالابعاديات وأعفاها من الضرائب (٤) كما وزع عليهم أراضى الرزقة وتبلغ ستة آلاف فدان معفاه من الضرائب (٥) .

---

(١) ذوقان قرقوط . المرجع المذكور ص ١٢٠.

(٢) محمد شكرى : ص ٣٩٢

(٣) الاقبـاط فى القرن العشرين جزء ٥ ص ٤٩ — ٥٠ ، جزء ٣، ص٧٤ — ٧٥ .

(٤) محمد كامل مرسى : الملكية العقارية فى مصر وتطورها التاريخى فى عهد الفراعنة حتى الان القاهرة ١٩٢٦ ص ١١٩.

(٥) أنور عبد الملك ص٢٠٢ .

وشجع محمد على التجار الاوربيين على الزراعة والاستيطان — وخاصة اليونان التى كانت لهم أموال استثمروها فى الزراعة وفى استصلاح الاراضى، وكذلك الانجليز الذين امتلكوا سنة ١٨٤٠ ٢٥ الف فدان ، بل قدم لهم القروض والماشية ، ثم امتلكوا هذه الأراضى بقرار فبراير سنة ١٨٤٢ (١) كذلك وضعوا أيديهم على أطيان العهده فى القرى التى عجزت عن دفع الضرائب .

هكذا اصبحت أسرة محمد على واتباعها ، والموظفون العثمانيون والموارنة والقبط والاوربيون عماد حكم محمد على .

وصارت فئة (العثمانلى) هى الفئة الحاكمة ، ونظرت الى السكان المصريين مهما علا قدرهم على انهم فلاحين وأنهم عرب تحنكنه سى (غجر العرب) أو قبطى عرب (حثالة) أو كور فلاح (الأجلاف) ، وترى أنه من حقها الاستمتاع بما فى أيديهم من سيطرة وقوة ، وأن الاهالى انما هم طبقة محكوم ثانوية ، وطبقة أجيرة عند محمد على وأسرته (٢) .

وصارت هذه الطبقية من ثم ، ذات أساس اقتصادى ، وأساس عنصرى، وأساس سياسى .

وقد ادت هذه السياسة الى سوء حالة الفلاح المصرى ، وخاصة بسبب نظام السخرة الذى لجأ اليه محمد على فى تنفيذ مشروعاته ، ولذلك فقد كان الفرار شيئا مألوفا ، وهلك آلاف العمال والفلاحين (٣) .

ولكننا يجب ان نذكر لمحمد على مع ذلك عنايته الكبيرة بالشئون الصحية ، فان حرصه على انشاء جيش حديث ، جعله يستدعى كلوت بك سنة ١٨٢٥

---

(١) رؤوف عباس . ص ٦٦٥ .

(٢) محمد فؤاد شكرى وكذلك الجبرتى جزء ٣ ص٦٠٧

(٣) الفلاح والصانع بقلم سلامه موسى ... ص٧١ — ص٧٦ : فى حضارة مصر الحديثة .

ليكون طبيبا أول لهذا الجيش ، والى هذا الرجل يرجع :

١ — انشاء مجلس الصحة من خمسة أعضاء من الاطباء والجراحين والصيادلة برئاسته .

٢ — انشاء ادارة طبية يراسها مفتش عام لتقدير شئون المستشفيات والصيدليات .

٣ — انشاء صيدلية مركزية بالقاهرة ، ومستودعات للادوية بالاسكندرية واخرى فى حلب وثالثة فى عكا ورابعة فى جده وخامسه فى الخرطوم وسادسة فى كنديابكريت .

٤ — انشأ محمد على مجلس صحى فى الاسكندرية خاصا بالبحرية .

٥ — عنى بانشاء مدرسة الطب ومستشفى ملحق بها ، ومدرسة للطب البيطرى فى رشيد على يد م. هامون ونقلت هذه المدرسة بعد ذلك الى أبى زعبل .

٦ — عنى كلوت بك بالتطعيم ضد الجدرى ، ومكافحة الاوبئة مثل الكوليرا التى وفدت على مصر سنة ١٨٣٠ ، ومكافحة الطاعون الذى حدث سنة ١٨٣٥ .

٧ — انشاء مدرسة الولاة والمرضات رغم ماقابل من صعوبات تمثلت فى احجام الآباء عن ارسال بناتهن الى هذه المدرسة . فاستعاض عنهن بالجوارى والحبشيات .

وكان من جراء هذه العناية الصحية أن بدأت تنتهى ممارسة الطب على ايدى بعض الجهلاء ، الذين كانوا يمارسونه فى صورة (وصفات) مشوهه ، وبدأ ينتهى تدريجيا العصر الذى كان يسيطر عليه الحلاقون ، كما أخذت الوفيات تقل ، والاوبئة تنحسر واخذ نتيجة لذلك يزداد عدد السكان حتى بلغ نحو ٤½ مليون فى أواخر عصر محمد على (١) .

---

(١) محمد شاهين (باشا) : حالة مصر الصحية فى الوقت الحاضر . فى : حضارة مصر الحديثة ص٩٧ — ١١٢.

العلماء ... والأزهر :

كان علماء الازهر لهم نفوذ عظيم فى اخريات العصر العثمانى فى مصر قبيل الحملة الفرنسية ، فقد كانت لهم الزعامة الأدبية والسياسية بين الجماهير ، واليهم يرجع الفضل فى قيادة الحركات الجماهيرية فى عهد مراد وابراهيم ، وفى عهد الحملة الفرنسية ، واثناء تولية محمد على حكم مصر ثم اخذ هذا النفوذ يتضاءل ويخبو عندما حاول محمد على القضاء على هذه الزعامة التى ارادت أن تفرض سيطرتها عليه ، والتى حاولت أن تشاركه الرأى فى حكم البلاد ، وقد انتهى هذا النفوذ بنفى السيد عمر مكرم كما رأينا .

ولما انشأ محمد على نظاما تعليميا حديثا فى مصر ، انتقل مركز الثقافة من الازهر الذى بقى جامدا فى مناهجه وأسلوب تعليمه ، الى المدارس والمعاهد والبعثات ، وانكمش العلماء بسبب ذلك ، وعجزوا عن المشاركة فى الاعمال العامة ، وبدات الفئة التى تخرجت من المدارس والمعاهد والتى جاءت من البعثات التى اوفدها محمد على تضطلع بأعباء النهضة الحديثة فى البلاد وتصبح الصفوة المختارة لدى محمد على ، وبدات تسقط هيبة العلماء ، وبدا يسرى بينهم التحاسد والتنافس ، ولم تمتد يد الى الصرح الشامخ وهو الازهر لتاخذ بيده ليجارى التطور العلمى ، واستكان الى حين .

ولكنه من الجدير أن نذكر ان الأزهر مع كل هذا ظل المنبع الذى استمدت فيه المدارس والمعاهد والبعثات هذه الصفوة المختارة من التلاميذ . وصارت له يد فى هذه النهضة العلمية ، وخرج من بين رجاله المصححين والمترجمين الذين احتاج اليهم محمد على لتصحيح الكتب وترجمتها وتعريبها (١) .

العمال والفلاحون :

لاشك أن حالة الفلاح المصرى تقدمت عما كان عليه قبل الحملة الفرنسية ، وان بقيت حالته رغم كل الظروف تدعو الى الاشفاق نظرا

---

(١) الرافعى . عصر محمد على .. ص٦٤٤ — ص٦٤٧ .

لحرمانه من الملك ، واستهدافه للضرائب الفادحة ، وللسخرة ، ولمظالم الحكام ، ولنظام الاحتكار ، وكما قلنا كان ذلك سببا فى فرار بعضهم رغم تعرض الفارين للعقاب الشـــديد .

وكانت النهضة الصناعية فى عهد محمد على فى مجالات التصنيع المدنى والحربى والبحرى سببا فى وجود طبقة من العمال الفنيين المهرة ، أصبحت موضع اعجاب الخبراء الاجانب الذين استعان بهم محمد على فى مشروعاته العمرانية والصناعة ، وبجانب هذه النخبة من العمال المهرة كانت هناك فئة من العمال مارسوا صناعات يدوية ، تعرضوا لنظام الاحتكار فهجروا هذه الحرف الى الزراعة (١) .

وتعرض التجار والعمال التجاريون الى حالة من الكساد بسبب سياسة الاحتكار وتضاؤل ثروانهم ، وذلك فى الوقت الذى نشطت فيه حالة بعض تجار الاسكندرية بسبب اتساع تجارتها وانشاء الاسواق التجارية التى أقامها محمد على ، والحقيقة أن سياسة محمد على التجارية جعلت خزائنه تمتلىء بالمال فى الوقت الذى لم يظهر فيه تجار كبار أمثال المحروقى وابنه ممن ظهروا قبل الحملة الفرنســـــية (٢) .

جماعات العربان :

كان يوجد بمصر من العربان وهم جماعات البدو من المصريين نحو مائة الف تنتظم فى نحو ستين قبيلة ، اشترك منهم مابين ١٨ ، ٢٠ الف من الفرسان فى الحروب والثورات التى قام بها المصريون أثناء الحملة الفرنسية وبعدها ، ومن المعروف أن هذه الجماعات لم تكن تألف حياة الحضر حتى مطلع القرن ١٩ ، وانما جابت الصحراء فى حركة حياة ونزاع مستمر على الارض الزراعية مع الفلاحين ، والى وقت قريب عمل بعض هؤلاء فى قطع الطريق والاعتداء

---

(١) المرجع السابق ص ٦٤٧ — ص ٦٤٩ .

(٢) كلوت بك . المرجع المذكور ص ٥٠٢

على القرى الآمنه ، وظلت هذه حياة قلة منهم ربما الى الثلاثينات من القرن الحالى حيث كان بعضهم يزاحمنا كفلاحين فى قرى محافظة الجيزة .

ولما بدأ الامر يستتب لمحمد على فى حكم مصر ، رأى أن يهادن هؤلاء فى بداية الامر ، فأخذ يعقد معهم الاتفاقيات ، ولم تحترم هذه القبائل تلك الاتفاقيات ، وحينذاك أدرك محمد على انه لابد من أخذهم بالقوة ، فجرد عليهم حملاته ، وأخذت كتائب الفرسان تناوشهم وتسد عليهم المسالك حتى أذعنوا الى الطاعة . وقبل منهم محمد على هذا على شريطة أن يكون زعماؤهم رهنا عنده فى القاهرة ، وأجرى عليهم الأرزاق ، فخلد أغلبهم الى السكينة ، وبدأت الحكومة المصرية منذ عهد محمد على سياسة تحضير هؤلاء البدو فاقطعتهم الأرض الزراعية المعفاه من الضرائب .

ثم سلك معهم محمد على مسلكا آخر حين حبب اليهم الانتظام فى سلك الجيش ومنحهم الاجور على أن يأتى كل منهم بفرسه وسلاحه ، ولبوا الدعوة واستفاد منهم الجيش فى فتوحاته وحروبه ، واتخذ منهم ابراهيم باشا حرسه الخاص (١) .

الرقيق :

كانت تجارة الرقيق لاتزال مباحة فى النصف الاول من القرن التاسع عشر ، واستخدم كثيرون منهم بصفة أتباع وخدم فى بيوت البكوات من المماليك والاعيان من الترك ، وبلغ عدد هؤلاء نحو الالفين ، بالاضافة الى ماكان فى بيوت الأغنياء من الجوارى البيض وكن نحو الثلاثة آلاف ، وهؤلاء وأولئك اعتنق بعضهم الاسلام ، وعملن فى المنازل وعمل الرجال جنودا فى الجيش بالاضافة الى الخدمة فى منازل الاغنياء وبدأوا بذلك ومع الزمن يدخلون فى جسم المجتمع المصرى (٢) .

---

(١) الرافعى . عصر محمد على ص٦٤٩ — ص٦٥٠

(٢) المصدر السابق ص ٦٥٠ — ص ٦٥١

وقد انتقد بعض الاوربيين سياسة محمد علي في جلب الرقيق من السودان ، وفي اباحة تداول هذا الرقيق في مصر ، مع انه كان نظاما مألوفا منذ قرون ، وازاء هذا النقد أبدى محمد على استعداده لالغاء هذه التجارة حتى لايحط من قدره في نظر العالم المتمدين (١) .

اثر سياسة التعليم في المجتمع المصرى :

عاشت المدرسة المصرية في عهد محمد على منفصله عن المجتمع ، اذ كان التلاميذ يقضون وقتهم كله داخل المدرسة ، يلتحقون بها طوعا أو كرها، ولايبرحونها الا أيام العطلة السنويه ولمرض شديد ، وحتى خروجهم هذا لم يكن للكل ، وانما كان للمتازين منهم ، وكان من حق الديوان أن يحرم التلاميذ من هذه العطلة ، ليعيدوا فيها دروسهم ، ويقنعون بالخروج في طابور للنزهة تحت اشراف الاساتذة والضباط (٢) .

فالمدرسة كانت مؤسسة حكومية قدمت فيها الحكومة للتلميذ كل شيء ولم يكن للآباء ، حق توجيه ابناءهم كما أنهم لم يكونوا يعلمون عنهم أى شيء ، وبالتالى فلم يعلموا أى شيء يؤدى الى نجاح المدرسة في التأثير في المجتمع بشكل مباشر أو التأثير به ، وعاشت المدرسة متحفظة ومنفصلة عن البيئة التى عاشت فيها . وأصبح الدور الذى لعبه المصريون في التعليم سلبيا محضا ، ولم يعن الوالد أن يتخرج ذا مهنة معينة ، أو حرفة معينة ، كما لم يعنه أن ينال شيئا محدودا من العلم ، والأب أيضا لم يستطع أن يعيد ابنه الى الأرض الذى أخذ منها يوما وأخذ منها قسرا . ذلك أن الحكومة كانت تجمع التلاميذ كما كانت تجمع الجند لجيشها ، والجميع هنا لديهم سواء فهم (أنفار) ، وكان التجنيد يمثل في اذهان الفلاحين البعد عن الاهل وعن الوطن ، وحياة الذل والاستعباد ثم الارهاق والموت في ساحة الحروب .

---

(١) محمد رفعت : تاريخ مصر السياسى في الازمة الحديثة . القاهرة ١٩٢٠ جزء أول ص٧٤ — ص٧٥

(٢) أحمد عزت عبد الكريم . ص ٦٣٥

واختلط فى اذهان الناس التجنيد من أجل الجيش والتجنيد من أجل المدرسة . فالقائمون به فى كلتا الحالتين واحد ، لقد سرت فى نفوس الناس فكرة أن الحكومة أخذت منهم ابناءهم الى الجيش تحت ستار أخذهم الى المدارس وهنا وهناك مكثوا سنين عديدة بعيدين عن أهلهم (١) .

وبهذه السياسة اصبحت المدرسة ثكنة عسكرية وليست مؤسسة اجتماعية . لم تفعل شيئا يبدد الحذر الذى سرى فى نفوس الناس ، ويقربها الى المجتمع .

كذلك لم تفعل مكاتب الحكومة مايسد حاجة المجتمع الريفى الى التعليم ، وكان هذا المجتمع فى حاجة الى من يرقى به اجتماعيا ، ويساعد على تدبر حقوقه وواجباته ، والى مايمكنه من تلمس المعيشة الصحية .

والتعليم فى عهد محمد على كان قاصرا ، لم يستطع فى التغلغل فى طبقات المجتمع كلها ، فقد اقتصر على فئات محدودة وانتهى به المطاف الى تكوين طبقة ممتازة فى المجتمع ، طبقة ممتازة بعقليتها بالقياس الى مجموع كبير من الشعب الجاهل ، طبقة اصبحت ثرية بالقياس الى المجتمع الفقير ، طبقة (الأفندية) طبقة الارستقراطية المتعلمة الفتية .

وشيئا فشيئا ، أصبح المجتمع المصرى طبقتين متمايزتين ، طبقة (الأفدنة) وطبقة (الفلاحين) طبقة العمل الميرى ، وطبقة العمل اليدوى القذر . وصارت الطبقة الاولى تحسد وتلقى التقدير والاحترام . بينما الثانية تكد وتشقى وتخضع ولاتلقى جزاء كدها .

وهكذا أصاب المجتمع المصرى انحلال ، نتيجة شعور الطبقة العاملة وهى السواد الأعظم بالاهمال وفقدان العدالة ، وأصاب المجتمع اختلال التوازن واحتقار العمل اليدوى .

ومما ساعد على تجسيم هذا الانحلال هو أن افراد الطبقة المتعلمة لم تعد الى بيئتها التى نشأت فيها لترقى بها وترفع مستواها ، وتلائم بينها وبين

---

(١) على مبارك : الخطط التوفيقية مجلد ٣ جزء ٩ ص ٤٠

(٢) احمد عزت عبد الكريم : ص٦٤٥ — ص٦٥٢

وافتقر الريف المصرى الرجل المفكر الذى عمل على انهاضه ، وبدأ أهل حياتهم الجديدة ، بل انهم تحولوا الى بيئات أخرى ، فى حاضرة البلاد ، الريف بعد قليل يهجرونه ويتحولون الى المدن بغية الشهرة والغنى . ومع الزمن بدأت هذه الطبقة المتعلمة تشعر بالقوة وعلو المقام ، وبدلا من الاخذ بيد أهل الريف ، بدأوا هم على العكس يحتقرون هؤلاء الفلاحين ، ويمنعون منهم التعليم ، بدعوى أن هذا التعليم يصرفهم عن العمل فى الأرض التى نشأوا فيها ، ويزيد من عدد المتعطلين ، ويعرض البلاد للمشاكل الاجتماعية الخطيرة .

الفصل الخامس

« محمد على يدعم اســتقلاله »

(الحرب الوهابية — وفتح السودان)

١ — الحرب الوهابية ١٨١١ — ١٨١٩م

كان ذلك سنة ١٨٠٧ حينما طلب السلطان من محمد على أن يرسل قواته الى بلاد العرب ليقضى على الثورة الوهابية ، ومحمد على حينذاك لم يكن قد تخلص من مشاكله ولم يكن قد حاز رضا السلطان بشكل يجعله يطمئن على حكمه فى مصر ، وكانت قواته من عناصر رديئة من الدلاة والارنؤود وكان المماليك يثيرون المتاعب فى وجهه وكانت مصر بلا أسطول وبلا جيش وطنى ، وكان زعماء الشعب يريدون أن تكون لهم كلمة بجانب محمد على .

وشعر محمد على حينذاك بأنه لابد أن يستجيب لمطالب السلطان . ولكن كيف والوضع كما رأينا ؟

أخذ محمد على يماطل وان كان فى قرارة نفسه يرحب بذلك لان يتيح له :

١ — التخلص من هذه العناصر الرديئة من جيشه ليتمكن من انشاء قوة جديدة حديثة نظامية .

٢ — ولان هذا يساعد على تحقيق أطماعه فى الاستقلال وتحقيق أحلامه فى انشاء دولة عصرية .

٣ — ولان هذا يساعده فى الحصول على رضا السلطان العثمانى وفى الحصول على امتيازات تجعل منه ومن مصر دولة ذات مكانة خاصة فى

الامبراطورية . وكرر السلطان طلبه سنة ١٨٠٨ وسنة ١٨٠٩ واخيرا وفى سنة ١٨١١ أعد محمد على حملته على بلاد العرب .

وقبل ان نتكلم على هذه الحروب يحسن بنا ان نعرف شيئا عن الحركة الوهابية .

والحركة الوهابية عبارة عن ثورة دينية قام بها الشـــيخ محمد ابن عبد الوهاب فى منطقة نجد بقصد تخليص الاسلام من البدع والخرافات التى لحقت به وتسببت فى ضعف العالم الاسلامى ، وكان هذا الرجل عالما ذكيا تلقى العلم فى البصرة والحجاز وتاثر بالامام بن حنبل والامام ابن تيمية ، واشتهر بالتشدد فى مذهبه وانه وان كانت وعدته هذه دعوة صالحة وطيبة الا أن البعض يأخذ على الشيخ تشدده وتكفيره لمن يأخذ مأخذه ولم يتبع تعاليمه .

وفى العيينة التى ولد فيها ونشأ وبدأ دعوته وأخذت دعوته تنتشر ويكثر انصاره ، فاستاء منه حاكم الاحساء لتشدده فتهدده بالقتل اذا لم يرجع عن دعوته فرحل الى الدرعية حيث أعجب أميرها محمد بن سعود بدعوته فآواه وتحالف معه واصبح من انصاره بل تعهد بنشر هذه الدعوة بشرط أن يؤيد الشيخ سيادة الأمير ، وبالطبع كانت تلك فرصة انتهزها كلا الاثنين هذا ليدعم السبيل أمام دعوته وذاك ليمهد السلطان والنفوذ له فى نجد .

وبقدر ما انتشرت الدعوة بقدر ما اتسع نفوذ آل سعود ، فقد استطاع محمد بن سعود أن يحارب القبائل المجاورة ويفرض عليها سلطانه ونفوذه ، ثم خلفه ابنه عبد العزيز بن سعود سنة ١٧٦٥ وكان من أشد انصار الدعوة الوهابية فأصابت الدعوة انتشارا ونموا وامتد نفوذها من نجد الى الحجاز واطراف العراق ومات الشيخ سنة ١٧٩١ بعد أن قويت دعوته وانتشرت بين القبائل (١) .

أما عبد العزيز بن سعود فقد زحف على كربلاء واستولى عليها

---

(١) حافظ وهبه : جزيرة العرب فى القرن العشرين . الطبعة الخامسة . القاهرة ١٩٦٧ ص٣١٥ — ص٣٢٣ .

سنة ١٨٠١ ونهبها ونهب المدينة المنورة وهدم مسجد الحسين فى كربلاء واستولى على ما به من نفائس فضج المسلمون فى كثير من البقاع واغتالوا الامير عبد العزيز سنة ١٨٠٣ .

ولما جاء سعود استمر فى مناصرة الدعوة ووصل فى فتوحاته الى مسقط وزحف على الطائف واحتلها ثم دخل مكة سنة ١٨٠٣ وبعدها أرسل الى السلطان سليم الثالث يطلب منه منع المحمل سواء من دمشق أو القاهرة لان هذا أمر مخالف للدين . ثم تمكن الوهابيون من الاستيلاء على المدينة سنة ١٨٠٥ ونهبوا نفائس الحرم النبوى ثم امتد النفوذ الوهابى الى عسير واليمن وكان هذا داعيا لان يتجهوا ببصرهم نحو الشام فزحفوا عليها فعلا ولكن الفظائع التى ارتكبوها جعلت السوريين يعرضون عن هذه الدعوة وبذا انحسر النفوذ العثمانى عن شبه جزيرة العرب وتعطل الحج فاضطربت تركيا وفشل ولاتها فى العراق والشام عن الوقوف أمام آل سعود فلم يصبح امام السلطان سوى محمد على يلجأ اليـــه .

اعـــــداد الحملة :

بدأ محمد على يعد الحملة فى منطقة (القبة) فى معسكر أعده لها هناك ، واختار لقيادة هذه الحملة ابنه طوسون وكان فى السابعة عشر من عمره ، واختار الشيخ محمد المحروقى كبير تجار مصر مديرا لمهماتها وجعله مستشارا لطوسون وأوصى بأن يلتزم باتباع مشورته ورايه وجهز محمد على حملة من ٨٠٠٠ جندى منهم ستة آلاف من المشاة والفان من الفرسان ، كما أعد اسطولا بناه فى بولاق ـــ كما راينا ـــ من ثمان عشرة سفينة لنقل الحملة وجنودها ، وجهز الحملة بالكثير من المؤن والاموال والمدافع والبنادق الحديثة، وصحب الحملة الكثير من الصناع من الحرف المختلفة كما رافقها أربع من المشايخ من ائمة المذاهب الأربعة . وبدات الحملة ســيرها فى ســبتمبر ســـــنة ١٨١١م (١) .

---

(١) عجائب الاثار فى التراجم والاخبار جزء ٣ ص٣١٨ ـــ ص٣١٩ ، ص٣٣١ ـــ ص٣٣٣ .

وقائع الحـــــرب :

كانت بلاد العرب بلادا صحراوية قاسية المناخ ، وكان الأمير سعود ابن عبد العزيز أميرا ذكيا قوى المراس بعيد النظر التزم الحرب الدفاعية فى بلاد مجهولة المغاور والطرقات واذا كان الجيش المصرى وجد معاندة من سكان المدن الحجازية فى جدة وينبع لان انقطاع الحج الحق بهم ضررا كبيرا ، فانه من جهة أخرى وجد حربا ضروسا من بدو نجد ومن اتباع الشيخ محمد بن عبد الوهاب .

تمكن طوسون من احتلال ينبع ثم بدر ، وشجعه ذلك على الزحف على وادى (الصفراء) فاستدرجه الوهابيين الى الطرق الضيقة حيث الحقوا بهم الهزيمة وقضوا على جزء كبير من جيشه ومدافعه وذخيرته وأمواله ، ودفعه ذلك الى طلب النجدة من ابيه فأمده بحملة أخرى واستدعى قواد الأرناؤود حيث أعتبرهم مسئولين عن هذه الهزيمة .

أما الوهابيين فقد اكتفوا بتحصين المدينة المنورة ولم يتقدموا لمهاجمة طوسون ، ولما وصل المدد الى طوسون تقدم لاحتلال الصفراء مرة أخرى ونجح فى ذلك ثم تابع سيره الى المدينة وحاصرها ثم حطم أسوارها وتمكن من احتلالها ، وشجعه ذلك على فتح مكة نفسها بمساعدة الشريف غالب بن مساعد وقبائل عرب الحجاز التى استمالها طوسون بالمال وسهل له فتح الطائف فى أواخر يناير سنة ١٨١٣ (١) .

نعود الى سعود فنجده قد تجنب الاشتراك فى الالتحام مع جيوش طوسون بل أخذ يترقب الفرص ، ويدرس أساليب الجيش المصرى وخططه فى القتال ، ويتبين مدى قوته الحقيقية ثم باغت طوسون بعد استيلائه على الطائف (٢) فألحقوا به الهزيمة فى (تربة) بقيادة امراة تدعى غالية ثم تمكن من احتلال (الحناكية) وأجلى منها الجيش المصرى وكان ذلك سببا فى

---

(١) المرجع السابق ص٣٣٦ ، ص٣٥٣ ، ص٣٥٩ ، ٣٩٦ ، ص٤٥٣

(٢) المرجع السابق ص ٣٩٩ .

اضعاف مركز طوسون وزيادة خسائره فأخذ يلتزم خطة الدفاع واعتصم بمدن مكة والمدينة وجدة وينبع وأرسل لوالده للمرة الثانية يطلب المدد (١) .

وجاءه المدد هذه المرة بقيادة محمد على نفسه ، الذى لم يكد يصل جدة حتى أخذ يدرس الحالة عن كثب ، واعتقل الشريف غالب حيث شك فى اخلاصه وبعث به الى القاهرة (٢) ثم أرسل حملة استولت على ميناء قنفذة ولكنها اجبرت على اخلائها فى الوقت الذى كان سعود يرابط بقواته فى (بيشه) و (رانيه) و (تربة) يترقب حركات خصمه وخططه ، ووجد محمد على أن القوات غير كافية فطلب مدد آخر من القاهرة (٣) فأمده نائبه محمد لاظ أوغلى بسبعة آلاف كيس من النقود ، وفى ذلك الوقت توفى سعود ذلك الخصم العنيد وخلفه ابنه عبد الله ولم يكن فى شجاعة أبيه واقدامه وبعد نظره ، بل كان لين العريكة يميل الى السلم .

بدأ الوهابيون يحاصرون (الطائف) وكان بها طوسون فدبر محمد على حيلة انقذ بها حياة ابنه واجلى بها الوهابيين عن الطائف ، ثم تقدم جيش محمد على الى يسبل حيث ألحق بالوهابيين هزيمة نكراء واحتل بعدها تربة ورانيه وبيشه ولكنه لاقى صعوبات كثيرة خلال هذه الغزوة وسار الى قنفذة ثم جدة ثم مكة فاتحا ، وأما قوات طوسون فقد تمكنت من الزحف الى الرس احدى مدن نجد واحتلتها ثم دخلت الشبيبية على طريق الدرعية عاصمة الوهابيين (٤) .

لم يجد عبد الله مفرا من طلب الصلح فعرض الصلح والطاعة على طوسون وانتظر طوسون رأى ابيه ولكن محمد على كان قد قرر العودة الى مصر فجأة .

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : عصر محمد على . الطبعة الثالثة . القاهرة ١٩٥١ ص ١٣٩ — ١٤١ .

(٢) المرجع السابق ص٤٣٨ ، ص٤٥٣ .

(٣) نفس المرجع ص ٤٥١ .

(٤) الرافعى : ص١٤١ — ص١٤٥ ، الجبرتى جزء ٣ ص ٤٦٣ — ص٤٦٦ ، ٤٧٦ .

أولا : لانه علم بنفى نابليون ثم هروبه من منفاه وعودته الى فرنسا فخشى أن يفكر فى الهجوم على مصر مرة أخـــرى .

وثانيا : لانه علم بأن هناك مؤامرة يدبرها لطيف باشا أمين الخزينة للاستيلاء على الحكم .

ولكن هناك بعض الشكوك حول مؤامرة لطيف باشا الذى يقول البعض أن الترك أثاروه ضد محمد على ولم يكن هذا معقولا لحاجة الترك اليه فى هذا الوقت ، وأغلب الظن أن محمد لاظ أوغلى كان يكرهه لانه من المماليك ولانه حاز ثقة السلطان فحقد عليه وعزم على التخلص منه فألصق به تلك المؤامـــــرة .

اخفاق مشروع الصلح وتجدد الحـــرب :

كان طوسون قد عقد هدنه مدتها عشرين يوما مع عبد الله بن سعود حتى يراجع أبيه وارسل له أبوه متشددا اذ أصر على اعتبار أمير الوهابيين خارجا عن طاعة السلطان ولابد اذن من سفره الى الآستانة ليرى فيه السلطان رأيه ، وكان السبب فى هذا الموقف من محمد على هو أنه كان يريد أن يطيح بسلطة الوهابيين من بلاد العرب ليبسط عليها حكمه ونفوذه .

ورفض عبد الله هذا الشرط ورفض الذهاب الى الآستانة فأرسل اليه محمد على يتوعده بينما رجع طوسون الى مصر عندما علم بقيام فتنة أثارها الجنود الأرنؤود ضد أبيه (١) .

حملة ابراهيم باشـــــا :

ظل محمد على ستة شهور يعد حملة جديدة جهزها بالمؤن والذخائر والسفن وأسند قيادتها الى ابنه ابراهيم ، ثم خرجت الحملة وبلغت ينبع يوم ٢٩ سبتمبر سنة ١٨١٥ وتقدم ابراهيم الى المدينة المنورة وزحف بعدها

---

(١) الجبرتى : جزء ٣ ص ٤٩٣ ـــ ص ٤٩٦

على الصوبدره وهناك أخذ العرب ينضمون اليه مما ساعده على السير الى الحناكية والى الرس حيث انتصر على الوهابيين على مقربة منها ولكنه رفع الحصار عن الرس بعد اربعة شهور لمناعتها واستمانة الوهابين فى الدفاع عنها ولانتشار الامراض بين جنوده ولانتشار اليأس والملل فى نفوسهم وتصالح ابراهيم مع عبد الله على أن يعيد له الرس اذا استولى على عنيزة وفعلا تقدم اليها ابراهيم باشا فسقطت فى يده بسرعة وتراجع عبد الله من الرس الى الشقراء واخذ يحصن الدرعية فى الوقت الذى أحتل فيه ابراهيم بريدة ثم الشقراء بعد حصار شديد فى ٢٢ يناير سنة ١٨١٨ (١) وفتح أمامه الطريق الى الدرعية ، فتقدم اليها واستولى فى طريقه على ضرمة وبدأ السير الى الدرعية فى ٢٢ مارس سنة ١٨١٨ فى جيش من خمسة آلاف من المشاه وخمسمائة من الفرسان و ١٢ مدفعا وحصارها شهرين وثبت فى حصاره رغم عاصفة كادت تودى بجيشه ورغم احتراق مستودى ذخيرته ، ولما جاءته الذخيرة جدد الهجوم واستولى على أحياء المدينة الواحدة بعد الاخر وتمكن من الاستيلاء عليها بعد حصار دام خمسة اشهر وسلمها الوهابيون بعد أن تعهد لهم ابراهيم بعدم تدمير المدينة أو الحاق الضرر بالاهالى ولكنه اضطر بعد ذلك الى تدميرها حسب أوامر أبيه (٢) .

أما عبد الله بن سعود فقد جاء الى مصر أسيرا وتلقاه محمد على وأكرمه ثم أمر بترحيله الى الآستانة فوصلها وهناك قتله السلطان العثمانى .

وعاد ابراهيم الى مصر فى ٩ ديسمبر سنة ١٨١٩ بعد أن وطد النفوذ المصرى .

١ — ونظرة الى هذه الحرب نجدها قد اثمرت عن خسائر عديدة فى الارواح والأموال والذخيرة فهى حرب امتدت نحو تسع سنوات وقاتل فيها الوهابيون بشراسة استدعت أن يذهب محمد على بنفسه الى بلاد العرب لمساعدة طوسون ثم الى أن يرسل ابراهيم باشا بعد عودته .

---

(١) عجائب الاثار ... ص٥٧٨ ، ص٥٨٠ .

(٢) المرجـــع الســـابق ص ٥٨٢ .

٢ — وهذه الحرب ساعدت محمد على فى التخلص من تلك الطغمة الفاسدة من القواد الدلاة والارناؤود ومن عدد من هذه الجنود ، وكانت الحرب السودانية بعد ذلك فيها قضاء على عدد آخر ففتحت الطريق امام محمد على لانشاء جيش وطنى حديث ومنظم على أحدث النظم وبأحدث الأسلحة أكمل به مشواره فى تدعيم دولته .

٣ — الا أن أعظم ما اثمرت هذه الحرب فكان امتداد النفوذ المصرى فى عهد محمد على الى شبه جزيرة العرب فقد ظل محمد على يحكم بلاد العرب حتى سنة ١٨٤٠ حين أخرج منها بعد تآمر الدول وخاصة انجلترا ضده .

٤ — ثم أن السلطان العثمانى رضى عن محمد على ، وتدعم مركزه ، وتصادف أن كان قد تخلص مما وقف فى وجهه من صعوبات ومشاكل فخرج من حرب الوهابيين وهو يقف على أرض صلبة ويحكم دولة واسعة تتمتع بمركز قوى بين الولايات الاخرى .

٥ — ثم أن فتح بلاد العرب على يد محمد على أعاد للدولة العثمانية هيبتها وجمع العالم الاسلامى تحت لوائها من جديد ، وأعاد الحج الى ما كان عليـــــه .

٦ — كذلك فتح بلاد العرب وانتصار محمد على على الوهابيين أول حجر فى زعامة مصر للعالم الاسلامى فى ذلك الوقت ، وفى تفكير محمد على فى انشاء دولة عربية كبيرة وحتى فى بلاد العرب نفسها كسبت مصر الانصار لان هؤلاء الذين أضيروا من توقف طريق الحج ، وهؤلاء الذين لم تعجبهم الدعوة الوهابية نظروا الى حملة محمد على كحملة خلاص وليست حملة فتح وخاصة أنه اتبع العدل بين الناس ومنع الجنود من السلب والنهب فاكتسب محبتهم .

٧ — وفتح الغزو المصرى لبلاد العرب الاوربيين وأيقظ الخوف فى نفوسهم من تلك القوة الجديدة النامية ، وخاصة بعد أن أخذ محمد على يشرف على طريق التجارة فى البحرين المتوسط والاحمر ويعين له وكيلا تجاريا فى بمباى هو (فوريس وشركاه) ، وأخذ يحد من سيطرة السفن الاوربية وجولاتها فى

البحر الاحمر دون رقيب . ويحد من رحلاتها الى الشمال من جدة .. وخافت انجلترا من ذلك وأحست أن البحر الاحمر خرج من يدها فبدأت تقف فى وجه محمد على ومشروعاته التوسعية .

٨ — واصبحت مصر قوة جديدة فى عالم السياسة الدولية يحسب لها حسابها (١) .

٢ — ((فتح السودان))

كان فتح السودان مشروعا اقتصاديا وحضاريا بالدرجة الاولى عند محمد على ، فهو قد رغب أن يحصل على مناجم الذهب والفضة التى تسامع بوجودها فى السودان ، وهو كذلك قد أرسل مع الحملة عدد من العلماء ليبثوا الدعاية الاسلامية فى أرجائه ليوفروا عليه الكثير من الجهد فى الحرب والقتال (٢) .

والى جانب ذلك كان محمد على ضيقا بجنوده الالبان والارناؤود والدلاة فقد عادوا من بلاد العرب ليثيروا الشغب من جديد فأراد أن يقذف بهم فى مجاهل السودان ، وهم بدورهم بعد سماعهم أن السودان يفيض ذهبا وفضة تحمسوا لهذا الفتح ، ورجا محمد على أن يستفيد من ذلك ، فالى جانب القضاء على هؤلاء يستطيع أن يجند من السودان عددا من العبيد . فقد سمع أنهم محاربون أشداء يشتهرون بالطاعة والاخلاص ، ثم هو يريد أن يوفر اليد العاملة المصرية لمشروعاته الزراعية والصناعية ولايريد أن يستنفذها فى الجندية ، وهو ايضا أحس بأن المصريين قد ثقلت عليهم ضرائبه ومغارمه وخاف أن تحدثهم أنفسهم بالثورة عليه فأراد ان يستعين بحرس من عناصر غير مصرية .

وكذلك كانت بقايا المماليك فى مديرية دنقلة تشغل باله وتفكيره لانه خاف

(١) حسين مؤنس : الشرق الاسلامى فى العصر الحديث . جزء أول . الطبعة الثانية . القاهرة ١٩٣٨ ص١٩٤ — ص١٩٨ .
(٢) نفس المرجع ص١٩٨ ، ص٢٠٠ .

أن تتجمع هذه العناصر وتسترد قوتها وتهاجم مصر فعمل على التخلص منها نهائيا (١) .

ويذكر بعض المؤرخين أن محمد على رغب من فتح السودان أن يوسع ملك مصر فى الجنوب فقد كان يشعر أن السودان ومصر بينهما روابط طبيعية وتاريخية لاتنفصم عراها وأن كلا منها يدعم الاخر اقتصاديا ويؤلف جزءا من شطرى واد واحد فى تحالفهما وفى اتحادهما قوة ، وأنه بفتحه للسودان يستطيع أن ينشط حركة التجارة ويؤمن لطرق التجارة سبلها ، وكذلك يستطيع أن يساهم فى كشف منابع النيل ومجاهله ويؤمن للمكتشفين طريقهم ، وقد كانوا يلاقون الصعوبات الجمة فى سبيل هذا العمل الحضارى العظيم (٢) .

ويروى أن محمد على كان يخشى من أن تفكر انجلترا فى السيطرة على منابع النيل والسيطرة على مصر من الجنوب بعد أن فشلت حملة فريزر عليها فأراد أن يؤمن حدود مصر وسلامتها ، ويطمئن على منابع النيل شريان الحياة الاقتصادية فيها ولخدمة مشروعاته الزراعية الواسعة (٣) .

الاستعداد للحملة :

أراد محمد على أن يؤمن حدود مصر الغربية قبل أن يزحف على السودان فجرد حملة من ١٣٠٠ جندى بقيادة حسن بك الشماشرجى فتحت سيوة وأخضعتها للحكم المصرى فى فبراير سنة ١٨٢٠ وبدأت تنتظم شئونها وقصدتها حملات الكشف ومنها حملة لينان دى بلفون كبير مهندسى محمد على والمسيو دروفتى Drovetti قنصل فرنسا العام فى مصر والمسيو ريتشى الطبيب الايطالى (٤) .

---

(١) المرجع السابق ص ١٩٨ — ٢٠١ .
(٢) الرافعى : عصر محمد على ص١٦٨ — ص١٦٩ .
(٣) المرجع السابق ص١٦٩ — ص١٧١ .
(٤) الجبرتى : ص٦٠٩ — ٦١٢ .

كذلك استصدر محمد على فتوى تشرع له فتح السودان ، ويبدوا أنه خشى من استبداد الالبانيين بأرض السودان على اعتبار أنها فتحت بأيديهم وليس للسلطان حق عليها ، ثم انها كانت بلادا اسلامية وليس لاحد حق استرقاق أهلها بلا سبب ، وهو كذلك أراد بهذه الفتوى أن يؤثر فى الاهالى خشية أن تشتد مقاومتهم له (١) .

وبدأ محمد على بجهز للحملة المرسلة الى السودان واختار لمصاحبتها ثلاثة من العلماء هم الشيخ على محمد قاضى أسيوط والشيخ أحمد البقلى والشيخ أحمد السملاوى المغربى (٢) وذلك لكى يقوموا بدعوة السودانيين للطاعة والاعتراف بسيادة الحكومة المصرية حقنا للدماء واختار أيضـا لصاحبتها م . فردريك كايو Khaio ليقوم بالكشف عن مناجم الذهب والفضة .

أما عن الجنود فقد جهز محمد على ٤ آلاف مقاتل من الفرسان والعرب والمغاربة ، وجهز كذلك ١٤٠٠ مقاتل لحقوا باسماعيل باشا أثناء زحفه واسند قيادة هذه القوه لابنه اسماعيل بينما أنفذ جيشا آخر ضم نحو ٤ آلاف جندى بقيادة صهره محمد بك الدفتردار وكلفه بفتح كردفان .

واعد لهذه الحملة ثلاثة آلاف مركب لنقلها ونقل عتادها فى النيل كما جهزا لها ثلاثة آلاف من الابل للنقل البرى وسار فى خدمة هذه الحملة ألفان من الأتباع والعبيد (٣) .

فتح السـودان :

سارت الحملة فى ١٨ يولية سنة ١٨٢٠ قاصدة السودان ، وركب المشاة المراكب فى النيل ، أما الفرسان فقد ساروا ومعهم رجال المدفعية يركبون الخيل والدواب بالبر الغربى وسبقت هذا الجيش طليعة من خمسمائة من الفرسـان .

---

(١) مؤنس : ص ٢٠٠ .
(٢) الجبرتى : ص ٦١٢
(٣) الرافعى : ص ١٧٣ — ص ١٧٤ .

وبعد أن وصلت الحملة الى جنوب الشلال (الجندل السادس) فر المماليك الذين كانوا (بالدر) وخضعت هذه المنطقة لاسماعيل باشا . وبعدها تقدمت الحملة الى وادى حلفا ثم زحفت على مديرية دنقلة فتمكنت من دخول (سكوت) و (دنقلة) دون مقاومة فقد استسلم من بها من المماليك وفر بعضهم الى هندى فلم يقبل ملكها ايواءهم فتشتتوا بين القبائل السودانية التى سلبتهم متاعهم . ودخلت هذه المنطقة فى طاعة محمد على .

أما المقاومة الجدية فكانت فى منطقة (كورتى) حيث قاتله الشايقية بشجاعة ولكن بنادقه فتكت بهم ، ولما أعجب اسماعيل باشا بشجاعتهم عرض عليهم الخدمة فى الجيش المصرى فقبلوا وأخلصوا للحكم المصرى . وتقدم اسماعيل باشا حيث أحرق (كورتى) واخترق صحراء بيوضة فوصل الى (بربر) فى ١٠ مارس و (شندى) فى ١٨ مارس وقدم ملوكهما خضوعهم ، فأقر اسماعيل نصر الدين ملك بربر ونمر ملك شندى فى مكانهما، وأخذت المدن تسقط فى يد اسماعيل مدينة بعد أخرى فسقطت (حلفاية) ثم (أم درمان) ثم (الخرطوم) وكانت قرية صغيرة بها بضع بيوت من الغابات . وبعد أن وطد اسماعيل قدمه فى هذه الجهات ، فتح (سنار) عاصمة مملكة سنار فى ١٢ يونية سنة ١٨٢١ .

أما محمد بك الدفتردار فقد سار الى كردفان ووصلها بعد رحلة شاقة مضنية فى منطقة جبلية صحراوية مجهولة المسلك وفى (باره) اشتبك مع السلطان محمد الفضل فى معركة فى ابريل انتهت بهزيمة السلطان ثم سقوط (الابيض) عاصمة كردفان فى يد محمد بك الدفتردار .

وهكذا كان فتح السودان أسهل بكثير من غزو بلاد العرب ففى بلاد العرب قاتل العرب البدو والمشهورون بالشجاعة ببسالة وفى سبيل عقيدة يذودون عنها وكانوا مدربين جيدا على القتال واستخدام الاسلحة ، أما فى السودان فلم يكن هناك مملكة واحدة قوية ، وانما كان السودان مقسما الى ولاياته وممالك عديدة ليس بينها ترابط ، وليست فى كفاءة الوهابيين الحربية . ولذلك فقد سقطت المدينة بعد الاخرى والمملكة بعد الأخرى .

ولكن ورغم هذا فان الجيش المصرى قابل فى السودان عددا من المصاعب

كان من اهمها فتك الأمراض والأوبئة به ، فهذه المنطقة كانت تنتشر بها امراض المنطقة الحارة ، ولم يكن يصحب الحملة سوى قليل من الاطباء لبست لهم دراية بهذه الامراض وطرق علاجها والوقاية منها . وكان منها كذلك قلة المأكل والملبس والعناية اللازمة وأدى هذا الوضع الى تذمر الجنود وظهور بوادر الثورة مما جعل اسماعيل يلح على ابيه فى ارسال المؤونة والملابس فارسل محمد على ابنه ابراهيم بالمطلوب فدب الأمل فى نفوس الجنود وخاصة بعد أن دفع لهم رواتبهم المتأخرة .

بعد ذلك اتفق الأخوان على أن يسير اسماعيل الى مجارى النيل الأزرق لفتح هذه المنطقة ويسير ابراهيم الى أعالى النيل الابيض الى بلاد الشيلوك والدنكا ولكنه لم يكد يصل الى بلدة (القربين) حتى مرض فعاد الى مصر .

أما اسماعيل فواصل زحفه وتمكن من فتح (فازوغلى) فى يناير سنة ١٨٨٢ ، وخضع ملكها الملك حسن ولكن اسماعيل كان قد أصابه المرض والتعب فطلب من ابيه الاذن له بالعودة .

وهنا كانت النكبة الثالثة التى أصابت الجيش الغازى فان أهالى (شندى) و (حلفاية) ثاروا فى وجه الحكم المصرى بتحريض من الملك نمر فأسرع اليها اسماعيل حيث أنب نمرا ولطمه على خده فأسر فى نفسه الانتقام وخاصة بعد أن فرض عليه غرامة مالية جسيمة يوفيها فى مدى خمسة أيام ، وأن يقدم الفا من الرقيق ، ودعا الملك نمر اسماعيل الى وليمة فى قصره وكان من القش وأثناء الوليمة اشعل رجال الملك نمر النار فى القصر وما حول من القش ومات اسماعيل وحاشيته حرقا . بينما انقض جنوده على من بقى من جند اسماعيل فقتلوهم .

وعلم الدفتردار بهذه المكيدة فزحف على شندى وخربها ونكل بأهلها بقسوة وسبى آلافا من النساء والصبيان وتعقب الملك نمر ولكنه لم يدركه فقد هرب الى حدود الحبشة .

نتائج فتح السودان :

بحث اسماعيل باشا ومعه المسيو كايو عن مناجم الذهب التى سمعوا

عنها فى جبل بنى شنقول ولكنهم لم يعثروا على شىء ذى قيمة منه . ولم يقتصر عمل هؤلاء الباحثين على البحث عن الذهب والفضة ، بل انهم قاموا بدراسة الخصائص الطبيعية والجغرافية لتلك الاقاليم .

والحكم المصرى من جهة أخرى ساعد على توطيد دعائم الامن والنظام فى ربوع السودان بعد أن كان الامن مضطربا وطرق المواصلات مقطوعة وقوافل التجارة وتشجيع العلماء ورواد الكشف والاستطلاع للقيام بالرحلات العلمية لاستكشاف الاصقاع النائية من السودان ولكشف منابع النيل وروافده ومحمد على قام بنفسه بتنظيم البعثات والحملات الجغرافية للكشف عن منابع النيل الابيض وأمده بالجنود والمراكب اللازمة لرحلته .

وقد قام سليم قبطان بثلاث حملات :

أ ــ فى الحملة الأولى التى تحركت من الخرطوم فى ١٦ نوفمبر سنة ١٨٢٩ الى النيل الأبيض ولكنها عند بلدة العيس لم تستطع التقدم بسبب الجنادل والعوائق النهرية فعادت ثم انحدرت فى نهر سوباط ولم تستطع التقدم فزحفت الى الخرطوم فى ٣٠ مارس سنة ١٨٤٠ وقام سليم قبطان فى رحلته باعداد جدول للارصاد الجوية لهذه الجهات وكان أول دراسة عاونت فى اكتشاف باطن القارة وقد قامت الجمعية الجغرافية الفرنسية بدراستها بعد أن قدمها لها المسيو جومار رئيس البعثة المصرية بفرنسا ، كما نشرت فى مجلة الجمعية الجغرافية (١) .

ب ــ أما الحملة الثانية فابتدأت فى ٢٣ نوفمبر سنة ١٨٤٠ وصحب سليم قبطان سليمان كاشف يقود قوة برية ومعه المهندسان الفرنسيان دارنو وساباتييه والرحالة الالمانى فرن والمسيو تليو ، وقد وصلت هذه الحملة الى جزيرة جونكر على خط عرض (٥٥) على بحر الجبل وهى مدينة قريبة من البحيرات ليس بينها وبين منابع النيل الا مسافة قصيرة ولم تستطع التقدم بسبب وجود العوائق النهرية فعادت وعرجت فى عودتها على نهر السوباط وسارت فيه

---

(١) نسيم مقار : البكباشى المصرى سليم قبطان والكشف عن منابع النيل . الطبعة الاولى . القاهرة سنة ١٩٦٠ ص٢٨ ــ ٦١ .

الى أن تعذر مسيرها الى مسافة أطول فعادت وكتب مسيو دارنو رسالة عن هذه الرحلة نشرتها الجمعية الجغرافية الفرنسية (١) .

جـ ــ أما الحملة الثالثة قامت من الخرطوم يوم ٢٧ سبتمبر سنة ١٨٤١ وقد تعرضت السفن للرياح وتعرض الجند للمرض ولم تستطع تجاوز النقطة التى وصلتها فى رحلتها الأولى فعادت الى الخرطوم فى ٦ مارس سـنة ١٨٤٢ .

ومن هذا يتضح أن هذه الرحلات قد لاقت صعوبات جمة وهى بذلك ترينا كيف أن هذه المناطق كانت مجهولة وكيف أن اكتشافها كان أمرا صعبا ولكن العزم والاصرار والرغبة فى الكشف التى اتصف بها محمد على أتت بنتائج هامة أعطتنا صورة عن هذه المناطق وعن أحوال سكانها ونباتها وأشجارها ومناخها وحيوانها وهذه الدراسات قدمت خدمات جليلة للعلم والحضـارة (٢) .

أما تجنيد السودانيين فلم يتم كما أراد محمد على فقد حمل آلافا من السودانيين الى مصر ليجندهم ولكن الجو لم يناسبهم وانتشرت بينهم الامراض وفشلت هذه التجربة .

نظـام الحكم المصرى فى السـودان :

اعاد الفتح المصرى للسودان النظام والامن ، فان محمد على عين للسودان حاكما أطلق عليه (حكمدار السودان) جمع فى يده السلطة المدنية والسلطة العسكرية وكان يرجع فى سلطته الى ديوان الداخلية فى مصر . ونظرا لبعد السودان عن مصر بسبب صعوبة المواصلات فى ذلك الوقت كانت سلطة هذا الحاكم مطلقة ، وانشأ اسماعيل باشا مدينة الخرطوم عند ملتقى النيل الأزرق والنيل الأبيض وسرعان ما اتسعت المدينة وصارت ملتقى المتاجر الآتية من انحاء السودان ومن البلاد الأفريقية ، وصارت مركزا لحركات الكشف والرحلات العلمية ومرسى للسفن وتزايد مع الوقت عدد سكانها حتى بلغوا

---

(١) المرجع السابق ص٦٢ ــ ص٩٤ .
(٢) المرجع السابق ص٩٥ ــ ص٩٧ .

نحو ٥٥ الفا سنة ١٨٨٣ وكانوا نحو ثلاثين الفا في عهد محمد على ، وقد قسم السودان الى مديريات لكل منها مدير يتولى قيادة الجند وقسمت المديريات الى اقسام لكل قسم منها ناظرا وكان يساعد المدير وكيل وعدد من المعاونين والكتبة وقاضي ومفتي ومجلس أمن ورجال للشرطة . أما السكان الاصليون فقد ابقاهم محمد على في مراكزهم وكانوا عبارة عن مشايخ مثل شيخ النوبة وشيخ دنقلة وشيخ بربر ، وكل هذا الجهاز الادارى يتلقى أوامره من الحكمدار وتحت اشرافه . وعندما كان يضعف نفوذ هؤلاء الحكمداريين كان يجنح هؤلاء الموظفون الى العنف والظلم مما أدى الى تبرم الأهالي .

وفى السودان جعل محمد على حامية بلغت نحو سبعة آلاف جندى منهم ٤٠٠ من الشايقية في سنة ١٨٣٨ ثم زاد العدد بعد ذلك حتى بلغ نحو ١٨ ألف جندى وهذه الحامية كانت موزعة على العواصم والمدن الكبرى . وبمضى الوقت دخل عدد كبير من السودانيين في هذا الجيش .

وكان محمد بك الدفتردار أول حكمدار للسودان وتعاقب بعده من الحكمداريين من أشهرهم عثمان بك الذى تولى سنة ١٨٢٣ ومحو بك في سنة ١٨٢٥ وكان عادلا رحيما بعكس عثمان بك الذى فرض الضرائب الفادحة وأسرف جنوده في القتل . وكان اعظمهم خورشيد باشا لانه امتاز بالسيرة الحسنة والعدل والاستقامة واعتنى بأموال البلاد وتأمين الاهالي على أموالهم وأرواحهم وحذا حذوه أحمد باشا أبو ودان الذى فتح في عهده اقليم كسلا واسست مدينة كسلا سـنة ١٨٤٠ .

وفى سنة ١٨٣٨ قام محمد على برحلة الى السودان ليتعهد شئونه وليبحث عن مناجم الذهب وصحبه طائفة من المهندسين والباحثين وأمر في زيارته بالغاء تجارة الرقيـق .

وزاد العمران في السودان اذ انتظمت أمواله واسست المدن مثل الخرطوم وكسلا وفامكة على النيل الازرق سنة ١٨٤٠ في اقليم سنار ، كما توطد الامن ونشطت المعاملات التجارية وأدخلت العديد من المحاصيل الزراعية وحفرت الابار وأصلحت الطرق مثل الطريق بين كروسكو وأبو حمد (١) .

---

(١) الرافعي : ص ١٨٦ ـ ص ٢٠١.

الفصل السادس

النزاع بين محمد على والسلطان وتحديد مركز مصر الدولى

استطاع محمد على أن يفتح السودان ويضمه الى حكمه سنة ١٩٢٢ وينظم الحكم فيه وينشىء فيه عددا من المدن أهمها الخرطوم وكسلا وفامكة ويوطد الامن فى ربوعه ويدخل فيه عددا من المحاصيل الزراعية مثل القمح والخضر ويغرس فيه الاشجار ويحفر عددا من الابار فى صحراء النوبة بين كرسكو وابى حمد ، وشجع انتشار الامن فى ربوع السودان على قيام عدد من البعثات العلمية ورحلات الكشف الجغرافى التى ساعدت على اكتشاف منابع النيل وعهد محمد على الى البكباشى المصرى سليم قبطان أحد ضباط البحرية المصرية بكشف منابع النيل الأبيض فقام بثلاث رحلات اكتشف فى الاولى نهر سوباط أحد روافد النيل فى فبراير سنة ١٨٤٠ ومارس سنة ١٨٤٠ وفى الثانية اكتشف النيل الابيض فى منطقة غندكر وجنوبى البحر بمائة وثمانية أميال جنوبا فى ٢٥ يناير سنة ١٨٤١ وفى الثالثة لم يستطع التقدم جنوبا نظرا لما حل بالجنود من الأمراض .

وفى سنة ١٨٤١ كلفه السلطان العثمانى بالقضاء على الثورة الوهابية التى قامت فى نجد وفشلت الدولة العثمانية نفسها فى اخمادها وكان من نتائج استفحال الثورة وسيطرة آل سعود على الحجاز أن تعطلت بعثات الحج واستطاع محمد على — حيث اخفقت تركيا — أن يقضى بقوة جيشه على دولة الوهابيين فتوطد مركزه وسمت مكانته فى نظر تركية فلم تعد تفكر فى عزله او تغييره .

ثم كان لنجاح محمد على — رغم تحطيم اسطوله فى نوارين سنة ١٨٢٧ — فى حروب المورة وعلو مكانته فى نظر الدول . أثر على تفكيره فى الانفصال وتحقيق استقلال مصر وخاصة بعد ان ظهرت شخصية محمدا على الدولية

وخاطبته الدول رأسا دون وساطة السلطان العثمانى بل ان انجلترا أرسلت له تبدى اسفها على مالحق بالاسطول المصرى فى نوارين وتظهر رغبتها فى جعل علاقتها به ودية . وعقدت معه الدول اتفاقا فى اغسطس سنة ١٨٢٨م وهذا أول وثيقة سياسية ابرمها وزير خارجية مصر مع دولة اجنبية فى عهد محمد على .

وكان أول تفكير لمحمد على ــ كما يرى بعض المؤرخين ــ هو امتناعه عن امداد السلطان بالمساعدة فى حربها مع روسيا معتذرا ببعد المسافة بطريق البر وعدم توفر السفن لنقل الجنود .

وكان هذا ايذانا بوقوع نوع من الجفاء بينه وبين الباب العالى . وتوجس السلطان محمد الثانى منه خيفة وفكر فى الانتقام منه وانتزاع مصر منه ولم يحل بينه وبين تحقيق ذلك سوى ارتباك مالية الدولة العثمانية فى ذلك الوقت ولذلك فقد كان قيام الحرب بين محمد على والسلطان ضرورة لامناص منهـا (١) .

ضرورة دفاعية لمحمد على ضد رغبة تركية فى استرداد مركزها وضرورة هجومية له لانه رغب فى ضم سورية الى مصر لصيانة ممتلكاته فقد كان معنى انشاء دولة مستقلة ضم سورية الى هذه الدولة لانه لايمكن تأمين هذه الدولة الا عن طريق برزخ السويس وكانت حدود مصر الطبيعية الحصينة فى نظره ليست فى السويس وانما هى جبال طوروس فى شمال الشام وبعض المؤرخين يذكرون أن ابراهيم باشا عندما سئل اثناء حصاره لعكا الى اى مدى تصل فتوحاته اذا تم له الاستيلاء عليها فقال ما معناه الى مدى مايتكلم الناس وأتفاهم واياهم باللسان العربى (٢) وذلك يعنى ان محمد على كان يفكر فى انشاء دولة تضم الولايات التى تتكلم باللغة العربية أما وقد فتح السودان ونال حكم بلاد العرب فقد بقيت سورية . بل ان ابراهيم نفسه كان يرى من الضرورى ضم العراق كذلك .

---

(١) كلوت بك : جزء أول ص١١٨ ــ ص١١٩
(٢) الرافعى : عصر محمد على ــ الطبعة الثالثة ص٢٤٦ ــ ٢٤٧

وفى سنة ١٨٣١ كانت الظروف ملائمة لمحمد على لتحقيق مشروعه فقد خرجت تركية من الحرب اليونانية سنة ١٨٢٧ والحروب الروسية سنة ١٨٢٩ منهوكة القوى فاذا عرفنا ماكان بها من فتن داخلية واضطرابات ادركنا كم كانت تعانى هذه الدولة الهزيلة وأن محمد على كان فى استطاعته تحقيق مشروعه لو لم تقف الدول الأوربية وانجلترا فى وجهه .

ثم أن محمد على كان يمتلك جيشا قويا نظمه ودربه وجهزه بالاسلحة الحديثة ، وأسطولا أنشأه فى ترسانة الاسكندرية وكانت سورية تعانى من مساوىء الحكم العثمانى ومظالمه وبشير الشهابى كبير امراء لبنان منذ سنة ١٨٢٢ كان صديقا لمحمد على فكان له عضدا واستمال محمد على الشيخ حسين عبد الهادى من زعماء نابلس . ومصطفى أغا برير الذى عينه ابراهيم باشا على طرابلس ، وبذا لم يكن محمد على يخشى المقاومة لجيشه القوى .

ولم يكن بعد ذلك أمام محمد على سوى أن يتذرع بالحجج والدعاوى حتى يهاجم سورية ولما كان عدد كبير من الفلاحين المصريين قد هاجروا الى سورية بسبب فداحة الضرائب وهربا من السخرة وتخلصا من الخدمة العسكرية فان محمد على خشية من عواقب هذه الهجرة الاقتصادية فقد طلب الى عبد الله الجزار والى صيدا أن يرجع هؤلاء المهاجرين فرفض فغضب محمد على وارسل اليه يتوعده (٣) .

تجهيز الحملة :

جهز محمد على جيشا تكون من ستة آلايات من المشاة وأربعة من الفرسان عدته ثلاثين الف جندى مجهزين بأربعين مدفعا ميدانيا وعدد من مدافع الحصار وكثير من المؤن والذخائر وجهز جزءا من الاسطول لنقل الحملة قوامها ١٦ سفينة حربية و ١٧ سفينة نقل عقد لواءها للاميرال عثمان نور الدين باشا وتم تجهيزها فى أوائل سنة ١٨٣١ ولكن وباء الكوليرا الذى فتك بالناس فتكا ذريعا اربعة وثلاثين يوما وقضى على مائة وخمسين الف من السكان وخمسة آلاف من الجنود أوقف الحملة عن المسير .. ولما جاء شهر

---

(١) محمد كرد على : خطط الشام . الجزء الثالث . بيروت ١٩٧٠ . ص ٤٦ — ص ٥١ .

اكتوبر سنة ١٨٣١ تحركت الحملة فى ٢٩ منه بقيادة ابراهيم باشا يكن وكان القائد العام للحملة هو ابراهيم باشا بن محمد على (١) .

غـــزو ســـــورية :

احتلت الحملة فى طريقها غزة بعد أن فرت منها الحامية العثمانية وزحف على يافا فأخلاها العثمانيون وتحركت العمارة البحرية من الاسكندرية بقيادة ابراهيم ومعه سليمان باشا الفرنساوى وعباس باشا ابن طوسون والقى مراسيه فى حيفا واتخذها قاعدة لحركاته العســكرية .

وفى ٢٦ نوفمبر سنة ١٨٣١ زحف الجيش المصرى على عكا وحاصرها برا وبحرا ثلاثة شهور استولى فى اثنائها الجيش المصرى بقيادة حسن المناسترلى على صور وصيدا وبيروت وطرابلس واحتلت كتيبة اخرى مدينة القدس .

أما تركيا فانها اضطربت أمام هذا الغزو فأرسلت لمحمد على تطلب منه الكف عن القتال ولكنه اخذ يماطل بينما ارسل الى ابراهيم يطلب منه مواصلة الحرب وتشديد الحصار حول عكا ، واستمرت تركية مع ذلك فى حشد عشرين الف مقاتل تحت قيادة عثمان باشا اللبيب والى طرابلس وعلم بذلك ابراهيم فترك جزءا من جيشه فى حصار عكا بينما تحرك بجزء آخر انجد به طرابلس التى هاجمها الترك ثم تعقبهم الى حمص وفى سهل الزراعة حصد ابراهيم بمدافعه قوات عثمان باشا وارتد الى حماة إنتظارا لوصول المدد ، وعاد ابراهيم الى عكا وشدد الحصار عليها من البر والبحر بمساعدة العرب والدروز والموارنة والقى بدانات المدافع على أسوارها حتى تصدعت ، فهاجمها بعنف فى ٢٢ مايو سنة ١٨٣٢ وتقدم إبراهيم بجنده واخذ يبث الحمية فى نفوسهم فألقت المدينة سلاحها فى مساء ذلك اليوم . بعد أن استمر الحصار لعكا ستة شهور وفقد الجيش المصرى ـــ ٥٠٠ر٤ قتيل . وكان لسقوطها رنة فرح عظيمة فى مصر وسلم عبد الله الجزار نفسه فقابله ابراهيم بحفاوة وأكرمه محمد على فى قصر بالاسكندرية وبعد فتح عكا سار ابراهيم الى

---

(١) كريم ثابت : محمد على ـــ ص ١٦٣ ـــ ص ١٧٣ .

دمشق حيث دخلها فى ١٦ يونية سنة ١٨٣٢ بعد أن الحق الهزيمة بالجيش التركى وساعده على ذلك فتحها ترحيب أهلها به (١) .

أما السلطان العثمانى فقد جزع لسقوط عكا وكان قد أعلن عصيان محمد على ولما ووجه بالحقيقة المرة اعد جيشا عظيما من ستين الف جندى واسطولا من ٢٥ سفينة وعهد بقيادة الجيش الى حسين باشا ووهب له ولاية مصر وكريت لو قهر الجيش المصرى وتقدم حسين باشا ببطء ، وعسكر على مقربة من انطاكية واخطأ حين أرسل محمد باشا والى حلب بمقدمة الجيش للتحصن فى حمص وبذلك تعرضت مقدمة الجيش للهلاك وعلم ابراهيم بهذا فأسرع بجمع جيشه وقواده فى ثلاثين الف جندى وفى حمص فى ٨ يوليو سنة ١٨٣٢ سحق جيش محمد باشا الذى فر بعد أن لقى هزيمة نكراء وفقد الفى قتيل ، ٢٥٠٠ أسير وعشرين مدفعا وذخائر وأمتعة جيشه وكان العامل فى هذا النصر ما امتاز به الجيش المصرى من براعة القيادة وحسن النظام وبسالة الجنود وتفوقهم فى التدريب .

تقدم حسين باشا الى حمص بعد هزيمة مقدمة جيشه والتقى بفلولها المنهزمة ولما علم بحقيقة الحال ارتد الجميع الى حلب واتخذها حسين باشا قاعدة له ولكن أهلها وقد كانوا يكرهون الحكم التركى قاوموا دخول الجيش الى المدينة واغلقوا أبوابها فى وجه الجيش التركى . فانسحب حسين باشا الى مضيق بيلان وتحصن فيه أمام الجيش المصرى فتقدم الى احتلال حماة ثم حلب ومكث بها بضعة أيام وجاء الأهالى من الجهات المجاورة تعلن الخضوع للحكم المصرى ثم تقدم الى بيلان ورابط فى السهل المنبسط تحت المضيق غربى الطريق الواصل من كليس الى انطاكيا بينما كان الجيش التركى يعسكر فوق قمم جبال بيلان فنظم ابراهيم قواته بحيث تحاصر المنافذ المؤدية الى هذه المرتفعات وحتى يضع الجيش التركى هدفا لمدافعه واستطاع أن يحقق نصرا عزيزا فقد فيه ٢٥٠٠ بين قتيل وجريح و ٢٠٠٠ أسير و ٢٥ مدفعا واحتل المصريون بيلان وسلمت لهم مدن انطاكيا واللاذقية والسويدية وكانت نكبة الجيش التركى فى هذه الموقعة ساحقة حيث اختفى حسين باشا متنكرا خشية الفضيحة . وتقدم المصريون الى احتلال ولاية

---

(١) محمد كرد على : المرجع المذكور ص ٥١ — ص ٥٣

أطنه ومع ذلك فان عناد السلطان محمود جعله يعد جيشا جديدا بقيادة الصدر الأعظم محمد رشيد باشا من ٥٣ الف مقاتل ولكنه جيش من خليط من عناصر واجناس مختلفة لاتربطهم رابطة ولاتجمعهم غاية وبذلك كان جيشا بلا روح معنوية فى وقت كان الجيش المصرى وقيادته فى افضل حالهم المعنوية وفى موقف حربى طيب . واحتل ابراهيم مضيق كولك وبعده زالت العقبات الطبيعية من امام جيشه ثم احتل مضيق آخر بالقرب من مدينة شفت خان ونقدم الى قونية التى اخلاها الترك واتخذها قاعدة لجيشه وهناك درب جيشه على القتال فى تلك المنطقة وهى المنطقة التى سيقاتل فيها وكانت تلك براعة وحسن قيادة منه ، وكان جيشه يبلغ ثلاثين الفا مقاتل ولما وصلت طلائع الجيش التركى بقيادة رؤوف باشا فى ١٨ ديسمبر حاول ابراهيم ان يجره الى المعركة بعد أن آنس منه الضعف ولكن رؤوف باشا تحاشى ذلك ثم تقدمت جيوش رشيد ووصلت قونية فى ٢٠ منه وفى يوم ٢١ دار قتال عنيف وهاجم ابراهيم مسيرة الجيش التركى المستندة الى مستنقعات مكشوفة لأن الجيش التركى كان متحصنا على سفح الجبل فى مواقع حصينة فوقع فيها الاضطراب والفشل وعبثا حاول رشيد باشا أن يلم شمل جيشه ولكنه فشل وخاصة أن الضباب كان يحجب المنطقة ووقع أسيرا فى يد المصريين . وفى هجمة هائلة صحبتها المدفعية التى أخذت تحصد الترك هزم الجيش التركى الذى فقد قائده أسيرا وخمسة آلاف قتيل و ٤٦ مدفعا وفقد الجيش المصرى ثلاثة آلاف . وكانت هذه المعركة من المعارك الفاصلة لأنها فتحت أمام الجيش المصرى الطريق الى الآستانة . وارتعدت فرائص السلطان وراى عرشه يتزلزل أمام ضربات المصريين وانتصاراتهم المتوالية .

المســـــألة المصرية :

المسألة المصرية هى مسألة عالمية دولية ظهرت منذ الحملة الفرنسية اذ منذ ذلك التاريخ وقد اتجهت المطامع السياسية الدولية الى مصر وتعددت المنازعات فى شأن المصير لهذه الدولة ذات الأهمية الاستراتيجية الكبيرة وبدأت انجلترا وفرنسا تتنافسان من أجل استعمار مصر ذلك الاستعمار وذلك التنافس الذى بدأ اقتصاديا ثم وجهته الحملة الفرنسية اتجاهاسياسيا، ولما بدأت دولة محمد على الفتية واشتبكت مصر والسلطان فى حرب اقترنت هذه المسألة المصرية بالمسألة الشرقية .

وكانت روسيا فى هذا الوقت تنظر الى الانتصـــارات المصرية بعين الخوف والحذر وبدأت تخشى أن يقضى محمد على القوى على الرجل المريض ويسيطر بذلك على مضيق البسفور والدرنيل والبحر الأسود كذلك ومعنى هذا الحيلولة بين روسيا والوصول الى المضايق والى البحر المتوسط فأسرعت الى التدخل ونجدة الدولة العثمانية وأوفدت اليه الجنرال مورافييف Mourawiéf يعرض عليه المســـــاعدة البحرية والبرية ومعنى هذا هو سيطرة روسيا على الدولة العثمانية وخشيت انجلترا وفرنسا من هذا التدخل الروسى على مصالحها ولذا فقد أسرعتا لوقف التقدم المصرى حتى لاتجد تركيا مسوغا لمساعدة روسيا لها وأوفدت فرنسا الى الآستانة روسان Roussin ســـفيرا لها ليسعى فى فض الخلاف بين محمد على والسلطان .

وبدأت الرسل تعد الى محمد على فهذا مورافييف يعرض عليه الوساطة بينه وبين السلطان وهذا مندوب السلطان خليل باشا يفاوضه فى فض الخلاف سلميا وهذا روسان مندوب فرنسا يرجو الا يشتط محمد على فى طلباته حقنا للدماء وأن يكتفى بولايات صيدا وطرابلس والقدس ونابلس . ولكن محمد على أصر على سورية كلها بل واقليم أطنة وهو جزء من الاناضول نفسها طمعا فى مناجمه وأخشابه ولانه ينتهى بجبال طوروس التى يراها محمد على الحد الفاصل الطبيعى لملكته التى يراها حقا له وتمسك بمطالبه التى رآها طبيعية وعادلة (١) .

صـــــلح كوتاهية :

وبينما هذه المفاوضات تجرى كان ابراهيم قد احتل كوتاهية وصار على مسافة خمسين فرسخا من الآستانة ثم أحل الحكم المصرى فى ازمير وعين عليها منصور زاده فى فبراير سنة ١٨٣٣ ولم تستطع روسيا السكوت فأسرع روسان الى التدخل وبينما اعترض مورافييف على ماشغله ابراهيم فى

---

(١) المرجع السابق ص٥٣ — ص٥٤
وداود بركات : البطل الفاتح ابراهيم وفتحه الشام ١٩٣٢ — القاهرة ؟ ص ١ — ص ٥٤
(٢) داود بركات : ص٦٤ — ص٨٤

أزمير ووجه اليه انذارا بقطع العلاقات ولم يملك ابراهيم الا سحب، الحاكم المصرى لازمير ، أما فرنسا فقد وجهت جهدها لفض الخلاف وخضع السلطان لمطالب محمد على وبعد مفاوضات دامت أربعة أيام تم الاتفاق على الصلح ووقع فى ٨ ابريل سنة ١٨٣٣ وهو الذى عرف بصلح كوتاهية ويقضى بأن يتخلى السلطان لمحمد على عن سورية واقليم اطنة وتثبيته فى مصر وكريت والحجاز ويجلو الجيش المصرى عن باقى بلاد الاناضول . ولم يجلو ابراهيم عما تحت يديه حتى أقر السلطان بتسليم أطنه وأصدر بذلك فرمانا فى ٦ مايو .

من هذا العرض اتضح لنا أن السلطان لم يقبل صلح كوتاهية ولم يصدر فرمان ٦ مايو الا مرغما ومن ثم فلو واتته الفرصة لنقض هذا الاتفاق وقد وقع مع روسيا معاهده سرية هى معاهدة هنكار اسلكه سى فى ٨ يولية سنة ١٨٣٣ وهى معاهدة دفاعية هجومية تعهدت فيها كل دولة بمساعدة الاخرى فى حالة التعرض للخطر الداخلى والخارجى . وتعهدت تركية بأن تأذن للاسطول الروسى بالمرور فى البوغازات وغلقها فى وجه الدول الاخرى .

هذا الموقف المتداعى من ناحية تركية مع روسيا كان معناه أن السلطان أضمر نقض اتفاقية كوتاهية وانه كان يخشى محمد على بدرجة كبيرة ورأى أن هذا الوالى وازدياد نفوذه معناه ضياع الامبراطورية العثمانية نفسها (١) .

الحكم المصرى فى سورية :

نظم محمد على الحكم المصرى فى سورية من الناحية الادارية والسياسية والحربية وعنى باقرار الامن والنظام فيها وحصن حدودها الشمالية ومضايق جبال طوروس ورابط فيها جيش مصرى بلغ سبعين الف مقاتل واتخذ ابراهيم من انطاكية مركزا لادارته ووحد الادارة ووطد سلطة الحكومة المركزية بعد أن أخضع شوكة الامراء والرؤساء الاقطاعيين . كما ساعد استتباب الامن على نشاط الزراعة والتجارة والتعدين ولما كانت ميزانية سورية فى غير صالحها ونفقات الولاية أقل من دخلها فان محمد على سد هذا

---

(١) المرجع السابق ص٩٣ — ص١١٦

العجز من ميزانية مصر نفسها وتحملت مصر هذا الغرم لصالح محمد على ومطامعه الشخصية .

والخلاصة أن سورية نعمت خلال الحكم المصرى ميها بعمران ونهضة كانت محل ترحيب من الأهالى وفرحهم بالحكم المصرى اولا الا انهم سرعان ماأخذوا يثورون فى وجهه .

أولا : لانه بعد مدة قليلة أصدر محمد على أربعة أوامر كانت كافية لأن يبرم الأهالى بها وتثير فى نفوسهم التذمر وهى : —

١ — احتكار الحرير .
٢ — فرض ضريبة الرؤوس .
٣ — التجنيد الاجبارى .
٤ — نزع السلاح من أيدى الأهالى وهم لم يعتادوا ذلك .

وثانيا : لان الدسائس التركية والانجليزية أخذت تحرك الثورات اذ أخذ الترك يوزعون السلاح على الأهالى ويستميلون رؤساء العشائر وأمراء الاقطاع الذين قضى ابراهيم على نفوذهم وقطاع الطرق الدين قضى ابراهيم على سطوتهم كما أن انجلترا بدأت تثير القبائل ضد الحكم المصرى كذلك وتعطيهم المال والسلاح (١) .

الثـــورة :

قامت هذه الثورات فى جهات متعددة من اهمها فلسطين فى أبريل سنة ١٨٣٤م حول منطقة القدس وتشجع الاهالى عندما علموا بتأهب تركية لنجدتهم وأخذوا ينهبون ويعيثون فسادا فى القدس والخليل ونابلس بقيادة أبو غوش وجاء ابراهيم بنفسه على رأس ستة آلاف جندى للقضاء على هذه الثورة ولكن بعد أن تحمل خسائر جسيمة ومتاعب كبيرة وبعد أن أخذ يفرق بين القبائل ويضرب بعضها ببعض . ولم تخمد الثورة فى منطقة

---

(١) المرجع السابق ص١١٧ — ص١٢٢ .

القدس الا بعد ان حضر محمد على بنفسه وكلف بشير الشهابى حاكم جبل لبنان بالقضاء على العصيان فى صفد .

كما انتشرت ثورة فى نابلس فجرد عليها محمد على جيشا استطاع هزيمة الشيخ قاسم حاكم نابلس الثائر وفر هذا الثائر الى الخليل . فتعقبه الجيش المصرى الى الخليل ثم الى الكرك ولاقى مشقات كبيرة من العطش واشتداد الحر الذى قضى على نحو ثلاثمائة جندى من ضربة الشمس ولكنه فى النهاية تمكن من الاستيلاء على الكرك ثم تعقب الثوار حتى قضى عليهم فى البـــادية .

وتمكن ابراهيم ايضا من القضاء على التمرد والعصيان فى دمشق وفى طرابلس وفى عكا وصافيتا والحصن وفى حلب وانطاكية وبعلبك وبيروت .

اما الثورة فى اللاذقية فى بلاد النصيرية فى اكتوبر سنة ١٨٣٤ فكانت ثورة عارمة وبلغت درجة من الشدة حتى انها ماثلت ثورة فلسطين شدة وقوة فزحف عليها ابراهيم باشا واستطاع أن يقضى عليها وينفذ فيها نزع السلاح والتجنيد الاجبارى وينشر الأمن فى ربوعها .

ولكن ثورة حوران فى منطقة الدروز كانت أعنف الثورات كلها وكان سببها ان ابراهيم باشا كان قد أعفاهم من التجنيد ولكنه عندما احتاج الى الجند عاد فطبق عليهم نظام التجنيد فتمرد الدروز ولم تخمد هذه الثورة حتى جرد عليها ثلاث حملات قضى الدروز على الأولى فى الجبال الوعرة وكانت من فرسان الهوارة . واما الحملة الثانية فكانت بقيادة احمد باشا المنكلى وزير الحربية المصرية الذى بعثه ابراهيم مع مدد من القاهرة وقضى عليها الدروز كذلك فى مغاور بلادهم الوعرة وقتلوا وجرحوا نحو اربعة آلاف وجرح أحمد باشا جرحا بليغا .

وبذا تصدعت هيبة الجيش المصرى ، وكان ابراهيم لايقود هذه الحملات بنفسه لانه كان يخشى من هجوم الترك فاثر البقاء فى أنطاكية استعدادا لرد هجومهم بينما استفحلت ثورة الدروز بقيادة شبلى العريان فى وادى التيم فجهز اليهم ابراهيم جيشا من عشرين الف مقاتل أمكنها القضاء على ثورة وادى التيم وعلى شبلى العريان فى اغسطس سنة ١٨٣٨ .

هذه الثورات تعطينا صورة لعنف الدسائس التركية والانجليزية وتعطينا صورة لتشدد محمد على فى تطبيق أوامره التى لم تجد موافقة من السوريين ووجدت الرفض القاطع لها ففى الحقيقة لم يكن من حسن السياسة تطبيق هذه الأوامر فى بلاد لم يستقر فيها حكم مصر بعد وذلك اذا لم نغفل أن الترك أكثر من هذا العدد . وأن نعلم أن اخماد ثورة بالعنف والبطش يوغر الصدور المصرى فقد أكثر من عشرة آلاف جندى بينما ابراهيم لم يجند من السوريين أكثر من هذه العدد . وان نعلم ان اخماد ثورة بالعنف والبطش يوغر الصدور فأصبح السوريون وقد وجدت الدعاية التركية والدسائس الانجليزية بينهم أثرا واضحا . وأن نعلم كذلك أن التجارة قد اصابها الركود مما كان لذلك كله أثره فى الجولة الثانية من الحرب بين محمد على والسلطان (١) .

الحــرب الســورية الثانية :

لم تكن تركية بطبيعة الامر لترضى بصلح كوتاهية وتخضع لهذا الوالى الذى اجبرها على هذا والذى هددها فى عقر دارها ولذا فقد عملت فى جد على تجهيز جيشها للجولة الثانية من الحرب أملا فى استعادة سورية وأملا فى استعادة كرامتها وأملا فى اخضاع محمد على ذلك الوالى المتمرد .

وكانت بداية الجولة كما رأينا هو تشجيعها الثورة فى الشام ضد حكم ابراهيم فيها ، كما أرسل السلطان محمود سنة ١٨٣٧ مندوبه صارم افندى ليفاوض محمد على فى تصفية الخلاف بطريقة ودية ولكنه اخفق ورأى محمد على ازاء هذه الدسائس وازاء اخفاق هذه المفاوضات أن يعلن استقلاله فاستدعى وكلائه فى الدول فى مايو سنة ١٨٣٨ واعلمهم برفض ذلك وكان يظن أن الدول سوف تؤيده فهى قد عضدت اليونان فى ثورتها وانفصالها عن تركية ولكى نسى أن دول أوربا تنظر الى اليونان بغير العين التى تنظر بها الى مصر وخاصـــــة انجلترا .

فانجلترا لم يكن يرضيها **أولا** : قوة محمد على فى مصر تلك القوة التى يمكن أن تهدد مواصـــلاتها عبر مصر .

---

(١) داود بركات : ص١٢٣ — ص١٥٤ .

ثانيا : قوة محمد على في مصر تلك القوة التى يمكن أن تهدد الدولة العثمانية نفسها بل ربما تقضى عليها وليس فى هذا ما يرضى الدول الأوربية التى تنحين الفرص المناسبة لاقتسام تركة الرجل المريض . ولذلك فقد تحرض الباب العالى على التشدد فى مفاوضاته مع محمد على مما أدى الى اخفاقها كما أنها اثارت ضده القبائل فى الشام ثم عقدت مع تركية معاهدة تجارية سنة ١٨٣٨ اتفقت فيها مع السلطان على الغاء الاحتكار وبالطبع كان هذا الاتفاق يسرى على مصر وفهم محمد على أنه المقصود بهذا الاجراء فلم يعلن قبوله ولم يعلن رفضه وذهب الى السودان فى رحلة طويلة مدعيا أنه ذاهب الى السودان للبحث عن الذهب ولتنظيم حكومة السودان .

أما فى سورية فقد كان موقف الجيش المصرى فى تحسن وحصن ابراهيم مضايق كولك ولذلك فقد اعتزم حافظ باشا قائد الجيش التركى مهاجمة الجيش المصرى من جهات ديار بكر وعلم ابراهيم بذلك فحشد معظم جنوده حول حلب وبدأت فرقة من الجيش التركى تتجمع عند بيرة حلب (البيرة) بقيادة اسماعيل باشا فى ٢١ ابريل سنة ١٨٣٩ ، أما ابراهيم فاستشار والده ماذا يفعل فأرسل له المدد وعهد الى أحمد باشا المنكلى وزير الحربية ليلحق بابراهيم وعبثا حاولت فرنسا أن تثنيه عن عزمه ففشلت لانها لم تستطع أن تضمن له عدم زحف الجيش التركى على الشام واحتشد الجيش التركى حول نصيبين واستأذن ابراهيم أبيه وأعد العده لمهاجمة نصيبين فى جيش من ٤٠ الف مقاتل وبلغ جيش الترك ٣٨ الف مقاتل .

معركة نصيبين :

فى ذلك الوقت كان جيش الترك ٣٨ ألف مقاتل ويحتل موقعا حصينا ويقوده حافظ باشا وعدد من القواد الألمان الاكفاء منهم البارون دى مولتك ، وكان الجيش المصرى ٤٠ ألف ولكنه كان يفضل الجيش التركى فى النظام وبراعة القيادة وحسن التدبير والتدريب وقوة العزيمة والثقة بالنفس وبالقواد كما كانوا يفضلونه أيضا فى التجانس بينما كان الجيش التركى تعوزه وحدة الجنس تم استفادة قواده من حنكة القواد الالمان واستماعهم لنصائحهم ولذلك فقد انتصر الجيش المصرى على الترك انتصـــارا عظيما فى ٢٤ من يونية سنة ١٨٣٩ وفر الجند الترك وغنم المصريون جميع المواقع والذخائر والخيام والمبرة بل وأوراق حافظ باشا وأوسمته حيث لم يتمكن من رمع خيمته ومابها .

وترك الجيش التركى أربعة آلاف قتيل وجريح وأكثر من ١٢ الف أسير وخسر المصريون أربعة آلاف قتيل وجريح .

وكانت معركة نصيبين من أعظم الوقائع التى خاضها الجيش المصري واهمها من حيث السياسة فهى قد حفظت لمصر استقلالها وحصانته من الخطر وكان وقعها اليما على السلطان عبد المجيد الذى خلف السلطان محمود الذى مات قبل أن يعلم بها وكان عبد المجيد فى سن السابعة عشر ولم يدر ماذا يفعل . ومن الناحية الحربية أتاحت هذه المعركة الفرصة لابراهيم ليحتل بيرة جك وعينتاب ومرعش وأورفة شمالى الفرات وسورية .

على أن قمة الانتصارات كان قيام فوزى باشا قائد الاسطول التركى الذى كان مكلفا بالحرب مع الاسطول المصرى بتسليم هذا الاسطول لمحمد على وكان مؤلفا من ٩ بوارج كبيرة و ١١ سفينة من نوع الفرقاطه و ٥ سفن من نوع الكورفت وعلى ظهره ١٠٧ و ١٦ ملاح وآلايين من الجنود بلغوا ٥ آلاف جندى ودخل الاسطولان المصرى والتركى (الدونمة) الى الاسكندرية فكان منظرهما يثلج قلب محمد على فصار بذلك أقوى دولة بحرية فى البحر المتوسـط (١) .

تدخل الدول وانحسار نفوذ محمد على

كان الانتصار المصرى فى نصيبين عاملا حاسما فى تحرك الدول (٢) فهى قد هالها هذا الانتصار وخشيت من هذه القوة النامية وفتحت باب المسألة الشرقية والمسألة المصرية من جديد وتناست الدول أنها قد اقرت صلح كوتاهية ووافقت عليه وأن محمد على كان يستحق حكم مصر وسورية وبلاد العرب وأدنة بمقتضى هذا الصلح ونسيت الدول أنها كانت تنادى بالمحافظة على الامر الواقع بعد هذا الصلح .

اما الروسيا فقد انتهزت هذه الفرصة وأرادت بسط سيطرتها على تركية بحجة الدفاع عنها أما فرنسا فكانت تميل الى اقرار محمد على على

---

(١) المرجع السابق ص١٥٥ — ص١٧٢
(٢) المرجع السابق ص١٧٣ — ص١٨٥

سورية وبلاد العرب طبقا لاتفاقية كوتاهية ومن ثم فهى تعطف عليه وأما انجلترا فانها قد جاهرت بعدائها لمحمد على وبرغبتها فى اضعاف محمد على حرصا على مواصلاتها التجارية وسلبه سورية التى تجعله متحكما فى طريق الفرات التجارى ويتيح له قوة بحرية عظيمة ورد الاسطول التركى الى السلطان لان انضمامه الى الاسطول المصرى يجعل مصر قوة بحرية يخشى باسها واما النمسا فقد كانت تريد المحافظة على الدولة العثمانية حتى لاتجد روسيا الفرصة لفرض حمايتها عليها .

وثانيا : القضاء على محمد على لأنه ثورة على الحكم الشرعى ومبدأ مترنيخ هو القضاء على الثورات القومية .

ثالثا : لان ملك النمسا كان يكره فرنسا ويميل الى ما يناقض سياستها المتعاطفة مع محمد على .

وكان السلطان الجديد فى موقف لايحسد عليه فآثر المفاوضة مع محمد على فأرسل له عاكف افندى يحمل كتابا من خسرو باشا الصدر الاعظم يعرض على محمد على حكم مصر وراثيا .

واجتمعت كلمة الدولة وقدم سفراؤها مذكرة الى الباب العالى فى ٢٧ يولية سنة ١٨٣٩ يطلبون اليه باسم الدول الخمس : النمسا والروسيا وانجلترا وفرنسا وبروسيا . الا يبرم أمرا فى شأن المسالة المصرية الا باطلاعهم واتفاقهم ووجود فرنسا فى هذه المذكرة يدل على تذبذب سياستها وكانت عموما تأمل أن تصل من خلال اتفاق الدول الى التوفيق بين وجهتى نظر مصر وتركية بطريق الوساطة .

الا ان موقفها هذا فيه خضوعا للسياسة الانجليزية وترك الفرصة لها لتملى ارادتها على الدول وقد عرض بالمرستون على فرنسا أن يعطى محمد على جنوب الشام بالاضافة الى مصر فرفضت فرنسا ولو انها قبلت فلربما وفرت على محمد على مااحتمل من خسائر بعد ذلك ولما تركت لانجلترا فرصة تأليب الدول ضد محمد على ، ثم أن موقفها هذا أتاح الفرصة للروسيا من التقرب الى انجلترا منتهزة فرصة هذا الخلاف بين

الدولتين وعقدت هذه الدول الخمس معاهدة فى لندن فى ١٥ يوليو سنة ١٨٤٠ وهى تعطى محمد على حكم مصر وراثيا وولاية عكا طول حياته ويعطى مهلة عشرة أيام لقبول ذلك ويخلى كريت وبلاد العرب واقليم آطنة ويعيد الى تركية اسطولها ، فاذا لم يقبل ذلك فى مدى عشرة أيام تنزع منه عكا ويمهل عشرة أيام اخرى لقبول حكم مصر وراثيا فاذا لم يقبل حرم من حكم مصر ويدفع محمد على جزية سنوية عن البلاد التى تعهد اليه ادارتها ، وتسرى فى مصر وعكا المعاهدة التى عقدتها تركية مع انجلترا . وتعتبر قوات محمد على العسكرية البحرية والبرية جزءا من قوات السلطان العسكرية واذا مارفض محمد على هذه الشروط ترغمه الدول بالقوة على تنفيذها . وتقوم الدول بحماية السلطان وعرشه اذا ماتحركت قوات محمد على ضده (١) .

وعقدت هذه المعاهدة بغير علم مصر وفرنسا وهاجت خواطر فرنسا التى فوجئت بها وكادت تقع الحرب بين انجلترا وفرنسا واخذت تحرض محمد على على رفض هذه المعاهدة فلما رفضها محمد على تراجعت . ووجدت ان تدخلها لن يغير من موقف الدول شيئا . بينما اخذت انجلترا تحرض القبائل فى الشام على الثورة ضد الحكم المصرى فاشتعل لبنان بالثورة واعلن الثوار الامتناع عن اداء الضرائب والمؤن العسكرية وتمكن ابراهيم من اخماد الثورة والقبض على رؤساء الفتنة ولكن الفتن لم تنقطع .

وذهبت انجلترا الى أبعد من هذا فأرسلت اسطولها بقيادة نابيير Napier الى مياه مصر والشام وعهدت اليه اجبار محمد على بارجاع الاسطول التركى وتدمير الاسطول المصرى وأسرعت فرنسا فأبلغت ابراهيم بهذا الامر فعادت السفن المصرية بسرعة الى الاسكندرية .

اخذ محمد على يستعد للدفاع بعد أن رفض المعاهدة . وارسل الامدادات الى ابراهيم واعتمد على تأييد فرنسا له وتمنيه المساعدة منها . وخلال الايام العشرة الثانية استدعى محمد على رفعت بك مندوب السلطان وأبلغه

---

(١) نص معاهدة لندن ١٥ يولية سنة ١٨٤٠ . د . راشد البراوى : مجموعة الوثائق السياسية الجزء الاول . المركز الدولى لمصر والسودان وقناة السويس . ط١ القاهرة ١٩٥٢ ص ١٧ — ص ٢٤

رغبته فى انهاء الخلاف بينه وبين السلطان دون تدخل الدول الاجنبية وابلغه استعداده لترك اطنه وبلاد العرب وكريت والاكتفاء بمصر وراثية وعكا طول حياته وسلمه رسالة بهذا المعنى الى السلطان ولكن تناصل الدول تحايلوا واستدرجوا محمد على الى موقف حرج فانهم عند انتهاء المدة طلبوا مقابلته فلم يقابلهم وقابلهم بوغوص بك يوسف وسامى بك سكرتير محمد على وابلغاهم بما تم بين محمد على ورفعت بك ولكنهم سألوهما ما هو موقف محمد على اذا لم يعطه السلطان سورية فلما أجابا بأنه ليست عندهما تعليمات بهذا ، اعتبر القناصل هذا الرد رفضا من محمد على للمعاهدة . وهناك فى الآستانة عندما تشاور معهم الصدر الأعظم استقر رأيهم على خلع محمد على واصدر السلطان فرمانا بذلك فى ٢٢ سبتمبر سنة ١٨٤٠م وقامت الحرب (١) .

الحرب بين مصر والدول :

ارسلت انجلترا اسطولها الى موانى الشام واشتركت معها سفن النمسا وتركية ثم جاءت فى ١٠ سبتمبر الحملة البرية من ١٥٠٠ جندى انجليزى و ٥٥٠٠ جندى تركى ولم يستطع الحلفاء تحقيق النصر الا بعد أن اثاروا القبائل ووزع عليهم الانجليز ٣٠ الف بندقية فتحرج موقف الجيش المصرى واستولى الحلفاء على جبيل شمالى بيروت ثم حيفا وصور وصيدا ثم بيروت فى أكتوبر وفى ٤ نوفمبر أخلى المصريون عكا بعد أن ضربها الحلفاء من البحر وأصابت قنابل المدافع مستودع الذخيرة المصرية ونسفته ثم بدأت بقية المدن تقع فى ايديهم وانضم الشهابى لهم وكنهم لم يطمئنوا له فنفوه الى مالطة فى أول نوفمبر سنة ١٨٤٠م .

تراجع فرنسا :

فرنسا هذه التى شجعت محمد على على رفض اتفاقية لندن وشروطها اعتمادا على مساعدتهم له تراجعت تراجعا مخزيا فلم يكن رئيس وزرائها تيير Tiérs جادا فى وعده والدليل على ذلك انه لم يستعد ولم ينجد جيش

---

(١) كريم ثابت : ص٢٢٨ ـ ص٢٤١ .

إبراهيم فى سورية فعمد الى التسويف بل بلغ جدا من التراجع جعله يرسل الى محمد على المسيو والسكى يشير عليه بفتح بابه المساومة مع الباب العالى ولما استجاب له محمد على وعرض على السلطان ان يأخذ حكم مصر وراثيا وسورية طيلة حياته ويخلى كريت واطنه وبلاد العرب رفض السلطان . وتراجع اكثر فسحب الاسطول الفرنسى من البحر المتوسط ثم عندما فشل فى سياسته قدم استقالته والف المارشال سول الوزارة ونفضت فرنسا يدها من المسألة .

تهديد مصر :

عندما تمكن الحلفاء من السيطرة على موانى سورية ارسل القائد العام استوبفورد Stopford شارل نابييه Napier بعدد من القطع البحرية الى الاسكندرية للقيام بمظاهرة بحرية لتهديد محمد على واجباره على الاذعان لمطالب الحلفاء وحضر نابييه الى الاسكندرية ووجد ان هذه المظاهرة لن تجديه نفعا فود لو انه تمكن من احتلالها برا ولكنه لم يكن يملك القوة لذلك وكان محمد على مستعدا للدفاع عن البلاد فجرب الطريق الودى وارسل له رسالة يعرض عليه مصر وراثية وسحب قواته من سورية ولكنه فى رسالته ثم فى مقابلة شخصية بعد ذلك استعمل اسلوب التهديد ولوح لمحمد على بالخطر الذى يتهدده فما كان من محمد على الا انه رفض هذا العرض المشوب بالتهديد .

وبعد تفكير ارسل له محمد على يعرض عليه الصلح على ان تكون له مصر وراثية ويرد الاسطول الى الباب العالى ويخلى سورية ولكن الأميرال ستوبفورد رفض هذا الاتفاق الذى وقعه محمد على مع نابييه بحجة ان نابييه لايملك عقد مثل هذا الصلح ، ولم يكن مخولا عقده كما رفضه السلطان وتمسك بعزل محمد على ولكن بالمرستون رأى ان هذا الاتفاق فيه حل لهذه المشكلة ، وهذه الازمة الطاحنة واعلن قبوله وحمل الدول على قبوله (١) وارسل الى السلطان مذكرة فى ٣٠ يناير سنة ١٨٤٠ بذلك فقبل السلطان هذا الاتفاق فهو نفسه لم يكن له قوة ولاحول ضد محمد على الا بمساعدة الدول اما وقد قبلت الدول هذا الاتفاق اذن فما على السلطان الا قبوله وانسحب

---

(١) داود بركات : ص٢٠٤ — ص٢٠٦ .

جيش مصر من سورية . بعد أن فقد عددا هائلا من الجند ولاقى خسائر مريرة (١) .

فرمانات سنة ١٨٤١ ومركز مصر الدولى

تعتبر معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ هى الوثيقة السياسية الاساسية لمركز مصر الدولى من سنة ١٨٤٠ وحتى ١٩١٤ فهذه المعاهدة حددت مركز مصر وجعلت لها شخصية دولية مستقلة ورفعتها من ولاية الى دولة مستقلة وان كانت دولة مقيدة بقيود السيادة العثمانية ، وضمنت الدول الخمس التى وقعت على هذه المعاهدة هذه القرارات .

هذه المعاهدة وان كانت قد أعطت مصر مركزا مستقلا فان السلطان العثمانى أصدر عدة فرمانات قيدت بها هذه القرارات وقيد بها هذا الاســـــتقلال (٢) .

فرمان سنة ١٨٤١ (١٣ فبراير سنة ١٨٤١) : (٣) .

حصر وراثة العرش فيمن يختارهم السلطان من أولاده واحفاد محمد على الذكور ، والزم من يختاره السلطان للحكم أن يذهب الى الآستانة ويتلقى بنفسه فرمان التقليد ، وجعل مرتبة حاكم مصر مماثلة لمرتبة وزراء الدولة فى المخاطبات والمقابلات السلطانية ، والزم هؤلاء الحكام بتنفيذ المعاهدات وخط شريف كلخانة فى مصر ، وأن تجبى الضرائب باسم السلطان وأن يرسل الحاكم ربع ايرادات مصر من الجمارك والخراج والضرائب الى خزانة السلطان ويخصص الباقى لشئون مصر ، هذا مع تعيين لجنة من قبل السلطان لمراقبة هذا الدخل ، وتضرب السكة (النقود) باسم السلطان .

---

(١) نص المذكرة فى قاموس الادارة والقضاء لفيليب جلاد : جزء ٥ ص ١٤٨ ـــ ص ١٤٩

(٢) كريم ثابت : ص ٢٤٨ ـــ ص ٢٤٩ .

(٣) نص الفرمان فى تقويم النيل وعصر محمد على باشا لامين سامى جزء ٢ ص ٥١٠ ـــ ص ٥١١

وتكون من نوع نقود الآستانة فى القيمة والنوع والمعيار ، ولا يزيد عدد الجيش المصرى فى وقت السلم عن ١٨ الف جندى ويتبع فى التجنيد النظام المعمول به فى تركية وكان النظام المعمول به فى تركيا يجعل مدة التجنيد خمس سنوات ويسرح خمس عدد الجيش كل سنة بطريق القرعة ويقترع بدلهم (اربعة آلاف يبقى منهم فى مصر ٣٦٠٠ ويرسل ٤٠٠ الى الآستانة والذين يتمون خدمتهم العسكرية يعودون الى بلادهم ولايجوز اقتراعهم بعد ذلك . كما نص هذا الفرمان على الا يختلف شعار الجنود والضباط وملابسهم واعلامهم واوسمتهم عن مثلها فى الجيش التركى ، سواء فى الجيش البرى أو فى الاسطول ولايستطيع محمد على أو غيره أن يمنح الرتب العسكرية لأعلى من صاغ قول اغاسى ولايستطيع حاكم مصر أن يبنى سفنا حربية الا بتصريح من السـلطان .

هذا واذا ماخالف ولاة مصر هذه الشروط يسقط حقهم فى هذا الامتياز الممنوح لهم . وفى نفس الوقت أصدر السلطان فرمانا آخر ١٣ فبراير سنة ١٨٤١) باسناد اقاليم النوبة ودارفور وكردفان وسنار وجميع توابعها وملحقاتها ، الى محمد على .

لم يكن امام محمد على ازاء هذه القيود التى تغل يده والتى تترك للسلطان اختيار من يشاء من أولاده وأحفاده الذين يأنس فيهم الضعف الا السعى لدى الدول لتتوسط لدى السلطان لتخفيف هذه الشروط ولتعديل نظام وراثة الحكم ومقدار الجزية السنوية وحق منح الرتب العسكرية .

وجاء من السلطان فى مذكرة فى **١٩ ابريل سنة ١٨٤١م**

تعدل شروط هذا الفرمان فحصرت الوراثة فى أكبر الاولاد والانجال سنا ، وعدل الجزية تبعا لتقدير يعد مع النظر لحالة الحكومة وأباح لوالى مصر منح الرتب العسكرية حتى رتبة أميرالاى . وأعطاه منح الرتب الاكبر ولكن بعد استئذان السلطان .

الفرمان الجامع .... أول يونية سنة ١٨٤١م (١)

كان هذا الفرمان جمعا لاحكام فرمان ١٣ فبراير وتعديلات ١٩ أبريل وفرمان ثالث حدد الجزية السنوية بمقدار ثمانين الف كيس اى اربعمائه الف جنيه مصرى .

وكان من هذه الفرمانات فرصة للتحلل وعدم التقيد من جانب مصر لانها كانت قيودا محلية بين مصر وتركية وصدرت من جانب واحد وهو السلطان ، ولم تكن تستند على سند دولى أو معاهدة او اتفاق ، وقد استطاع اسماعيل أن يحرر مصر من معظم هذه القيود بفرمانات استصدرها من السلطان وكان من حق السلطان أن يتنازل عن بعض أو كل الحقوق التى خولتها له معاهدة ١٨٤٠ لكن لم يكن له الحق فى ان ينقصها لانها معاهدة دولية مكفولة من الدول .

هكذا رأينا ماكان يخالج محمد على من آمال فى اقامة دولة عربية تضم مصر وبلاد العرب وشمال السودان وبلاد الشام بل وجزء من الفرات مستقلة عن السلطان العثمانى والبعض من المؤرخين يقول أن محمد على كان يرغب فى اقامة خلافة اسلامية فى هذه المنطقة ويكون هو الخليفة فيها وهذا بالطبع يعارض مع قول هؤلاء الذين قالوا أن محمد على كان عثمانيا مسلما أحب الترك وفضلهم على العرب وبذلك فهو فى نظرهم لم يفعل أكثر من السعى لاحياء الحضارة والقوة فى هذه المنطقة ونظر الى الخليفة العثمانى تاما لايمكن الخروج على طاعته وانما هو أراد اقامة دولة فتية تحت سلطانه يدخل اليها النظم الغربية والحضارة الغربية مستعينا بموارد مصر الاقتصادية وقوة جيشه العسكرية تلك القوة التى اقامها واعتنى بها .

ونحن قد رأينا كيف أن محمد على قد فشل فى اقامة هذه الدولة التى

---

(١) نص الفرمان فى محمد رفعت : تاريخ مصر السياسى فى الازمنة الحديثة — جزء اول القاهرة سنة ١٩٢٧م ص٢٩٣ — ص٢٩٥

تشتمل على الاقطار العربية التى تشترك مع مصر فى الجوار واللغة والجنس وذلك بسبب تردده وعدم وضوح الهدف امامه جيدا فلو كان محمد على عثمانيا لكان الرأى العام قد ساعده لان المسلمين علقوا عليه الامال الكبار لانه أظهر فى تعامله مع العرب استقلالا لم تظهره حكومة الباب العالى ولو أنه كان عربيا صرفا لكسب تأييد الرأى العام العربى لان العرب نظروا اليه باعتباره المنقذ من تدهور الحكم العثمانى ولكن أعظم الاسباب فى فشله كان موقف الدول الاوربية العدائى منه وخاصة انجلترا التى عملت على الا يسيطر محمد على القوى على طريق الهند كما حرصت على ألا يهدد الدولة العثمانية المتداعية ليحل محلها هو كحاكم قوى يضاف الى ذلك عامل ثالث وهو أن الوعى القومى العربى لم يكن كافيا بدرجة كبيرة ففكرة اقامة دولة عربية مستقلة لم تكن قد نضجت بعد لان المسلمين عربا وغير عرب كانوا مرتبطين بالدولة العثمانية بواسطة العقيدة وكانت العاطفة الوطنية ممتزجة بقوة بالعاطفة الدينيـــة .

الفصل السابع

قناة السويس والتدخل الاجنبى فى شئون مصر

عرفنا انه كان من أهداف الحملة الفرنسية على مصر التغلب على انجلترا وذلك بانتزاع وتهديد ممتلكاتها فى الهند والاستيلاء على تجارتها مع الشرق ويعنى ذلك ضربها فى مصادر ثروتها واضعافها بعد أن عجزت فرنسا عن هزيمتها فى أوربا . وكان مشروع توصيل البحرين الاحمر والابيض هو السبيل الذى رسمته فرنسا للسيطرة على هذه التجارة .

ومشروع قناة السويس ليس مشروعا حديثا بل هى فكرة قديمة ظهرت لاول مره فى عهد الاسرة الثانية عشر عندما اوصل سنوسرت الثالث النيل بالبحر الاحمر وسميت هذه القناة « قناة سبزوسـتريس » وكانت هذه القناة تظهر مرة وتردم مرة أخرى فهى فى عهد الرومان قناة تراجان وفى عهد الفتح العربى خليج امير المؤمنين وفى اثناء وجود الحملة الفرنسية فى مصر ذهب بونابرت مع لجنة برياسة المهندس ليبير **Lepére** الى السويس فى ديسمبر ١٧٩٨ وكان يرافقه أركان حربه وفرقة من الحرس وبعض العلماء وتفقد بونابرت منطقة المشروع وسار يتتبع مسار القناة القديمة وتوغل فى الصحراء يقتفى اثرها ولما عاد الى القاهرة كلف ليبير بدراسة الموضوع دراسة جدية عملية ، ودرس هذا المهندس المشروع على الطبيعة وهناك كان العرب يهاجمونه وعانى كذلك من قلة الماء وعدم كفاية الاجهزة العلمية وقدم تقريرا عن هذه الدراسة وأخطأ فى حساباته وكان من نتيجة هذا الخطأ أن اعتقد أن البحر الأحمر أعلى من البحر المتوسط وبذلك فلو نفذ المشروع فستغرق الدلتا . وقدم بدلا من ذلك مشروعا لايصال النيل بالبحر الاحمر فى

نفس مسار القناة القديمة وهو ماعرف باسم مشروع (ليبير) (١) وقد نشر هذا المشروع فى كتاب وصف مصر فى جزئه الثالث .

ولم تفتر همة الحكومة الفرنسية عن تنفيذ هذه الفكرة ولم تكن تسكن الا لتعود من جديد وبسرعة فانه قامت فى أوربا جماعة عرفت باسم السيمونيين Saint Simoniens كان هدفهم هو تنفيذ مشروع قناة السويس ومن أجل ذلك قاموا بدعاية واسعة فى أوربا لاقناع حكومتها بهذا المشروع وعندما كون محمد على دولته فى مصر استبشر هؤلاء خيرا وجاء وفد منهم برئاسة انفانتان Enfantin لعرض هذا المشروع على محمد على ولما كان محمد على مشغولا فى مشروعات الرى العديدة وعلى راسها مشروع بناء القناطر الخيرية فانه اعتذر ، وبعد دراسة فنية ، بأن مشروع القناطر الخيرية افيد للبلاد ولعل محمد على وجد أن مشروع قناة السويس يتيح للدول الاوربية التدخل فى شئون مصر فلم يرد الاعتذار صراحة . وعاد الاب انفنتان غاضبا ولكنه غير يائس اذ يستمر فى دراسة ذلك المشروع باهتمام وتحمس مترنيخ النمسوى لهذا المشروع وعرضه على محمد على . وأراد محمد على أن تكون القناة مصرية فعرض أن تقوم مصر بحفر القناة وبأيد مصرية وبنفقات مصر واذا احتاجت الى الخبرة الفنية استوردت هذه الخبرة وجاءت بالخبراء ولكنهم فى خدمة الحكومة المصرية وتحت اشرافها وتصير بذلك القناة قناة مصرية تضمن الدول حيدتها ويسمح فيها بالمرور لمختلف الدول تحت اشراف مصر عليها . ولم تكن الدول الاوربية لترضى بهذا لانها أرادت أن تكون القناة لفائدتها ومسمارا تدقه فى نعش هذه الدولة التى تستيطر على طرق التجارة بين الشرق والغرب وهى مصر ، فالمشروع مشروع استعمارى فى فكرته ومضمونه وكان القائمون به يخفون أغراضهم الحقيقية .

ومع أن بعثة سانت سيمونيان قد باءت بفشل الا أنها جددت نشاطها سنة ١٨٤١ حين بلغها أن المهندس الفرنسى لينان دى بلفون الذى استخدمه محمد على قد أعد سنة ١٨٤١ مشروعا لحفر القناة بالاشتراك مع رجل انجليزى

---

(١) عبد الله جاك منو . ص٦٣٢ — ص٦٣٤

يقال له أندرسون وتأسست على اثر ذلك (جمعية الدراسات الخاصة بقناة السويس) فى ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٤٦ وضمت هذه الجمعية خليطا من المهندسين الانجليز والالمان والفرنسيين وآزرتها بعض الغرف التجارية فى أوربا (١) .

وجاء عباس الاول الى الحكم وكان يكره الاجانب وخاصة الفرنسيين واصطفى رجلا أرمنيا يقال له (نوبار نوبا ريان) عمل جاسوسا للانجليز فى مصر وبمشورة منه طرد عباس الفرنسيين من مصر وأحل محلهم الانجليز وبمشورة منهم انشأ سكة حديد من الاسكندرية الى القاهرة الى السويس وذلك لأن الانجليز كانوا يريدون وضع ايديهم على طرق التجارة وليكون هذا المشروع مضادا لمشروع القناة ويصبح بذلك السيطرة لانجلترا وتحول دون تحقيق الاطماع الفرنسية فى مصر . ومرة أخرى دبر الفرنسيون اغتيال عباس فى بنها وولى الامر من بعده سعيد باشا سنة ١٨٥٤ فسنحت الفرصة لرجل فرنسى هو (فرديناند دى ليسبس) لتحقيق مشروع القناة فقد كان هذا الرجل صديقا لسعيد ذلك ان والده (ماتيو دى لسبس) كان جاسوسا فرنسيا فى بلاط محمد على بعد أن عينه بونابرت فى وظيفة قنصل عام فى مصر وكان لمحمد على ابن مترهل البدن هو سعيد باشا تبدو عليه امارات الغفلة والغباء فعهد الى فرديناند بن ماتيودى لسبس بتهذيب هذا الغلام وتربيته تربية رياضية واستطاع أن يسيطر على عقل سعيد باشا بعد أن سيطر على بدنه .

وفى سنة ١٨٣٩ التقى فرديناند دى لسبس بمدام دى لامال وكانت من سيدات الصالونات فى باريس قابل ابنتها الشابة الفاتنة وكانت أرملة لاحد كبار المحامين الفرنسيين فتزوجها ثم ماتت وتركت صلة غرام ونفوذ سياسى بين زوجها دى لسبس وامها مدام دى لامال وكان فردبناند أيضا يمت بصلة القرابة للامبراطورة أوجينى ولعبت بعد ذلك دورا خطيرا فى مشروع قناة السويس وأتاحت الفرصة لفرديناند بأن يسطو على الجهود الفنية الخاصة لمشروع القناة والتى قامت بها جماعة سانت سيمونيان .

---

(١) د. محمود صالح منسى : مشروع قناة السويس بين أتباع سان سيمون وفرديناند دى لسبس القاهرة ١٩٧١ ص٩ — ص١٥٧

لم يكد يتولى سعيد باشا الحكم فى مصر حتى هرع اليه هذا الافاق بالتهنئة واستطاع عن طريق رجال البطانة والحاشية أن يتعرف على مزاج سعيد باشا وميوله فى الفروسية وضعفه أمام عبارات المدح والثناء وبعد مدة قصيرة استطاع أن يحصل منه على فرمان ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٥٤ الخاص بحفر قناة السويس . وبسرعة جمع سعيد قناصل الدولة فى القلعة وتلى عليهم نصوص هذا الفرمان .

تضمن هذا الفرمان الذى سمى فرمان الامتياز أو الفرمان الاول امتيازات كبيرة تمنحها الحكومة المصرية لاحد الاجانب لم تراع فيها مصلحة البلاد . وهذا الفرمان يقع فى اثنتا عشرة مادة نص فيها على أن يقوم ديلسبس بتأسيس شركة دولية تتولى حفر القناة على نفقتها ثم تستغل هذا المشروع لمدة ٩٩ عاما تبدأ من تاريخ فتح القناة للملاحة وتسمى الشركة باســم (الشركة العالمية لقناة السويس البحرية) ويعطى للحكومة المصرية ١٥٪ من صافى الأرباح أما الباقى فيوزع بنسبة ٧٥٪ للشركة و ١٠٪ للاعضاء المؤسسين واعطيت الشركة حق الاستيلاء مجانا على الأراضى اللازمة لحفر القناة والتى لاتكن ملكا للافراد وأن تضع الشركة يدها على الاراضى غير المزروعة التى تستفيد من ماء النيل من قناة تحفرها الشركة تحمل الماء العذب من النيل الى أراضى القناة وتعفى الشركة من دفع الضرائب على تلك الأراضى لمدة عشر سنوات تبدأ من تاريخ فتح القناة ، ويكون للشركة أيضا الحق فى استغلال المحاجر والمناجم القائمة فى مصر ، كما تعفى الشركة من دفع الرسوم الجمركية على الآلات وسائر المهمات التى تستوردها من الخــارج وبعد ذلك تؤول القناة الى مصر وهى والمنشآت التى أقامتها الشركة بعد أن تدفع مصر تعويضا عن تلك المنشآت يقدر فى اتفاق ودى واشترط أن لاينفذ المشروع ألا بعد تصديق السلطان العثمانى عليه (١) .

ومن الغريب أن سعيدا لم يطالب بأى شىء مقابل الامتيازات التى منحها اياه ، بل باع قطعة من مصر لرجل فرنسى ولم يقبض الثمن سوى ابتسامة خبيثة (٢) .

---

(١) نص الفرمان فى : عبد العزيز الشناوى وجلال يحيى : وثائق ونصوص التاريخ الحديث والمعاصر : القاهرة ١٩٦٩ ص٥٧١ ــ ص٥٧٥

(٢) د. مصطفى الحفناوى : قناة السويس ومشكلاتها المعاصرة . القاهرة ١٩٥٦ جزء ١ ص١٣٨

فى ذلك كتب قنصل النمسا فى مصر روزتى Rossetti الى وزير الخارجية فى فلورنسا يقول (لست فى حاجة أن أظهر لجنابكم مقدار الامتيازات التى منحها سمو الوالى فانها عظيمة الفائدة للمسيو دى لسبس وللشركة المراد تأسيسها لانه لم يحدث أبدا أن نال أى شخص مثل تلك الامتيازات العظيمة ويمثل هذا السخاء من أى حكومة كانت) .

وكان ديلسبس يأمل المساعدة فى تنفيذ مشروع القناة من الامبراطور نابليون الثالث والامبراطورة أوجينى وكان ديلسبس قد اتفق مع سعيد باشا على اختيار كبيرى مهندسى الحكومة المصرية موجيل Mougel ولينيان Linant ليعاونا دى لسبس فى القيام بالاعمال الهندسية التمهيدية وبحث المشروع وتقديم التقارير ليعرض على لجنة دولية من اساطين الهندسة فى فرنسا وانجلترا والمانيا وقام ثلاثتهم فعلا برحلة فى منطقة المشروع من الجنوب الى الشمال ودفع سعيد باشا تكاليف هذه الدراسة وكان المشروع البدائى يعمل على حفر القناة فى خط مستقيم ، وبعد هذه الرحلة ترك دى لسبس المهندسين المذكورين يضعان تقريرهما وابحر هو فى ٢٧ يناير سنة ١٨٥٥ الى القسطنطينية ليحصل على تصديق السلطان العثمانى على المشروع وهناك فى القسطنطينية بدأت مرحلة عنيفة من الصراع .

موقف انجلترا من المشروع :

فانجلترا كانت تتطلع الى السيطرة على منطقة البحر المتوسط منذ القرن ١٦ حين أصبحت لها السيادة البحرية بعد أن انتصرت على اساطيل هولندا واسبانيا وفرنسا ثم بعد أن احتلت جبل طارق سنة ١٧٠٤ وبعد توقيع معاهدة باريس سنة ١٧٦٣ على اثر حرب السنين السبع (١٧٥٦ — ١٧٦٣) والتى تخلت فيها فرنسا لانجلترا عن مستعمراتها فى الهند وهذا الوضع أدى الى أن اخذت مصر تكتسب فى نظرها اهمية كبرة لوقوعها على الطريق الموصل الى تلك الجهات وخاصة بعد أن دب الضعف فى أوصال الامبراطورية العثمانية . ورأت انجلترا أن هذا الطريق الهام قد يتعرض لاخطار جسام اذا ماوقعت مصر فى أيدى دولة أوربية اخرى فعملت على أن تظل مصر تركية لان هذا الوضع يضمن لانجلترا امنا من مخاوفها ثم جاءت الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٧٩٨ لتزيد من مخاوف انجلترا ولتزيد من

أهمية موقع مصر لممتلكاتها وتجارتها . ثم عندما حصل ديلسبس على فرمان بانشاء قناة السويس وجدت فيه انجلترا مشروعا بـ سياسيا استعماريا فرنسيا يرمي الى فصل مصر عن تركيا والى بسط النفوذ الفرنسي على مصر وبالتالي تهديد مواصلات انجلترا الى الشرق بينما كانت انجلترا تعمل فى ذلك الوقت على اقناع عباس بانشاء خط حديدى يربط القاهرة بالسويس وبالاسكندرية ويكون مشروعا انجليزيا ولمصلحة انجلترا ولذلك فقد أسرعت انجلترا الى السلطان العثمانى تطلب منه عدم التصديق على فرمان الامتياز وكان لها سفير ذو حظوة كبيرة لدى السلطان العثمانى ونفوذ عظيم فى بلاطه هو لورد رادكليف Lord Stratford de Radcliffe كان يلقب بالسـلطان ستراتفورد وكان حريصا على المحافظة على سلامة ممتلكات الدولة العثمانية ولذلك فقد نصح رشيد باشا الصدر الاعظم برفض هذا المشروع ووجد استجابة من رشيد باشا الذى عرف بميله الى السياسة الانجليزية . وعاد دى لسبس الى مصر خائبا فوجد المهندسين المذكورين قد وضعا فى تقريرهما وقدماه الى سعيد باشا وعرف باسم المشروع الابتدائى وبحثا فيه القناة على خط مستقيم ووضعا مواصفة لترعة نهرية تخرج من النيل للمواصلة النهرية ولشئون الرى وقدرا فى ذلك التقرير المدة اللازمة لانجاز المشروع فى ست سنوات ونفقات تنفيذه ٢٠٠ مليون فرنك ـــ فأخذ كل هذه الوثائق وبعض الخرائط وسافر الى فرنسا وطبعها كجزء من الدعاية الواسعة التى بدأ القيام بها فى أوربا وهناك اتصل بالامبراطور نابليون الثالث وعرض عليه هذه الوثائق والتمس منه المساعدة ومن الامبراطورة أوجينى وأخذيقاومماكانتتنشرهصحيفة التايمز ضد هذا المشروع ، ثم غادر باريس الى لندن حيث أخذ يقوم بدعاية واسعة النطاق لمشروعه وقابل رئيس الوزراء بالمرستون Palmerstone ووزير الخارجية كلارندون Clarindon وأخذ يشرح أهداف مشروعه ويبين المزايا التى تعود على انجلترا من وراء تنفيذه . وأخذ يرسل الى أعضاء البرلمان الانجليزى وبلدية لندن وأعضاء الغرف التجارية فى لندن وليفربول ومنشستر والى الصحف والمجلات الانجليزية يبين لهم مزايا المشروع، ونشر رسائله حول الموضوع باللغات الانجليزية والفرنسية والايطالية ولكنه لم يحقق غرضه لان مخاوف انجلترا من قيام مراكز استعمارية فرنسية فى مصر كانت من القوة بحيث سيطرت على عقول الساسة الانجليز فأصبحوا يعتقدون أن التحصينات الدفاعية التى اقيمت فى الاسكندرية قد وضعتها

وزارة الحرب الفرنسية ووضع تصميمها فى فرنسا وأشرف على تنفيذها مهندسين فرنسيين وذلك لصد اى قوة تهاجم مصرمنجهةالشمال. وتخفالقوات الفرنسية بسرعة لنجدة هذه التحصينات اذا ما عجزت عن الصمود طويلا بل وانهم رأوا فى القناطر الخيرية منشأة عسكرية وليس مشروع رى ورأوا أن كل مايريده سعيد باشا ودى لسبس هو ايجاد فاصل عميق وواسع يسهل الدفاع عنه عبر الطريق الموصل من سوريا الى مصر . ورأت انجلترا أيضا أنه اذا قامت الحرب بينها وبين فرنسا فان فرنسا تستطيع فى وقت وجيز أن تضع يدها على طرفى القناة وبالتالى فان تأييد انجلترا لهذا المشروع انما هو انتحار لها واتاحة الفرصة للسفن الفرنسية فى الوصول الى الهند قبل أن يصل خبر هذا الغزو وفوق كل هذه الاعتبارات كان هناك اعتباران آخران ، وهو أن انجلترا كانت تعتقد أن حفر القناة بساعد اى والى على اعلان استقلاله بمصر . ولم تكن بريطانيا تطيق أن ترى النفوذ المصرى يمتد فى عهد محمد على الى البحر الاحمر . وأن ترى النفوذ الفرنسى يمتد اليه كذلك ويساعد كذلك على أن تتمتع الدول المطلة على البحر المتوسط بميزة أكبر من انجلترا بعد شق القناة ، اذ تصبح هذه الدولة أقرب الى الهند وآسيا عموما. وكان الخط الحديدى يكفى انجلترا ويفى بمطالبها التجـارية عبر مصر والبحر الاحمر (١) .

اللجنة الدوليـة العلميـة :

انتهز دى لسبس فرصة وجوده فى باريس ولندن فى صيف عام ١٨٥٥ وعمل على تكوين لجنة علمية دولية تضم أعضاء من انجلترا والمانيا والنمسا واسبانيا وايطاليا للقيام بالدراسات المختلفة وبحث الصعوبات الفنية التى قد تعوق المشروع ليمكن التغلب عليها . ورفضت انجلترا اختيار أعضاء يمثلونها فى اللجنة فاختار دى لسبس بنفسه أعضاء من الانجليز وكونت لجنة فرعية ذهبت الى منطقة المشروع ، وسافر معها العديد من المتحمسين للمشروع ، ولما حضروا الى مصر وضع سعيد تحت تصرفهم السفن النيلية والموظفين والخدم والمصروفات اللازمة واعتمد لهذا ٣٠٠ ألف فرنك ، وفى الحقيقة كانت هذه العملية مظاهرة سياسية أراد بها دى لسبس الماكر

---

(١) محمود صالح منسى : نفس المصدر ص٢٦٨ — ص٢٩٤

ان يخدع الوالى بمظاهر عظيمة جوفاء وبعد نزهة فى الصعيد وموائد حافلة قام اعضاء اللجنة بدراسة المشروع على الطبيعة وقدموا تقريرا موجزا قرروا فيه ان حفر القناة على خط مستقيم هو الحل الوحيد وأن تنفيذها أمر سهل ميسور ونجاح المشروع مؤكد واقامة ميناءين عند طرفى القناة سهل ميسور كما قررت أن تكاليف المشروع لايتجاوز ٢٠٠ مليون فرنك وقدم هذا التقرير الى سعيد فى ٢ يناير ١٨٥٦ فأصدر فرمانا فى ٥ منه يطلق عليه الفرمان الثانى يتناول تفصيلات المسائل التى تناولها الفرمان الاول وهو يقع فى ٢٣ مادة واكد هذا الفرمان ضرورة تصديق السلطان عليه وفى نفس اليوم اقر سعيد القانون الاساسى للشركة (١) .

واستمر دى لسبس بعد ذلك للتغلب على معارضة انجلترا فاخذ يستعين بحماته الحسناء مدام دى لامال وما تملك من أسلحة واغراء وذلك من اجل الاتصال بالكونت مترنيخ وغيره من ساسة أوربا وحاول بواسطتها أن يدس هذه المسألة على مؤتمر باريس الذى اجتمع سنة ١٨٥٦ على اثر حرب القرم ولكن مترنيخ قال أن هذه المسألة مسألة داخلية لا شأن لها بالمؤتمرات الدولية . واستخدم دى لسبس لدى سعيد باشا جاسوسا هو قنصل هولندا فى مصر (رويزنير) كما أخذ يستعين بنفوذ البابا بيوس التاسع فى التغلب على معارضة انجلترا وكتب اليه فى ٣ ابريل سنة ١٨٥٧ قائلا :

(ان بعثات مبشرينا المتفانية ايمانا وشجاعة ، سترى غزواتها الميمونة لبلاد المسلمين مسددة الخطى بهذا الاتصال الجديد ، وليس ثمة ماهو أحسن من القناة فى نشر المسيحية) (٢) فبارك البابا المشروع وروج له وكتل من أجله ساسة أوربا وملوكها .

ثم قامت فى الهند ثورة سنة ١٨٥٧ هددت مركز انجلترا هناك واستمرت الثورة عامين فبدأت انجلترا تشعر بأن القناة تفيدها فى سرعة ارسال حملاتها التأديبية الى الهند ، وأخذت حدة الضغط والمعارضة الانجليزية تخف

---

(١) محمود صالح منسى ص٢٩٤ — ص٣٢٣

(٢) د. مصطفى الحفناوى : قناة السويس ص٤٢ — القاهرة فى عام ١٩٥٦

أما السلطان العثمانى فكان معارضا للمشروع ورأى أن سعيد باشا قد تجاوز حدوده وأرسل فى سنة ١٨٥٧ بارجتين احداهما انجليزية والاخرى عثمانية الى الاسكندرية للقبض على محمد سعيد ولكن هذه المحاولة لم تفلح (١) .

ومضى ديلسبس فى طريقه وطرح أسهم الشركة للاكتتاب فى ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٥٨ فاشترت فرنسا ٢٠٧ر١١١ سهما وبلاد الامبراطورية العثمانية ٥١٧ر٩٦ سهما وعدد من الدول الاوربية والعربية عددا آخر واحتفظ بمقدار ٥٠٦ر٨٥ سهما لتباع فى انجلترا والنمسا وروسيا والولايات المتحدة فلما لم تجد هذه الاسهم من يشتريها فرض دى لسبس على سعيد شراءها وكان مقدار ما اشترته مصر يعادل ٤٤٪ من أسهم الشركة ، واسس دى لسبس مجلس ادارة للشركة اجتمع لاول مرة فى ٢٠ ديسمبر ١٨٥٨ وخشى سعيد أمر العزل فاستشار كبار رجال القانون الفرنسيين فى أمر تكوين الشركة فأكدوا له ان تكوينها باطل .

ومضى دى لسبس فى تنفيذ مشروعه ففى صبيحة الاثنين ٢٥ ابريل سنة ١٨٥٩ حمل معولا وقال : (باسم شركة قناة السويس البحرية وتنفيذا لقرارات مجلس ادارتها ، نضرب أول معول فى هذه الارض ، يفتح باب الشرق لتجارة الغرب وحضارة الغرب) (٢) .

وسارت الاعمال فى حفر القناة ببطء شديد نظرا لقلة العمال المصريين وصعوبة الاعتماد على العمال الاجانب ثم نشطت بعد ذلك الاعمال بعد استخدام السخرة فى تشغيل عدد من العمال كان يصل الى ٢٠ الف عامل وبعد شهرين توفى ســعيد باشا .

اســـماعيل والشركة :

ولما جاء اسماعيل باشا الى الحكم اعترض على هذه الامتيازات المجحفة بحق مصر ووقع بينه وبين الشركة نزاع ثم وقع معها اتفاقا فى ١٨ مارس

---

(١) محمود صالح منسى : ص ٢٣١ — ص ٢٤٤

(٢) نفس المصـــدر ص ٤٥ (مصطفى الحفناوى)

سنة ١٨٦٣ أخذت الحكومة المصرية بمقتضاه حق حفر القناة العذبة من شبرا الى منطقة القناة فتخلصت به الشركة بذلك من المتاعب التى كان يتطلبها حفر الترعة ونزع ملكية الاراضى التى تمر بها الترعة كما وفر على الشركة النفقات التى كان يتطلبها حفر هذه الترعة ، وعقد اتفاقا آخر فى ٢٠ مارس نظم فيه اسماعيل الطريقة التى تسدد بها مصر ثمن الاسهم التى اكتتبت فيها وكان عددها ١٧٧٦٤٢ سهما وبذلك اسدى اسماعيل للشركة خدمة جليلة فى واقع الامر وطلب اسماعيل كذلك تخفيض عدد العمال المسخرين فى حفر القناة من ٢٠ الف الى ٦ آلاف لاستخدام الفائض فى زراعة القطن التى راجت رواجا شديدا بسبب انقطاع القطن الامريكى من السوق بسبب الحرب الاهلية الامريكية وكان الاجدى به أن يطلب الغاء السخرة كذلك كما انه طلب الغاء امتياز تملك الشركة للاراضى على الجانبين وكان فى ذلك حكيما بعيد النظر ورفضت الشركة هذه المطالب ومضت فى خصومتها وقام نزاع وجدل صحفى بين وزيره نوبار والشركة فى أوربا وأخيرا تصالح الفريقان على أساس تحكيم الامبراطور نابليون ٣ فى الامر ورضى اسماعيل وكان الاجدر به عدم الموافقة فهو فى الحقيقة كان غير موفق فى ذلك لان هذا الامبراطور كان خصما فكيف يكون حكما وهو الذى كان يعتبر مشروع القناة مشروعا فرنسيا قوميا يرفع من شأن فرنسا فى منطقة الشرق الأوسط والادنى،وعرض الامبراطور موضوع النزاع على لجنة قامت بدراسته ووضعت تقريرها ولم يكن فى مصـــلحة الشركة ولكن الامبراطور الخصم عرض الأمر على لجنة أخرى وأسرعت الشركة توافق على الغاء السخرة ولكنها تطلب فى نظير ذلك تعويضا ضخما وأخذ الامبراطور بوجهة نظر اللجنة واصدر قراره فى يونية سنة ١٨٦٤ وهو يقضى : ــ

١ ــ أجيب والى مصر الى تعديل الشرطين الخاصين بتسخير الفلاحين المصريين وبامتلاك الشركة للاراضى سالفة الذكر نظير ان يدفع اسماعيل للشركة تعويضا يبلغ ثلاثة ملايين من الجنيهات تدفع على خمسة عشر عاما .

٢ ــ يعتبر اتفاق ٢٠ يولية سنة ١٨٥٦ بشأن استخدام العمال المصريين بمنزلة عقد يحتوى على التزامات متبادلة يجب على كل من الخديوى والشركة القيـــام بهـــا .

٣ ــ تتنازل الشركة عن مطالبة الحكومة بتقديم العمال على أن تدفع تعويضا قدره ٣٨ مليون فرنك (١٫٥٢٠٫٠٠٠ جنيها) .

٤ ــ تتنازل الشركة عن كل حق فى ترعة المياه العذبة وتلتزم الحكومة باتمامها وتحتفظ الشركة بحق الانتفاع بها وتدفع مصر تعويضا قدره ١٦ مليون فرنك (٦٤٠٫٠٠٠ جنيه) .

٥ ــ تحدد الاراضى المملوكة للشركة واللازمة للمشروع بمقدار ٣٣ الف هكتار (٧٤ الف فدان) تقريبا منها ١٠٫٢٦٤ على جانبى القناة وملحقاتها و ٩٫٦٠٠ للترعة العذبة وثلاثة آلاف هكتار لمبانى الشركة (الهكتار ١٠ آلاف متر مربع) .

٦ ــ تعاد الاراضى الاخرى التى اتضح عدم لزومها للمشروع ومساحتها ستين الف هكتار الى الحكومة المصرية مقابل تعويض قدره ثلاثين مليون فرنك (مليون ومائة وعشرون ألف جنيه) ومن هذا خرجت مصر مدينة بما يساوى ٣٫٣٦٠٫٠٠٠ جنيـــه .

وقد اتفق على تقسيط هذا التعويض على ١٦ عاما ومما يثير الدهشة ان رئيس اللجنة برر ضخامة هذا المبلغ تبريرا غريبا فقد قال أن الباشوات فى مصر ينفقون على ملذاتهم أضعاف هذا المبلغ ويبدو أن اللجنة كانت تنظر فى الواقع الى ما كسبته مصر من ارتفاع اسعار القطن المصرى كما رأينا وكانت تنظر أيضا الى أن الشركة مهددة بالتوقف بسبب نقص المال اللازم فكان هذا التعويض الضخم عونا لها على مواصلة اعمالها . فأخذت تتعاقد مع العديد من الشركات الأوربية واستخدمت الآت الحفر الميكانيكية وعديدا من العمال الاجانب الذين كانوا مصدر شغب فكثيرا ماثاروا وقاموا باضرابات متعددة طالبين رفع أجورهم وكثيرا ماكانوا يطلبون من العمال المصريين الاشتراك فى هذه الاضرابات ، فاذا مارفضوا وقعت المصـــادمات واستخدم هؤلاء العمال الاسلحة النارية وكثيرا ما اعتدى هؤلاء العمال على البوليس المصرى . وكان العديد من قناصل الدول يذهبون الى منطقة العمل لتهدئة الحـــال (١) .

---

(١) الرافعي : عصر اسماعيل . الجزء الأول . القاهرة ١٩٤٨ ط٢ ص٨٨ ــ ص٩٤

وبعد صدور قانون التحكيم عقد اسماعيل اتفاقا مع الشركة شاملا لهذه المبادىء ولم يملك السلطان العثمانى فى النهاية الا أن يصدق فى مارس سنة ١٨٦٦ على فرمان امتياز مشروع قناة السويس .

اما الشركة فأخذت تبعثر اموال اسماعيل فكانت تقترح التنازل عن أحد امتيازاتها نظير مبلغ من التعويضات وكان اسماعيل يستجيب لها ومن اجل ذلك عقد اسماعيل مع الشركة العديد من الاتفاقات تنازلت فيها الشركة على سبيل المثال من تفتيش الوادى وعن حق الاعفاء الجمركى وعن حق استغلال محاجر المكس .

وأخيرا وبعد أن مات آلاف العمال المصريين جوعا وعطشا وبسبب التعذيب تم حفر القناة وافتتحت للملاحة فى ١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩ وأنفق اسماعيل فى حفلات الافتتاح مبلغ مليون وأربعمائة ألف جنيه ودعى ملوك وأمراء أوربا لحضور حفل الافتتاح وكان اسرافه فى هذه الحفلات وبذخه موضع سخرية من هؤلاء الذين شاهدوا فقر الشعب المصرى فى الوقت الذى رأوا فيه بذخ اسماعيل فى قصوره وحفلاته ورأوا ماتعانيه مصر من ديون فادحة .

وقد بلغ مقدار نفقات حفر القناة ٣٥٢٫٨٢٧٫٠٩٧٫٠٩ فرنكا (نحو ١٨٫٥ مليون جنيـــــه) .

انجلترا تسرق أسهم مصر فى الشركة

عندما اشتدت الازمة المالية نتيجة فساد حكم اسماعيل واضحت البلاد على شفا الافلاس عرض اسماعيل أسهم مصر رهنا فى فرنسا ضمانا لقرض جديد قيمته أربعة ملايين من الجنيهات وطلب المرابون الفرنسيون ١٨٪ فائدة بشرط الا يزيد القرض عن ٥٠ مليون فرنك وتسرب الخبر الى الحكومة الانجليزية عن طريق الصحافة فأبرقت الى قنصلها فى القاهرة فى ١٦ نوفمبر سنة ١٨٧٥م تطلب التحقق من النبأ ثم تلقى القنصل برقية فى نفس اليوم تفيد بقبول انجلترا شراء الاسهم ، وتمت الصفقة فعلا فى ٢٥ نوفمبر سنة ١٨٧٥ ، واسرع دزرائيلى رئيس وزراء انجلترا وتوجه الى بنك روتشيلد طالبه

اربعة ملايين جنيه نظير كلمة الوزير الاول فى انجلترا وعند تسليم الاسهم تبين أنها تنقص ١٠٤٠ سهما فقدت ولم يعرف سارقها فخصم ثمنها وتعهدت انجلترا بسداد مبلغ ٥٨٢ر٩٧٦ر٣ج وكانت مصر قد تنازلت فى اتفاقية عقدها اسماعيل مع الشركة ١٨٦٩ عن فوائد اسهمها لمدة خمس وعشرين سنة تنتهى فى ١٨٩٤ وعلى هذا تعهدت بأن تدفع للحكومة البريطانية فائدة سنوية قدرها ٥٪ من مجموع قيمة الاسهم وحتى ١٨٩٤ وبهذا حصلت انجلترا على الاسهم مجانا واستردت المبلغ المدفوع وحتى هذا المبلغ نفسه لم يدخل الخزانة المصرية بل ان البنوك كانت قد قبضته كفوائد للديون .

وقد عبرت صحيفة العالمين الفرنسية فى أول ديسمبر سنة ١٨٧٥ عن ذلك بقولها (ان هذا العمل سياسى محض ، وهذا وجه الخطر فيه ، فاذا لم يكن فى حد ذاته احتلالا لمصر فانه الخطوة الأولى فى هذا الاحتلال ...) (١)

وتوالت تهانى ملوك أوربا للملكة فكتوريا التى نودى بها امبراطورة على الهند والتى ظفر دزرائيلى بسبب هذه الصفقة على لقب لورد بيكونز فيلد .

تحـــول فى السياســـة البريطانية :

ظهر لانجلترا فى أواخر القرن التاسع عشر وبعد فتح قناة السويس انه لاأمل يرجى من تدعيم الدولة العثمانية فغيرت انجلترا من سياستها ازاء مصر وتطلعت الى بسط سيطرتها عليها بل وامتلاكها وبدأ هذا النفوذ بنفوذ اقتصـــادى ثم تحول الى ســيطرة سياســـية انتهت فى آخر الأمر باحتلال عســـكرى فى سنة ١٨٢٢ وكان ذلك من أجل حرص انجلترا على امتلاك القناة والارض التى تمر بها القناة لتنفرد انجلترا بهذا الشريان الحيوى فى المواصلات بين الشرق والغرب .

اثر فتح القناة على مصر :

كانت القناة — بقدر ما جلبت على مصر أطماع الدول الاوربية وبقدر ماكانت هى مشروعا سياسيا استعماريا — فائدة لمصر فقد ادت الى ان

---

(١) د. الحفناوى : قناة السويس ص٦٩

تدب الحياة فى قطعة من مصر كانت صحراء قامت فيها مدن بورسعيد وبورفؤاد والاسماعيلية وبورتوفيق وانتعشت مدن السويس والقنطرة وزادت علاقات مصر بالخارج ووجد مجال العمل أمام آلاف العمال المصريين ولكننا يجب أن نفهم أن هذه الفوائد لم تكن تعادل تلك التضحيات العظيمة التى بذلتها مصر فى حفر القناة فآلاف العمال سخروا فى حفر القناة وآلاف ماتوا من الجوع والعطش والعذاب وملايين الجنيهات تحملتها مصر فى اتمام هذا المشروع ثم هى خسرت فى النهاية اسهمها ونسبة أرباحها فى القناة (١) .

معاهدة القسطنطينية سـنة ١٨٨٨م :

احتلت انجلترا مصر سنة ١٨٨٢ على كره من الشعب المصرى وانهت انجلترا الاحتلال الحالى لمصر الذى يتمثل فى المراقبة الثنائية التى كانت لها ولفرنسا وانفردت هى بهذا الاشراف وابدلته باشراف فعلى وسيطرة تامة لها على مالية مصر ومقدراتها السياسية وفقدت فرنسا مركزها فى مصر ونجم عن هذا الاحتلال البريطانى ثلاثة نتائج على جانب كبير من الأهمية .

الاولى : اصبح لانجلترا دورا اكبر فى ادارة القناة فانها بعد أن سرقت اسهم مصر فى عهد الخديو اسماعيل خصص لها ثلاث مقاعد من بين ٢٤ مقعدا فى مجلس ادارة الشركة ثم ارتفع هذا الرقم الى ٧ بعد أن احتلت مصر وبدأ المندوبون الانجليز فى مجلس الادارة يخضعون القناة للسياسة البريطانية وللحربية البريطانية التى وضعت فوق كل اعتبار وقد ثبت أثناء العمليات الحربية التى انتهت باحتلال انجلترا لمصر ان الاعضاء الانجليز فى مجلس ادارة الشركة كانوا اكثر حماسا من رجال البحرية والحرب والانجليز .

الثانية : أصبحت انجلترا تمثل دور الحارس لقناة السويس وانها تقوم بذلك نيابة عن مصر وعن تركية وذلك على الرغم من ان الدول الاوربية لم تعترف بشرعية هذا الاحتلال وان كانت لم تثر معارضة قوية له ، واكتفى

(١) د. عبد العزيز الشناوى : السخرة فى حفر قناة السويس ـ الاسكندرية ١٩٥٨ ص٧ ، ص٢٦٢ ـــ ص٢٦٦

الباب العالى بالاحتجاج فهو لم يكن يملك أكثر من ذلك ورأت انجلترا أن تترك مركز مصر السياسى والدولى كما كان اى أن تظل السيادة الشرعية الاسمية للسلطان قائمة فى مصر بينما انجلترا فى الواقع تسيطر على كل شىء . وأصبحت القناة بهذا مجرى مائى فى أرض مصرية تسرى عليه السيادة العثمانية كما تسرى على بقية أجزاء مصر وهى سيادة شكلية فقط .

الثالثة : سعت انجلترا بعد احتلالها لمصر للاتفاق مع الدول الاوربية على حرية مرور سفنها فى القناة فى جميع الاحوال والاحتفاظ لانجلترا بحق الدفاع عن القناة اذا ماوقع اعتداء على مصر ووجدت انجلترا انه لكى تكتسب رضاء الدول فعليها أن تحقق حرية المرور فى القناة بجانب اعتراف الدول بالامر الواقع والمحافظة على مصلحة انجلترا وابعاد الدول عن الفكرة القائلة بأن انجلترا — باحتلالها لمصر تريد أن تسيطر على قناة السويس وتستغلها لمصلحتها الخاصة واذا ماحققت انجلترا حرية المرور للتجارة العالمية فى السلم والحرب فهناك احتمال كبير فى أن تلتزم الدول الحياد ازاء الاحتلال الانجليزى لمصر ولاتطالبها بتجديد موعد لجلاء قواتها عن مصر فأعلنت عن رغبتها فى الدخول فى مفاوضات مع الدول لوضع نظام توافق عليه جميع الدول لضمان حرية المرور فى القناة وسارت هذه المفاوضات منذ سنة ١٨٨٤ سيرا بطيئا حتى وصلت الدول الى عقد اتفاق وقعته فى استانبول فى ٢٩ أكتوبر سنة ١٨٨٨ بريطانيا والمانيا والنمسا والمجر واسبانيا وفرنسا وهولندا وروسيا وايطاليا وتركيا . وهذه الاتفاقية تتكون من ١٧ مادة يلاحظ أن انجلترا نفذت فكرتها فيما يختص بحرية المرور لسفن جميع الدول التجارية والحربية فى وقت السلم وفى وقت الحرب كما اكدت فى هذه الاتفاقية حقوق الحكومة المصرية فى الدفاع عن القناة فهى جزء من الأراضى المصرية . ذلك الامر الذى لاتستريح له انجلترا . واذا كانت انجلترا قد قررت مبدأ المساومة بين الدول واكدت عدم جواز انفراد أية دولة بالنفوذ فى مصر فهى لم تكن فى الحقيقة تستريح الى ذلك واتاح لها احتلالها العسكرى لمصر ومركزها الممتاز فيها أن يصبح لها من الناحية الفعلية النفوذ المتفوق فى مصر وفى شركة القناة ، ثم هى قد أصرت على أن يعهد الى مصر تنفيذ هذا الاتفاق ولم يكن هذا الا انه سيتيح لها هى السلطة الفعلية فى تنفيذه ، وان كان بطريقة غير مباشرة . ونص فى الاتفاقية على أن يكون لمصر وحدها الحق فى وضع

الجيوش والسفن الحربية في منطقة القناة ولها وحدها الحق في تفتيش السفن المشتبه فيها واتاح احتلال انجلترا لمصر الاشراف الفعلى على الجيش المصرى وعلى تحديد عدده وتعيين ضباطه وقواده من الانجليز . واحتفظت انجلترا لنفسها بحق تنظيم موقف القناة بشكل لايعرقل حركات الجيوش البريطانية في مصر .

ولما رأت الدول أن انجلترا تؤكد دائما بأنه ليس من السهل فصل مسألة مصر عن مسألة القناة وانه نتيجة للاحتلال سيكون لها بالفعل مركز خاص اصرت الدول على عدم منح انجلترا أية امتيازات خاصة على اساس انها تحتل مصر ولها مصالح فى القناة أكبر من الدول الأخرى ، ونصت ايضا الاتفاقية على عدم جواز اقامة تحصينات على القناة او بجوارها او احتلاله نقطة حرجة فى منطقتها او الاماكن المشرفة عليها ، كما سجلت الدول عدم جواز القيام باعمال حربية فى منطقتها او فى المياه الاقليمية لمداخلها وعلى بعد ٣ أميال وأدى ذلك الى الاتفاق بأنه لايجوز لسفن المتحاربين التزود فى القناة ولا فى موانيها الا فى حالة الضرورة القصوى ، ويكون مرور هذه السفن فى اقصر وقت ممكن ولايجوز لها أن ترحل فى أول فرصة مستطاعة ويجب أن تمر فترة ٢٤ ساعة بين ابحار سفينتين متعاديتين ونصت المادة الخامسة على أنه فى وقت الحرب لاتنزل السفن المتحاربة أو تأخذ جنودا أو مواد حربية فى القناة وفى موانيها .

محاولة مد أجل الامتيازات :

بعد عقد اتفاقية القسطنطينية سنة ١٨٨٨ ساد الاعتقاد بأنه سيبدأ النقاش العنيف الذى اثير حول موضوع القناة ولكن كان هذا الاعتقاد بعيدا عن الواقع فقد كانت هذه القناة جزءا من المسألة المصرية والدول لاتزال تنظر بعين العداوة والحقد لاحتلال بريطانيا لمصر وقد شعرت الدول أن انجلترا كانت تدعى لنفسها ماكان من حق الولاية على مصر وعلى الرغم من أن انجلترا قد اعلنت مرارا أن الاحتلال مؤقت فانها لم تكن فى الواقع تعتزم الجلاء عن مصر .

وبعد فتح القناة وانتظام الملاحة فيها بدأت الشركة بعد قليل تنفذ مشروعا لتحسين المرور فى القناة وذلك بتعميقها وتوسيع جوانبها وتخفيض رسوم المرور وفى سنة ١٩٠٩ رأت الشركة أن تتقدم الى الحكومة المصرية طالبة مد أجل الامتياز أربعين سنة أخرى بحيث ينتهى امتيازها فى ٣١ ديسمبر سنة ٢٠١٨ بدلا من ١٦ نوفمبر سنة ١٩٦٨ وقد كانت بعض الدوائر الوزارية فى مصر على وشك ان تقبل الاقتراح ولكن الرأى العـــام المصرى كان يعارض هذا الاقتراح لانهم رأوا أن مد أجل الامتياز لم يكن فى نفسه الا امتدادا للتدخل الاجنبى فى شئون البلاد ، وفى الجمعية العمومية المصرية عرض هذا الاقتراح فكونت لجنة فرعية لبحث الاقتراح ورفضته اللجنة بالاجماع ولما عرض بعد ذلك على الجمعية نفسها رفضته فى ابريل سنة ١٩١٠ وكان معنى هذا هو أن الرأى العام المصرى كان من النمو بحيث فهم مدى الخطورة التى تنجم عن ذلك .

رقم الايداع ١٨٨٩ / ٩٨١

الترقيم الدولى ٧ — ٧١ — ٧٣٤١ — ٩٧٧

دار التضامن للطباعة

٢٢ شارع سامى — ميدان لاظوغلى

تليفون — ٣٠٥٥٦